

مبانيات اجميانية في تاريخ لبنان

رَحَلَتِي فِي لَبْنَانِ

في الثلث الاول من القرن التاسع عشر

مزينة برسوم يدوية من الطبيعة والآثار اللبنانية

اختار فصولها وعربها عن الانكليزية

رؤيف خوري

من كتاب

سوريا والارض المقدسة وآسيا الصغرى، النخ، النخ...

تأليف

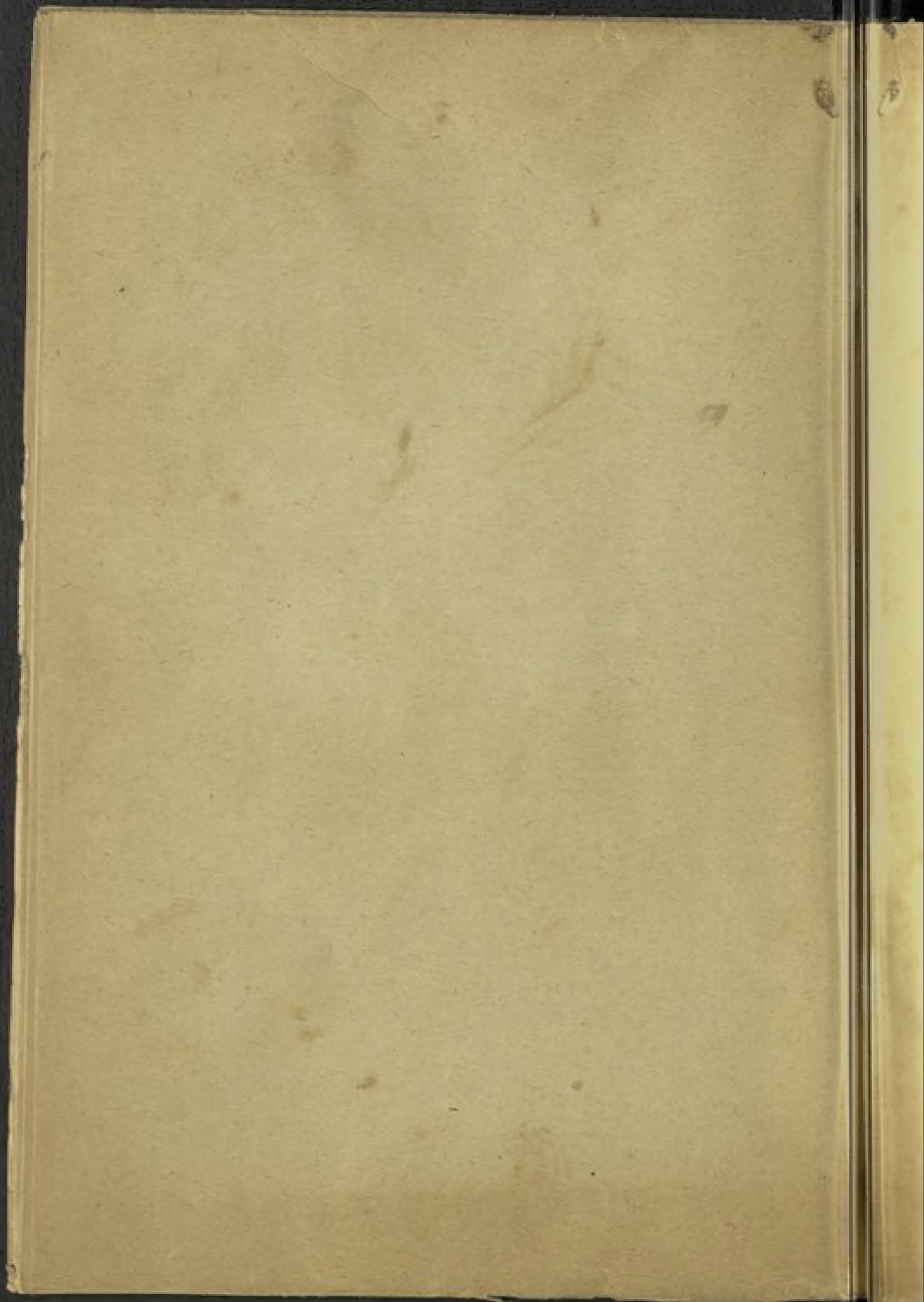
جون كارن

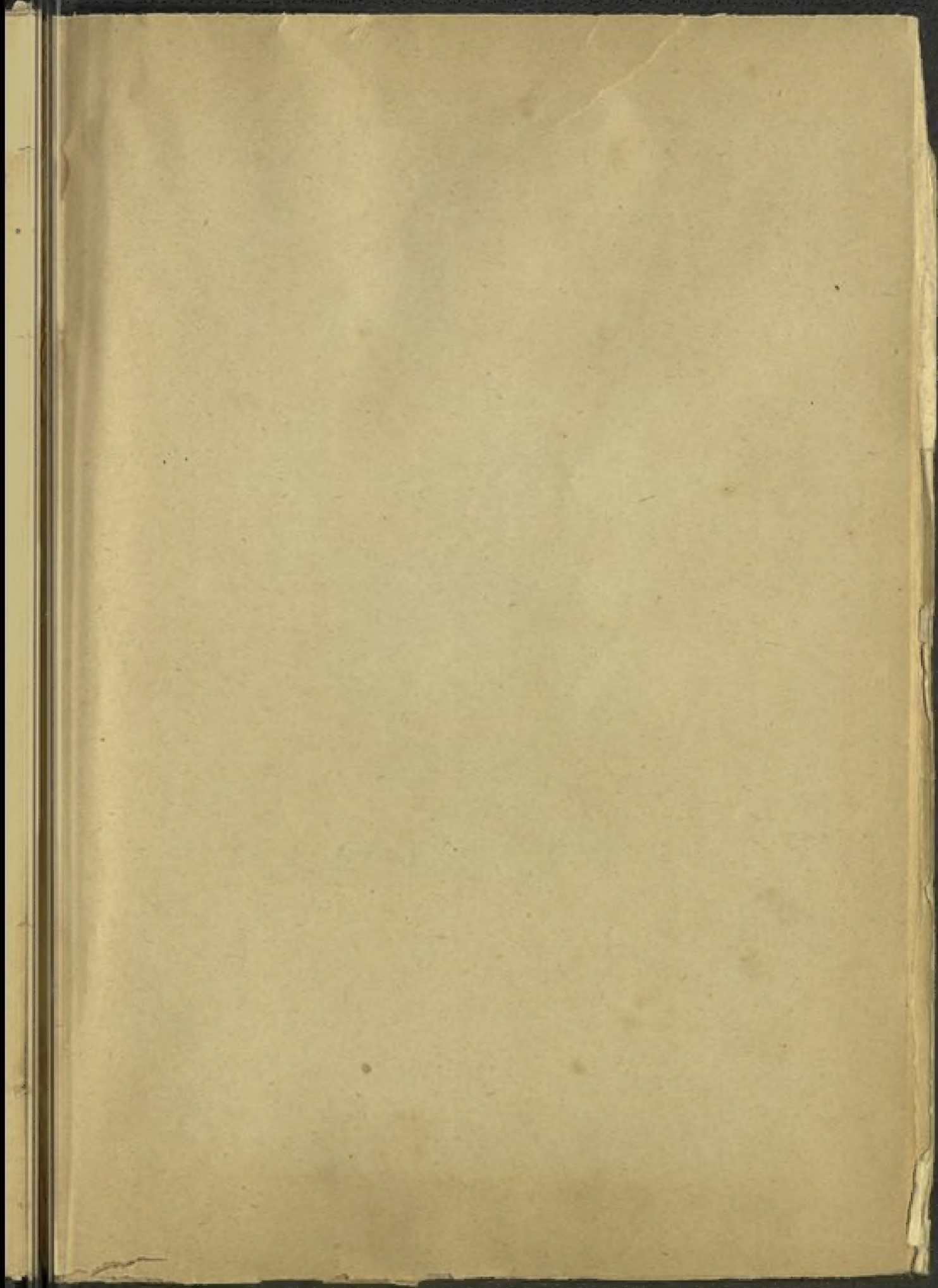
منشورات دار المكشوف

4B77 S1A5

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT







915.69

مجموعت (الجهنمية) في تاريخ لبنان

B 2952A

C. 1

رَحَلَتِي فِي لَبْنَانِ

في الثلث الأول من القرن التاسع عشر

مزينة برسوم يدوية من الطبيعة والآثار اللبنانية

اختار فصولها وعربها عن الانكليزية

رؤيف خوري

من كتاب

سوريا والارض المقدسة وآسيا الصغرى، الخ، الخ...

تأليف

جون كارن

منشورات دار المكشوف

الطبعة الثانية ، بيروت - لبنان ، كانون الاول ١٩٤٨
جميع الحقوق محفوظة لدار المكشوف

مقدمة

هذا الكتاب ، في اصله الانكليزي الكامل ، يتجاوز لبنان ليدور بسطوره ورسومه على هذه البقاع الاناضولية والسورية واللبنانية والفلسطينية كلها^١. وهو يرجع القهري في تاريخ هذه البقاع ، الى قرن ونحو ربع القرن - اعني الى ما قبل الحملة المصرية ايام محمد علي وولده ابراهيم السنة ١٨٣١^٢ . وكانت سطوره ورسومه المنقولة نقلاً فنياً عن ايجاد الطبيعة وآثار الانسان في هذه البقاع تزيح ، في الخيال ، سدولاً عتيقة علاها الغبار لتنبسط من وراء هذه السدول مسارج للحياة في ذلك الزمان النائي ، في هذه البقاع التي هي بقاعنا خاصة او قريبة منا ، وشيجة اللحمة بنا .

١ عنوان الكتاب التام في الاصل : « سوريا والارض المقدسة وآسيا الصغرى ، الخ ، الخ . »

« Syria, the Holy Land, Asia Minor, and C^o. and C^o. »

٢ لا يحدد المؤلف تاريخ زيارته ولا مدتها ، لكنه يذكر في مقدمته انه قام بها قبل الحملة المصرية . وتبدر منه في تضاعيف فصوله بوادر تدل على انه كان قد انتهى الزيارة فيما هو يعد كتابه الاعداد النهائي لدفعه الى الطبع . ولينا ندري متى كان البدء بطبعه ، لكن نعرف من صفحته الاولى انه ظهر سنة ١٨٣٦ .

أما المؤلف جون كارن John Carne فيظهر أنه مبشر مسيحي توراتي العقلية ، لا ينفك يستعيد كلمات انبياء التوراة ، ولا يفتأ يذكر السبت على اعتباره اليوم المقدس في الاسبوع . لكن الذي يظهر كذلك ان المستر جون كارن ، هذا ، اديب ايضاً وذوق فن وملم بالتاريخ . ومن هنا قيمة كتابه . فهو بوصفه اديباً يحيط بتصوير ايجاد الطبيعة وآثار الانسان وألوان الحياة وعاداتها في هذه البقاع . ثم هو بوصفه ذوق فن أبي في رحلته إلا ان يصطحب رساماً ، بل رسامين^١ يدوين نقلا له لوحات من ايجاد الطبيعة وآثار الانسان وعادات الحياة وألوانها في تاريخ هذه البقاع الحافل الغني . ثم هو بوصفه ملماً بالتاريخ قد زود مؤلفه مقداراً من معارفات وملاحظات لها في ميزان الاطلاع قسنتها ونفاستها .

لكن ، بالطبع ، ليس لي ان اسكت على شيء استوعاني ، فانا حريص ان لا يفوت القارئ . ذلك ان المؤلف - مذ كان مبشراً - لا يفتأ يصدر عن انفعالات واحكام تأثر فيها بدعوته او بحرفته . فهو يتصدى احياناً لامور مذهبية يعتبرها ضلالاً او عصبية ، لكن ليدعو جهراً او خفياً الى امور مذهبية على طرازها . فهذه وامثالها مما ورد في اصل النص ، وهو سبب مشاحنة او خارج على الموضوع ، قد آثرت ، في اغلب الاحيان ،

١ في عنوان الكتاب ان رسومه صنعها نقلا عن الطبيعة : « و . هـ .
بارتليت W. H. Bartlett ووليام برسر William Purser وشركاؤهم » .
ولعلها شركة تصوير اوفدت صحبة المؤلف رساماً او رسامين .

ان اضرب عنه صفحاً مع الائمة اليه في الحاشية امانة عابرة ،
امانة للنقل .

بقي شيء آخر : ان المؤلف ، جرياً على تقاليد الادباء الغربيين
في نظرهم الى الشرق ، - ولا سيما هذه البقاع منه - ، اذا ينصرف
الى شبه استغراق صوفي في انفعالات نفسية ازاء روائع الطبيعة
عندنا وذكريات التاريخ والوان الحياة والعادات القروية ، ولا سيما
حياة الفلاحين الصغار وعاداتهم . فالشرق مطاف احلام روحانية ،
ومنازل أخيلة من مجد غابر ، ومطمأن اعصاب ارقها ما يجهد
الغرب في سبيل « المادة » . والشرق الى ذلك يحتاج الى معلم
مستعمر ، او ، على أيسر تقدير ، الى مبشر ينظف عقائده من
عناكب الخرافة ...

وما أخالني في حاجة الى ان احذر القارىء من قبول هذه
الدغدغات الرومانطيقية التي اكثرت لنا بذاتها كتاب الغرب ، من
مبشرين وغير مبشرين ، ليروضونا - من جهة - بما قسم الله لنا
من جلال طبيعة ومجد تاريخ وهناء عيش على حصص صغيرة من
الارض ، ثم ليقنعونا - من جهة اخرى - بحاجتنا الى المعلم الغربي
مستعمر او مبشراً .

وهكذا ترى ، يا قارئى ، ان معرفتي بهذا السفر الضخم ،
المطبوع سنة ١٨٣٦ ، في لندن ، في ثلاثة اجزاء ، مزيناً
بالرسوم النفيسة ، قد تطورت الى طول معاشرة في ترجمة اقتصرت
على الفصول ذات الصلة بلبنان خاصة ، فكان هذا الكتاب الذي

استولدت له ذلك السفر الضخم ورتبته على وجوه ، بادئاً ببيروت ،
منتقلاً منها عبر طرابلس الى الشمال ، ثم مستأنفاً عبر الدامور
والمتن الى دير القمر والباروك ، ثم منقلباً الى بعلبك والعاصي ،
ثم منتهيّاً الى صيدا وصور ، متطرقاً الى استلحاق بعض فصول ،
ان لم تكن عناوينها مما يدخل مباشرة في الاطار اللبناني فهي به
قوية العلاقة والارتباط .

وهو كتاب رضيت بان اخرجه لك ايماناً بنفع مادته التاريخية ،
ويقيناً بان ما لا يصح منه ان يكون موضوع الموافقة جدير بان
يكون مثار النقد والتعمق والتفكير .

رئيف خوري

بيروت وجبل لبنان

هذا خير مشهد من مدينة بيروت . ثقل من جوار « فيلا »
كان يتولها في السابق المستر فرن فتعل بريطانيا العام في سوريا .
وهو اليوم فاطن دمشق .

ان سلسلة جبال لبنان البعيدة تبدو من هذا الموقع على
جمال خاص . كذلك تبدو ، من كل جانب ، شعاف الجبال على
اشكال مربعة ، سوى ان الطبيعة جعلتها اقل تربيعاً من ريشة
الرسم . اما المنازل التي تظهر مباشرة خارج الاسوار فهي ملك
المرسلين الاميركان .

وتلوح على منحدرات الجبل اديرة كثيرة في مواقع هبّة ،
يحيط بكل دير بستانه ، ويشرف على البحر والشاطئ والسيل .
اما الى جهة اليسار فتطل قصور عربية قديمة ، تساعد بتدسيتها
الاقطاعية العريقة على التخفيف من وطأة مشهد المدينة البائس
الشبيه بالسجن .

والى اليمين يقوم برج الحجر الصحي الجديد الذي بناه ابراهيم
باشا حديثاً .

النساء في مقدم الرسم يلبسن في الرأس الزينة اللبنانية

المنقطة . وهي تتألف من طنطور فضي منقوش بالرسوم والتصاوير
الغريبة ومرصع بالجواهر المزيفة . طنطور أجوف يزيد ارتفاعه
على القدم ، ينصب فوق الرأس نصباً ، ثم يشد تحت الذقن
بشريط من حرير ، ويظهر عليه الوشاح الذي يتدلى الى اسفل
على طراز مسرحي مغطياً الكف وجانباً من الوجه . لكن في
الامر الغنية تلبس النساء ، ازواج المشايخ والامراء ، طنطوراً
أبدع وأبهى مرصعاً بالجواهر الصحيحة لا المزيفة . وفي الاعراس ،
ترى العروس وصبايا العرس يحملن على رؤوسهن هذا الطنطور
النفيس . إلا انه لا ينبغي ولا جميل . لو لبسته المرأة في شوارع
المدينة لبدا مضحكاً مدعاة سخرية . غير انه ، على جوانب الجبال
وفي الامكنة النائية الموحشة ، يبدو شيئاً بارزاً مبتكراً ، ويعين
على تخفيف اثر الزي الفلاحي الرتيب الذي لا تتوحد فيه ولا
تلون .

اما هذا الثبت الذي يظهر في مقدم الرسم فهو « الاجاص »
الشائك « او صبر ايوب . وهو كثير في تلك الضواحي . ينمو في
سرعة عجيبة . اذا غرس منه لوح بلغ من ثمره في اربع سنوات
ان اصبح يملأ غرفة بكاملها . والواقع ان مادة هذا الثبت كله ،
من قصته الى لبابه الى الحجاب الكثيف الذي يغطي ثمره ،
ليست شيئاً آخر سوى اوراق طوي بعضها على بعض وتشابكت
تشابكاً متلاحماً . فاذا سلخ عن الثمرة حجابها الورقي الكثيف
وسائر ما عليه ، ظهرت الثمرة في الداخل بحجم الاجاصة . طعمها
ليس بلذيق اول الامر . فانه حلو حلاوة سقية . لكن الكثيرين
لا يلبثون ان يستنبغوه . فأما زهر هذا الثبت فصغير ، اصفر

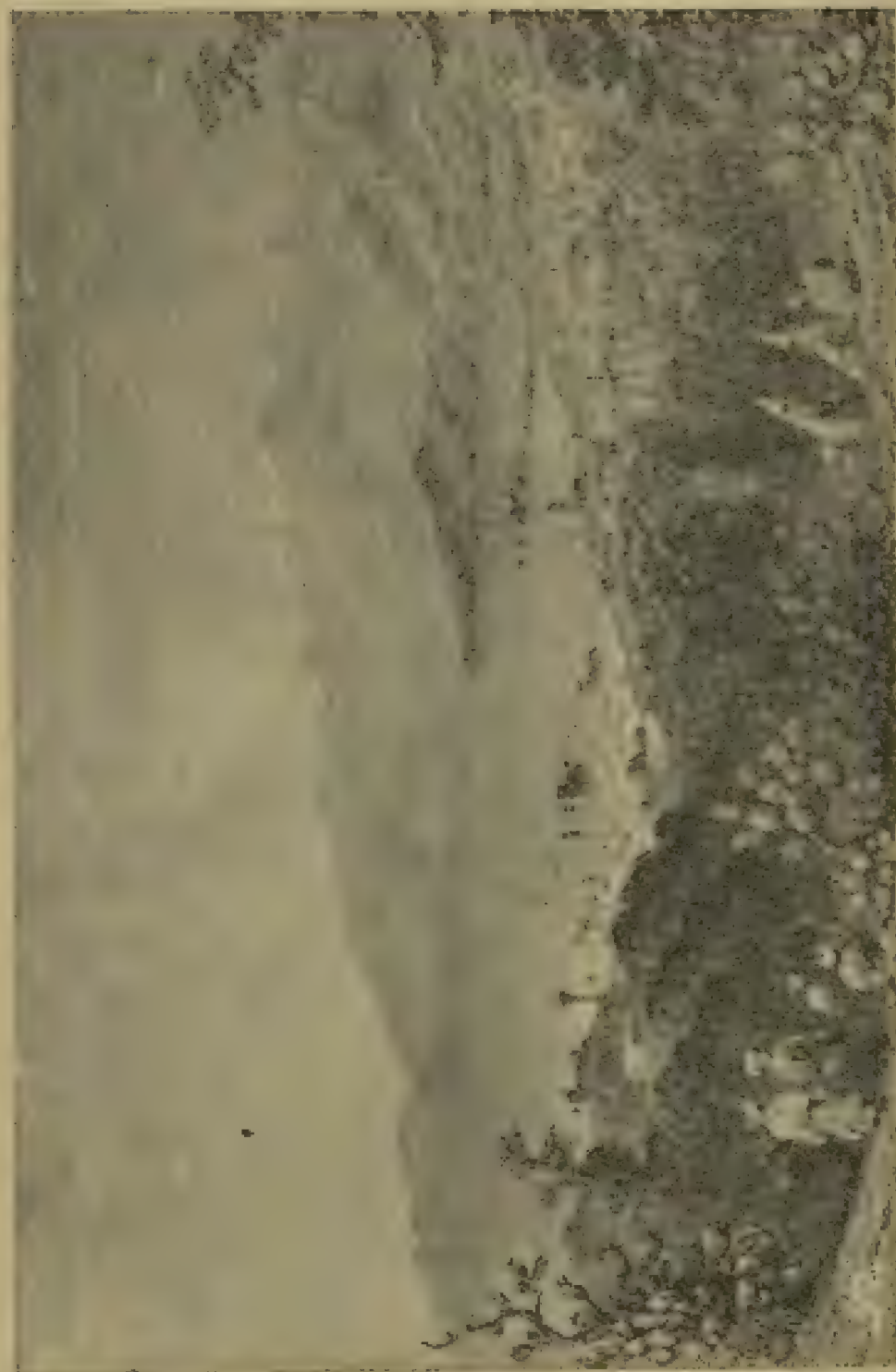
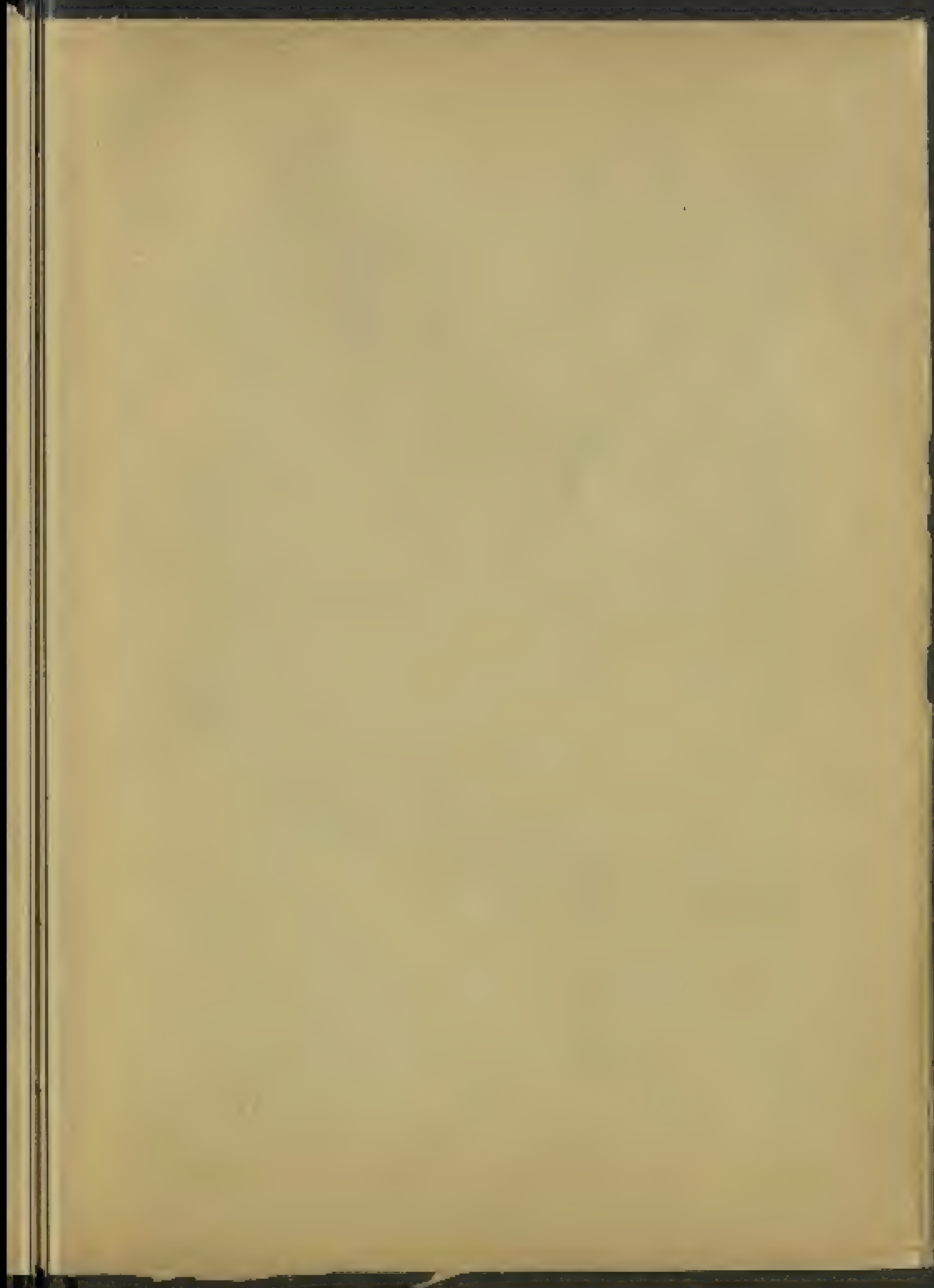


Figure 10



اللون اصفراراً بديعاً برفاً . واكثر الاسيجة على جوانب الطرق
وهوامش البساتين التي تحيط بالمدينة انا يتألف معظمها في الغالب
من هذا النبات ، فتكون واقياً فعلياً يصدّ الارجل المنيعة التي
لا تلبث ان تجد اختراق هذه الاسيجة باشواكها الكثيرة
والثقافتها المعقدة امرأ صعباً جداً .

وبيروت أوفق مكان ينغذه المرء مسكناً في لبنان . انها بديعة
الموقع ، والمشاهد التي تطل عليها من كل جانب حلوة جميلة . على
ان المدينة نفسها قدرة مميّزة . اذا قوبلت بطرابلس الحسنة
البناء ونهرها قاديشا المنساب انساباً رائعاً عذباً . وجبل لبنان
رائع المنظر من بيروت . وليس منظره اقل روعة من طرابلس .
إلا انه اكثر بعداً . على ان بيروت مرفأ لدمشق وداخل سوريا .
وموقعها اصح لتقبل المشعوذات والانباء وما اشبه من اوروبا .
فشاطها التجاري اعظم من نشاط كل مرفأ آخر في سوريا .
وفيها قيم عدد موفور من التجار ، بالاضافة الى القناصل ووكلاء
الدول الأوروبية المختلفة . فهذه المدينة هي ، إذن ، في نظر
الأوروبي اطرف وأوفر حياة من دمشق بما لا يقاس . فالأوروبي
في دمشق - على كونه غارقاً في الشارف بين الانهار والجنان -
لا يملك في احيان كثيرة إلا ان يقول : « اني وحيد » . رفاقي
وقومي غني بعبدون ، ولا يلتفت الى انسان .

اجل ، ان بيروت هي افضل المدينتين موضع سكني .
ويستطيع المقيم فيها ان يحشد الى منزله ، في اجل وجيز ، اسباب
الراحة والبهجة كأنه في دمشق . يضاف الى ذلك ان البحر
والخليج البديع يوفران مشهداً اعظم اغراء واكثر اختلافاً من

مشهد «بردى» وه «أبناء» وسائر الأنهر الثلاثة الشقيقة . ويفسح
لبنان في سبل النزهات والزيارات الى الاديرة والادوية والقصور
التي تذكر تذكر فورياً بإيطاليا واسكوتلند .

وقد تحسنت بيروت وضواحيها جداً في الآونة الاخيرة ، ولا
تزال آخذة في التحسين على اضطرار ، تشهد هذه المساكن والمغاني
الجديدة التي بنيت في كثرة ، وبعضها يتم عن ذوق غريب .

ان اجرة بيت حالي ، تسع امالة صغيرة ، يبلغ في هذه
المدينة ثلاثين ليرة استرلينية . فأما بيت يصح لسكنى عائلة
أكبر ، ومعه حديقة ، فيبلغ اجره خمسين استرلينية . وعلى هذا ،
فقد ارتفعت اجور المنازل لوجود كثير من الفرنسيين الذين نزحوا
المدينة . وسعر اللحم اربع «بسات» لكل لوفة . وسعر النبت
اربع «بسات» لكل زجاجة . أما الخمرة البشائية التي هي اجود
نوعاً ، فسعر الزجاجية منها تسع «بسات» او «شلق» .
ويكون هذا الصنف الاجود من الخمرة ابيض واحمر . بقيت الخمرة
البيضاء الخنوة بعض الشيء ، وهي في الدرجة العليا من الجودة .
فأما تلك ذات اللون الذهبي ، فهي الارق والادمت ، وتعتبر
«شامبانيا» الشرق ، سريرة الخمران في زجاجتها ، وعطية الوحي
والاغام .

وفي بيروت خيكران فرنسيان او ثلاثة ، مما يجعل الخبز هنا
جيداً . والخبز الجيد نرف نادراً في الشرق .

وهنا يعيش القساعل والتجار من سنى الأمم غبطة اجتماعية
ودنية . فيعقدون مآذب العشاء والعشاء ، ويقبضون النزهات
والرحلات في الضواحي القناتة .

ولست سوريا - اعني هذا الجزء منها على الاقل - بالبلاد
 التي تتميز برخص الاسعار . فهي التي اسعاراً حتى من الاقاليم
 في جنوب فرنسا وكثير من اقاليم ايطاليا .
 والمقول في هواء الساحل انه يمرض المرء للعلل العصبية
 واوصاب الحميات . ويشكو بعض الناس لهذا الهواء من تأثير يحوط
 قوى البدن والعقل . لكن ارجح ظن ان مثل هذا التأثير انما
 يحصل اذا اذن ساكن يبروت نفسه ان يستسلم للعادات
 والاذواق الكسلى التي يجدها عند الاهلين . غير انه اذا عمد الى
 الرياضة النشطة ، وجدّد الحياة في روحه وخياله بزيارات مكررة
 الى الجبل والسهل ، فانتبه على هذه الارض البديعة اسلوب حياة
 كالحياسة الانكليزية في بعض النواحي ، فانه واجد هواء المظففة
 صحياً ومناخها مبهجاً ، وربما امكنه آخر الامر ان يحظى بما
 يحظى به الماروني والجلبي من طول العمر والشيخوخة المتعافية .
 وليبروت افضلية اخرى بارزة على سائر المدن في سوريا .
 تقوم هذه الافضلية على حرية العبادات الدينية وامتيازاتها . هنا
 رعاة دينيون ، من بلاد شتى ، يقيمون في امتازل الجميلة حيث
 يتلاقى احبائهم رجال مثقفون اقبلوا من الاديرة في الجبال ، بينهم
 الاساقفة والسكينة واللاهوتيون من موارنة وارثوذكس
 وكاثوليك^١ .

^١ حذفنا هنا نحواً من اربعة وعشرين سطراً ختم بها المؤلف هذا الفصل
 مصدقاً عن المشرق والتشير والمقابلة بين المذاهب مما لا يدخل في قصدنا من
 نقل الكتاب . - المغرب .

مصب نهر الكلب

يقع هذا الشهد على الطريق بين بيروت وطرابلس . يخرج
المسافر من بيروت فتسند به طريقه أجلاً وجيزاً بين الحدائق
والبساتين ، حتى إذا قطع نحواً من ميل ونصف الميل حادف نهراً
بني عليه جسر بست فاطر . ومن ثم يعبر المسافر على موازاة
الشاطئ إلى مرتفع صخري ، يظهر من على قمته ، في القلب
الآخر ، نهر الكلب منساباً انسباً رافقاً جميلاً خلال فجوة عميقة
بين الجبال ، وقد شيد فوقه جسر أليق .

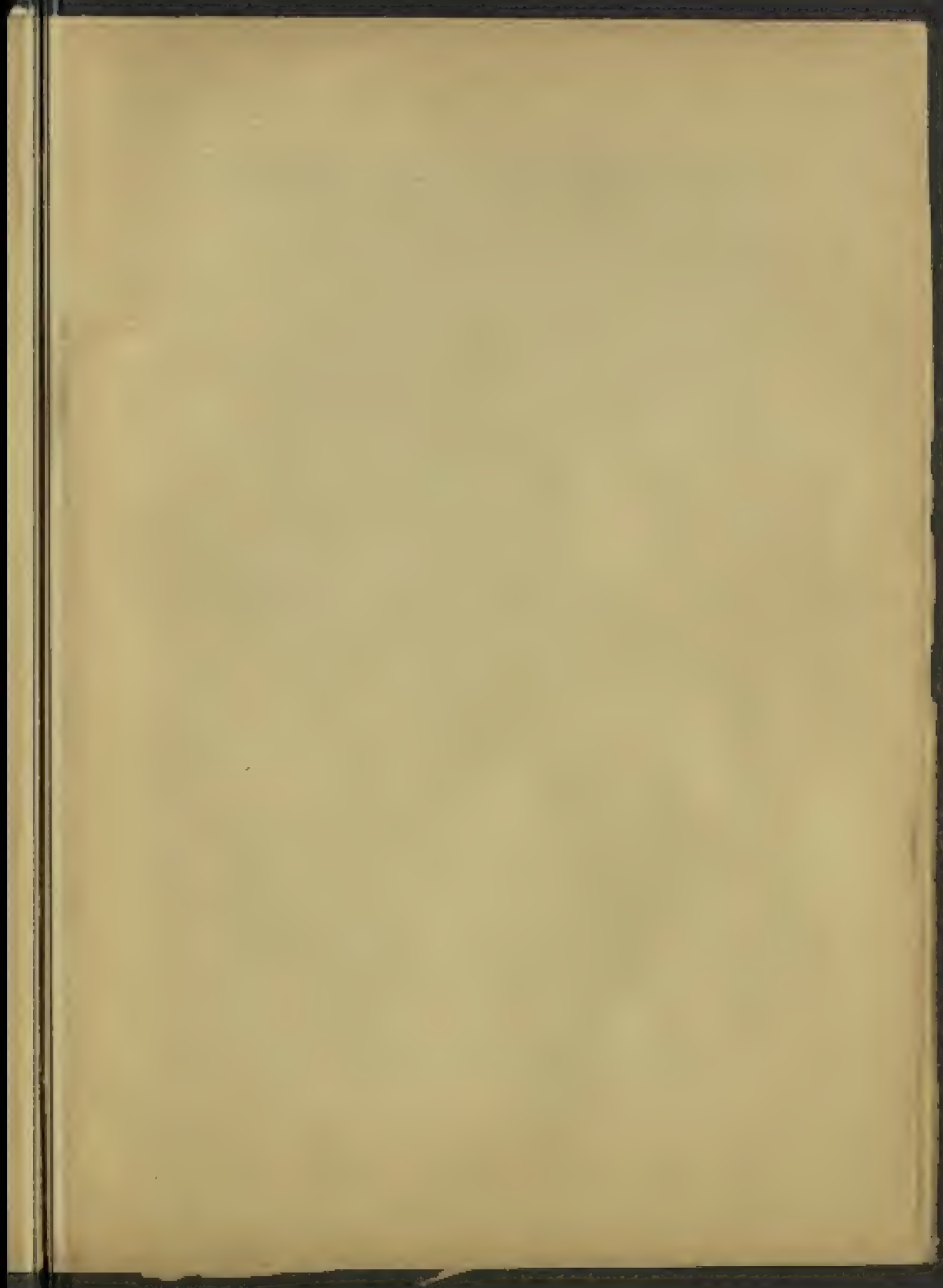
أما الطريق هذه فتدعى الجادة انطونيانا . فدها الامبراطور
انطونيانوس . ولا يزال يشهد بهذه الحقيقة التاريخية نقشٌ محفور
في وجه الصخر وقد نقله موندريل : Maundrell .

إن نهر الكلب هو نهر لوكوس الذي الاغارقة . ويقول
الجغرافي استرابون انه كان من قبل صالحاً للملاحة برغم إنه
سريع التيار . وأما الجسر الحجري فوقه فمن عمل فيخر الدين
الامير الدرزي الشهير المتوفى عام ١٦٣٩ م^١ . ونهر الكلب هو

١ قطع رأس فير الدين في ١٣ نيسان ١٦٣٥ بأمر السلطان مراد الرابع
على ما ورد في كتاب الآب يونس قرأني عن هذا الامير ، من ١٨ ، طبعة



1871
1/2



الحد بين بطريق كيتي اورشليم وانطاكية . والجبال في هذه البقعة
شائعة مسندة المهبوط ، تنحدر الى البحر نواً ، وليس بينها وبين
خليج الماء الازرق سوى عرض الطريق ، وعلى شعافها أديرة
صغيرة شعيرة الموقع .

يبدو في الرسم بعض المسافرين يهرون بحري النهر ليستأنقوا
سبلهم على محاذاة الشاطئ ، في بكرة من النهار . والوادي على
نخم الخليج البحري محروث ، حسن الغرس والزرع ، مرصع
بجمل الكواخ .

فاذا مشى المسافر ساعتين صاف من ثم نهر ابراهيم . وقد
سمي كذلك على اسم باشا يحمل هذا الاسم . ولعله يأتي هذا
الجسر الانبثق ذي القنطرة الواحدة فوق النهر .

وبين نهر ابراهيم ونهر الكلب شبه في انهما كليهما ينبعان من
ثغرة عميقة بين الجبال . ويعرف نهر ابراهيم في القدم بنهر ادونيس .
وقد كان موندريل موقفاً اذ لحظ ظاهرة يمكن ان تعبر تفسيراً
لرأي الذي أثبتته لوسيان بشأن هذا النهر . ففي بعض فصول
السنة ، لا سيما الوقت المتقارب عند ادونيس ، يعطش ماؤه بلون
دموي - الأمر الذي حسبه الوثنيون دليلاً على حزن جوارح
ينساب النهر لموت ادونيس اذ صرعه خنزير بري في الجبال التي
يقبض منها النهر . وقد شهدنا بنفسنا شيئاً من هذا ، فكان الماء
خضيباً قوياً الى درجة غريبة ، والبحر خاضياً بلونه الى الحمرة
حتى مدى بعيد . ولا شك ان السبب إنما هو صنف من تراب

حرمها - لبنان ، ١٩٣٧ . - العرب .

احمر جرفته انى عباب النهر جوارف المطر الغزير .
وكثير من جوانب الصخور في هذا الجوار مكسوة بتقوش
افريقية ولائبية ورسوم رمزية منحوتة نحتاً ظاهراً . على أن
معانيها لا يمكن استجلاؤها الآن . لكن الأرجح انها تتعلق
بعبادة ادونيس ، وهي عبادة كانت تمارس جداً في هذه الضواحي .
وتقول الروايات المحكية ان هيكلاً واحفالات جنائزية كانت
تقام تكريماً لادونيس على كثر من الموضع الذي لقي فيه
حتمه .

شديد نقاء الماء سريع الجري هو نهر الكلب ، شأنه شأن
اكثر الانهر التابعة من جبل لبنان . وانتهى خفتاه كجدران
صخريين عموديين ، يبلغ مدى ارتفاعها مائتي قدم او ثلاثمائة .
وقد تملأ هاتان الضفتان الصخريتان جميع الوادي في بعض الامكنة .
على انهما في مواضع اخرى تخليان هامشاً خصباً بين مياه النهر
والصخر نبت فيه الاشجار والاعشاب . وفي موضع ما ينشأ خان
على نقطة في الصخر فوق حافة الماء نفسها في مقابل جسر ارتفعت
قنطرته ورفعت حتى ليستحيل على المرء اجتيازها دون ان يعرّوه
اخطراب وهلك . وقد افتد الصبر العربي في وجوه هذه الصخور ،
المكدسة هذا التكديس ، بعض ادراج حجرية ضيقة تكاد تكون
معلقة تعليقاً عمودياً فوق التيار . ومع ذلك ، لا بد من اجتيازها
على ظهر الحصان . وفي هذا يقول احد المسافرين ممن زاروا
المكان حديثاً : اتنا اسلمنا بالثقة الى غرائر خيلنا ذات الحظي
الثابتة المتسكنة . على ان تسنن الادراج وانحقال حجارتها انحقالاً
ناعماً ، بالاضافة الى عمق المهوى امام نظارتها ، جعل مستحيلاً علينا

ان لا نغيض عيوننا . ففي هذا المعبر ذاته ، بعد سنوات قليلة ،
حدث ان عمر حصان القاصد الرسولي الاخير الذي بعته البابا الى
الموارنة ، فطرح عنه براكيه الى الخليج في اسفل ، فأهلكه . اما
خاتمة هذا المعبر فننقل الى بطحاء على رأس هضبة محروقة حرقاً
جيداً ، تشرق بعرائش الكروم فيها والقرى المارونية الصغيرة .
ويبدو على الهضبة المقابلة منزل صغير جديد ايطالي في هندسته ،
ترتفع على مداخلة القناطر وتنتد الاساطيح والاسبجة من قضبان
الحديد . شيد هذا المنزل لوزنا مشي له . والسنين لوزنا هو
اسقف عبيدوس ، يشغل الآن منصب القاصد الرسولي في لبنان .
وبعد اجتياز هذا النهر صوب الداخل تبقى مشاهد البلاد
جديرة بالتأمل الذي اضفاه الاقدمون على ملاعب ادونيس وفينوس :
بساتين من شجر التوت والتين والزيتون ، وغابات من الصنوبر
والبلوط ، وجنائن من الكروم ، تتخلل ذلك كله سهول تروعي
وتزبد في اندفاعها بين اغصاب الصخرة الكبيرة التي تقوم على
قممها وجوانبها قرى نظيفة مشيدة بالحجر الابيض .

« كل شيء سبق له ان احبه وجسده فكراً ،
كل شكل ولون ورائحة ونغم حلوا ،
تفجع على ادونيس . وتلمس الصبح
وجه الشرفي الذي منه يشرق ، صبح محلول الضفائر
بالتبا العبرات التي كان ينبغي لها ان تندى الارض .
وفي بعيد ، ان الرعد الكئيب ،
واضطجع البحر الشاحب في رفاد قلق ،

واطافت الرياح العاصفة مجبشة في جزعها
من اين جثنا؟ وعلام وجودنا؟ وفي اي المسرحيات
توانا نشترك بملكين او متفرجين؟ العظماء والوضعا
يتلاقون محتشين على الموت الذي يعير ما لا بد للحياة من ان
تستعير.

ما دامت الآفاق زرقاء ، والحقول خضراء ،
فلا بد للمساء من ان يحدو الليل ، ولا بد لليل من ان يحدو
الصباح ،
ويعقب شهر شهراً بالاسم ، ويوقف عام عاماً على الحزن .

شلي

في الاساطير الالهية الوثنية ان ادونيس ابن مراة بنت
سينيراس ملك قبرص ، ولد في بلاد العرب حيث سبق لأمه ان
لجأت فارّة . فشب ادونيس مثلاً للجمال الرجولي . فوهنت به
فينوس وهماً عميقاً غريباً حتى انها غادرت الاولمب لتساكنه .
وكان القنص أحب هواية اليه . فخرج يوماً يصطاد رغم ضراعات
حبيبته . فجرحه في خاضرته خنزير بري جرحاً ممبناً .

ويظهر ان هذه الاسطورة انتقلت الى اليونان من لبنان .
ويقول باوزانياس ان الشاعرة سافو تغتت بأدونيس ، لكن
الواقع ان شعراء الاغارقة ، في عهد نال ومن لحا نحوهم من
اللاتين أمثال نيوفريطوس وبيون واوفيد ، هم الذين توسعوا
في هذه الرواية على الأرجح ، وأسفوا عليها تلك الاناقة التي هي
سمة خاصة من سمات الاساطير الالهية الاغريقية .

ويذكر ارستوفان العيد المعروف بـ " أدونيا " في جملة
الاعباد الاثينية . كانت تبدأ مراسم هذا العيد بالمناحات على
مصرع ادونيس ، لتتقلب فيما بعد الى فرح وتهليل بعودته الى
الحياة والى فينوس . ثم يختتم العيد بموكب يسير حاملاً صورة
الحبيبتين مع التقديمات النفيسة .

أما عبادة نوز في لبنان ، ونوز وأدونيس هما الشخص
نفسه ، فتوفي ، على الأرجح ، الى عهد سابق جداً . فعبادة
نوز المذكورة في جملة لعنات يهوذا قبل الدعوة المسيحية بسنة
قرون . ومن هنا قول حزقيال : " وقال لي عبد ترأرجساً
اعظم يصنعونها ... ثم أنى بي الى مدخل باب بيت الرب الذي
هو جهة الشمال ، فاذا هناك بنساء جالسات يبكين على نوز .
وقد كانت بيلوس ، وهي مدينة على مقربة من نهر ادونيس ،
مركزاً من أهم مراكز عبادة .

• النبي نوز . لقد مات !

استنظني ايها الآلهة الخزيئة ، استنظني انشعبي ،
لكن علام ؟! أطفئي دموعك السارية
في منابعها المشتعلة ، ودعي قلبك الذي يضيح نبضاً
يرقد كقلبه رقاداً اخرس لا تلمر فيه .
لقد أقبل على تلك المدينة الرفيعة
حيث الموت الملوكي ،

يحفظ على بلاط ملكه الشاحب جيلاً منداعياً .
أجل ، قد أقبل فابتاع بشئ اذاه من اطهر انقاسه

قبرا في الخالدين ، فتعالي اذن نظير ،
 اسرعني ، ما دام كهف النهار اللباني الاوراق
 هو السقف الملاثم الذي يظلل لحمه ، وما دام
 هو مضجعا كأنه في نوم ندي .
 إنه لن يفيق بعد اليوم ابداً سرمداً
 وفي حجرة القسق يجهم شبح الموت الابيض
 مسرعاً على مدى خطاه . وبالباب
 ينظر الفساد الحقي عن العيان كيا يقتفي
 طريق الموت الشقية الى منزل سكناه القائم .
 ان فينوس تهوي على اذونيس بروحي جناحيها البهين
 كشعاع القمر ونقول :
 لم يت حبنا واملنا وحزننا !
 انظري على الاجفان الحريفة من عينيه الخائبتين
 دمعاً قطرت من دماغه بحلم من الاحلام !
 ولم تكن تعلم ان تلك دمعنها . وما كانت دمعاً نقية
 بلا شائبة ،
 فقد اضمحلت كالغمامة التي يكت بها فيها من دماء الغيث
 حتى استنفدته !

شلي

قلعة قوطية

في واد بحاور البترون

يعتبر هذا المنهد مثلاً من الأودية البنيانية الضيقة الوعرة .
يقع على تخوم طرابلس ويبعد نحواً من ثلاثة أميال عن البحر
الذي يمكن الاطلال عليه من أعالي المرتفعات . أما القلعة
فمفروضة لها من بقايا الصليبيين ، تقوم في موقع حصته الطبيعية
تحصيناً كاد يستحيل اقتحامه في ذلك الزمان .

هنا كان يقم في الغابر جنود صليبيون لعل بعضهم من طبقة
الفرسان الانكيز مع فئة قليلة من الجند المرباط .
على ان المكان برغم الوحشة التي تحيم عليه ، واقع في وسط
بقعة متناحية جمالا وخصباً ، يوجد فيها الساعد الجري . والقلب
المتحطم متعة تامة تبلغ الغاية .

وهذا الصخر العجيب عمودي في جميع جوانبه ، يرتفع مائة
قدم علواً ، ويبلغ قطر محيطه حصة قدم واحداً سنائة . وقد
انتلفت جدران القلعة وتشابهت وجوانب الصخر حتى ليولوج للناظر
ان تلك الجدران انا هي قمة من الصخر نفسه .

يقيناً ان المكان هذا ليصح معقلاً موافقاً للحوص . فهو لا
يزال محفوظاً على حاله صالحة . وبين جدران الشبكة الفسافة

ومشهد الوادي العروس الذي يشبه الحديد ، ندية وانسجام ،
فيبدو القلعة ، جثة على هذه الشرفة الجبلية البرجية الشكل ، كأنها
هي تكمة قفيرة رائعة هذا المشهد كله . وفي أسفل ، تنصب
ساقية تنفض من فوقها فطارة محطمة نصف تعظيم ، تمدد عليها
الطريق التي تعود عبر الوادي . أما المرتفعات الى يمين فهي مطروزة
بالشجر نظير غيا متوقفاً .

ويستطيع المسافر الذي يدركه الليل ، وليس في متناوله خان
يلجأ اليه ، ان يؤول الى حجرات هذه القلعة القديمة واقبيتها ،
فيستوفد نارا ينعكس ظل فيها على الارضية البيضاء والجدران ،
بينما هو يحمد الحظ على انه في مكان من الرياح وانداء الليل ،
وبئنا بمكانه الشعور بأنه سيبد كل ما عند عليه عيشه . فليس من
رب منزل يلقاه في الصباح وعلى شفتيه الضحك ، لكن في حذقه
النظار الهدية . ليس من شيخ يطالبه بطلب ملح وما جار تخفيضه ،
لكن يستجيب العرب منه . . .

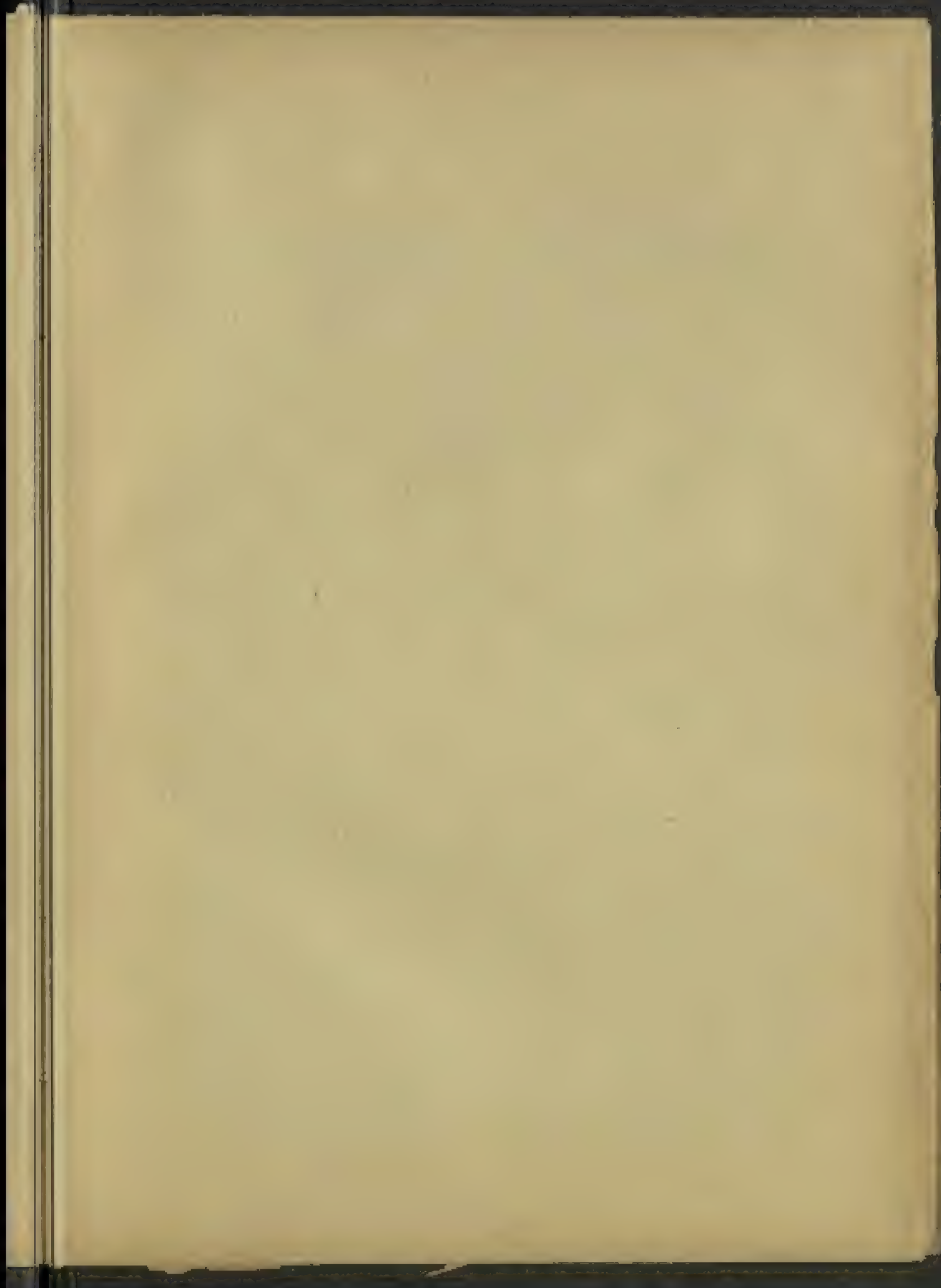
انه الصمت في هذه القلعة القوطية يلف الغريب في ساعات
نومه . ثم هو الصمت يواجهه ساعة يفيق ، فلا سحر طيور
مبكرة ، ولا غواء تعالي : هذه البهائم الموحشة التي تسير على
الاماكن الحرة ، فلا يوشك ان يوزغ الفجر حتى تسكت
سكوناً .

يقول لامرأين : وهنا يضيق الوادي حتى يتسد بصخرة عظيمة ،
قد تكون وجدت في موضعها اصلاً في الطبيعة ، وقد تكون

هنا في الاساطير تصور على الصلاة في احد الاديان . وقد
جاء المؤلف على ذكرها في غير السياق اللاتني ، معناه . . . العرب .



قلعة نوحية



البلخ فتدحرجت من خاضرة الجبل المخاذي . منها يكنى من شيء ، فإن هذه الصخرة لتصل على قمتها قلعة قوطية ، هي اليوم وجار للعلب ووصكر للنسر . والقلعة ادراج منحوتة في الحجر الخلد ، تصل باسطيح بعضها متواكب فوق بعض على نظام وتريب ، تحميها الابراج والحصون ، ولذئبي المد منصة يشيخ عليها البرج الرئيسي ، وعلى مداره الكوى الصغيرة للرمية .

« ونكسو القلعة خضرة نامية غزيرة تغطي جدرانها وابوابها . وتسبق فيها اشجار الجوز التي ضربت بجذورها في ارضية فناءها ، ونشرت رؤوس فرووعها فوق السقف المهدم . عسدا النباتات المعرشة على ابوابها ونوافذها ، وعدا القطر الذي نأ على حجارها هنا وهناك معلناً الوان تلك الحجارة . تبقى الضفليات التي لا حصر لها ، وقد تدلت موفورة منشابكة منجدلة ، فأضفت على هذا الاثر البديع من آثار القرون الوسطى مشهد بناء أقيم من الاعشاب والنباتات المعرشة .

« ويفيض على قدم الصخرة ينبوع يبيع تظله ثلاث من اهل ما يكنى نصوره من شجر الدردار . وقد كفى ظل واحدة من هذه الشجرات للتقيس ، على خيامنا وخيامنا الثلاثين والجائفة المنشرة من العرب الذين صاحبوه . »

على ان هذه الشجرات الثلاث الشريفة التي يطربها لامرئين ليست من فصيلة الدردار ، بل النبق . وهي توفر للمسافر مطباتاً بديعاً يستريح فيه . اما ينبوع تحت هذه الشجرات فحفافيه ظليلة بشجر الدفلى والآس . والموضع كله عطر الجو حتى درجة عظيمة بما يفوح من رائحة الآس المزهر والملاء .

قبر القديس جاورجيوس

خارج كسروان على الطريق بين بيروت وطرابلس

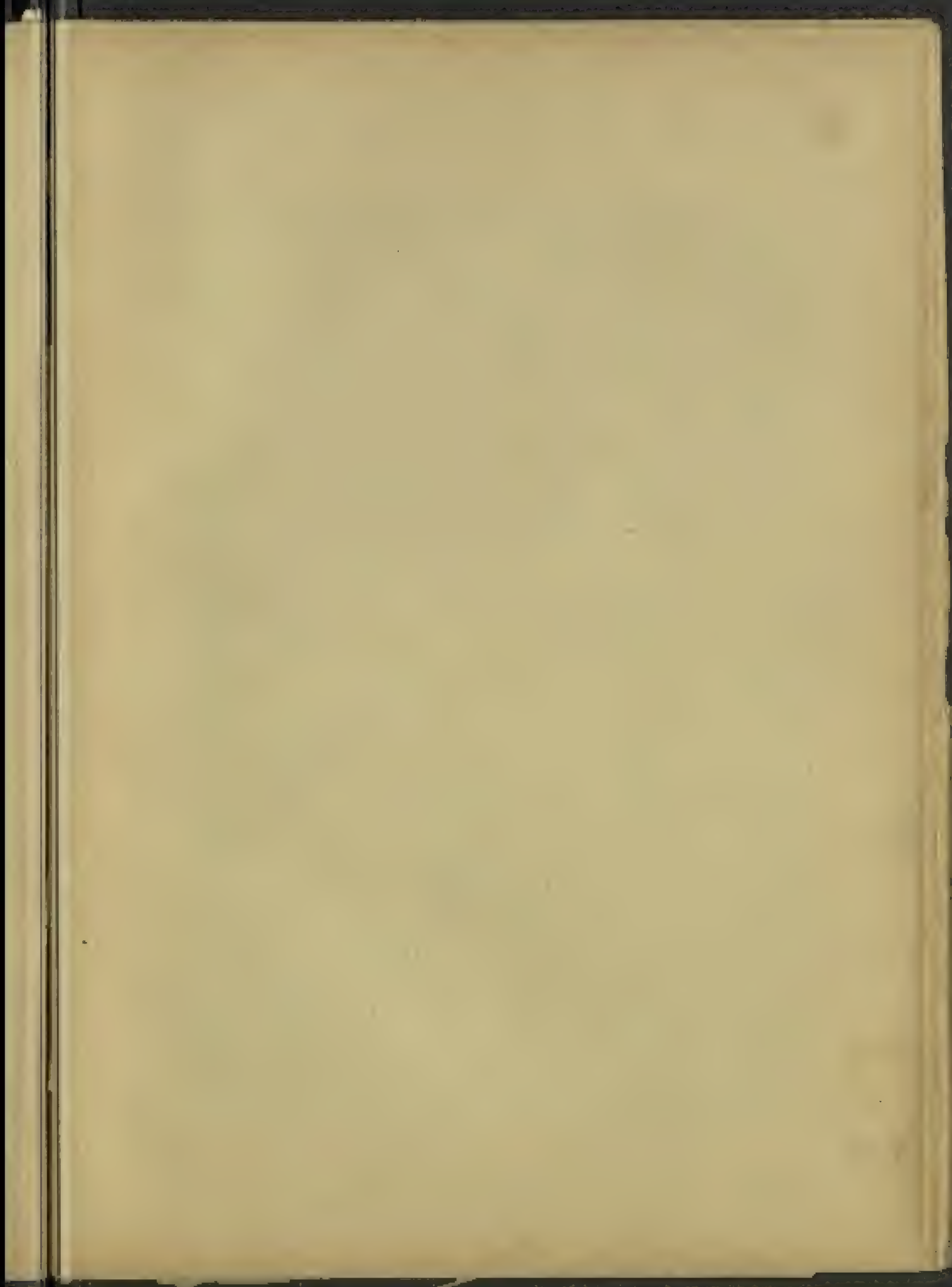
تقع هذه البقعة الصحراوية (الرومانيّة) على الطريق بين بيروت وطرابلس ، عند خليج كسروان - الخليج الذي تجلو شواطئه معرضاً من الخضرة البديعة والحرث والزرع والبساتين والحبور . وإن القرى والأديرة التي يقوم بعضها فوق بعض على مدارج المتعدرات تظهر في أشد المظاهر خلابة وعذوبة . يبدو أن هذا البناء الغريب المنحوت في الصخر كان في وقت ما كنيسة . ويجمع الجمهور على تسميته بقبر القديس جاورجيوس - قديسنا الحارس الذي يقال أن المعركة بينه وبين التنين نشبت في مكان جد قريب من هذا المكان . أما الجانب المقابل من الخليج ففيه قلعة رومانية ورأس صخري بديع .

وموضع هذه البقعة بالذبط هو قدة الأرض بين البيروت ونهر الكلب .

والقرى القائمة على الجبال البقعة البليان ، كل بيوتها مقوفة سطوحاً ، ونوافذها صغيرة مشبكة بقضبان الحديد . ولا تخلو من بعض البنية كبيرة ، منها اثنتان أو ثلاثة هي أديرة تطل من

قبر القدس جاووجوس





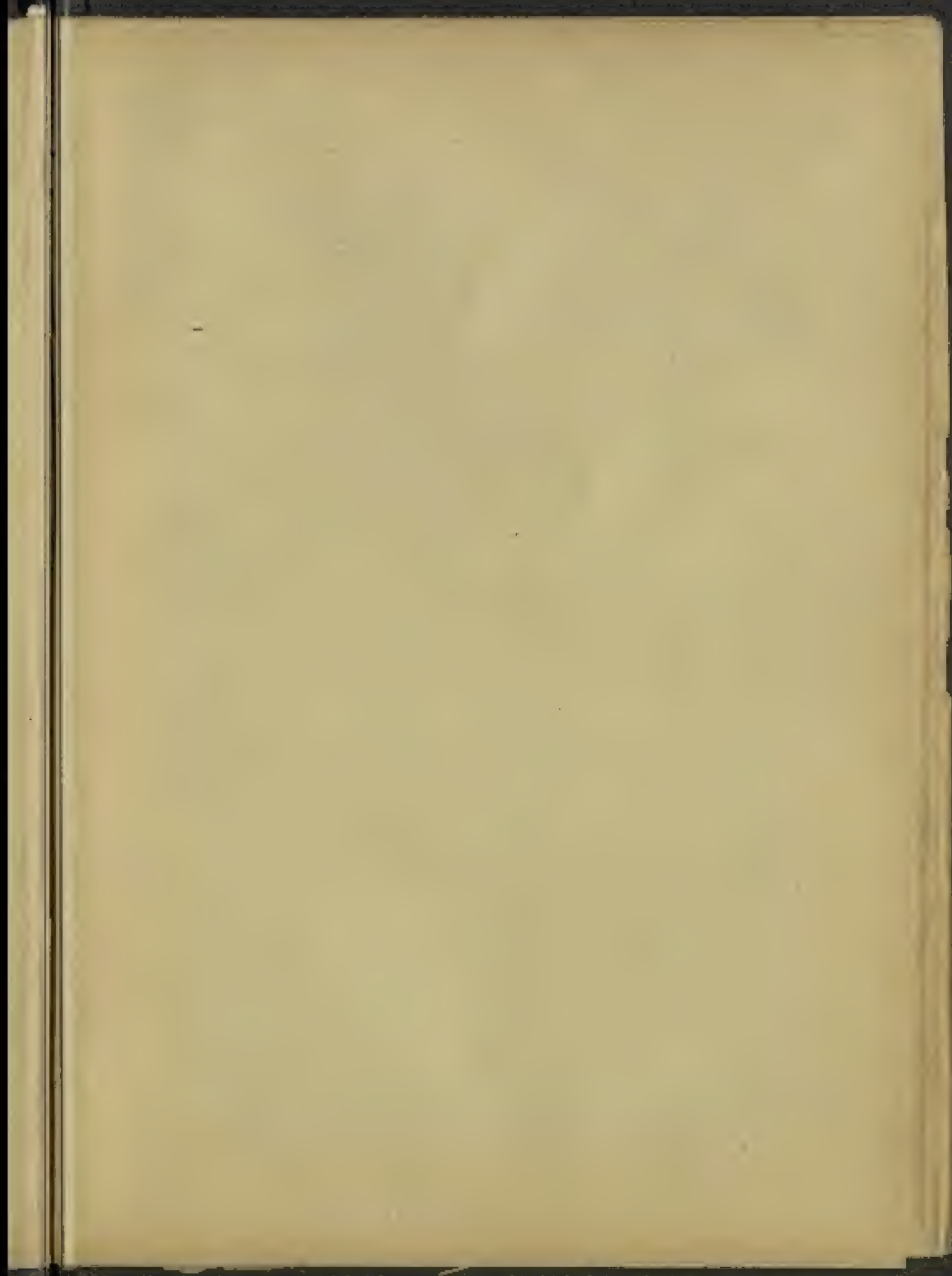
باحية البحر بواجهات بهجة ، ولكل ديو حديقة ومزرعة كرم ،
في هذه القرية ذات الحظ العظيم من الحصب .
وقد وجدت في الآكام ، داخل آسيا الصغرى ، ان الصخور
كثيراً ما نحت فيها أنواع من حجرات قديمة أشبه بالاضرحه ،
ونكتها اليوم مأهولة ، يسكن فيها الفلاحون والرعاة ، وتوفر
على المسافر منجاً اعظم دفناً من ائمة خان خرب ، بينما تزوده
الغابات بالوقود لئلا طيبة ، ويستجبل على الريح او المظن ان
ينفذ اليه . وان الكثير من هذه الصخور ، التي نقرت فيها
الاضرحه القديمة ، لتطلع من على مسافة قريبة بمنظر يطابق جداً
منظر الابراج والقلاع . ولا يزال الشعب ، شأنه اليوم كشأنه
زمن ايوب ، يعتقد الكهوف الصخرية منزلاً له ، ويسكن في
ظل رفارف الجبل الخفية على الوادي ، هارباً الى البرية
المقفرة التي لا انيس فيها .

طرابلس

نقل رسم هذا المشهد من موقع فوق الدرويشية . وتبدو الدرويشية الى اسفل ، على شاطئ النهر ، وكامن ماروني ، الى فوق ، يتحدث ورابعاً لبنانياً ورابعة . كذلك يبدو على الالفة ، في مقدم الصورة ، القصر القديم الذي شاده الصليبيون . وان الكثير من اقسام المدينة ، شأنها شأن القناطر القوطية الطراز التي تمتد ناحية جملة من الشوارع ، ليحصل سمات من عهود الصليبيين . طرابلس اجل مدن لبنان منظرآ . بيوتها مبنية بالحجارة بنياناً متيناً . ثم هي في داخلها معدة اعداداً نظيفاً . تحيط بطرابلس وتزينها الحدائق البهية التي تختلط بالساكن في المدينة ، ثم تتجاوزها على مدى السهل الذي يفصل بين المدينة والبحر . وان هذا السهل الساحلي ، بالاضافة الى الجبال المجاورة ، ليجعل في متناول السكان ، على بعد مسافة قصيرة ، كل ضرب من ضروب المناخ .

وطرابلس اغنى بالحدائق والبساتين من بيروت . وحظها من الوقاية والصحة يفوق حظ صيدا وعكا . وعلى ذلك يبدو ان طرابلس تجمع كل ميزات الراحة والمشاهد البديعة والحضب ، وهي





ميزات تعري الغريب ، الذي يلتبس العافية او المنعة ، انت يؤثر
هذه المدينة على سائر اجزاء لبنان ، فيجعل منها مقراً لاستجمامه .
اما مشهد الدرويشية على خفة فاديشا ، بين شجر الزيتون
والليمون الحامض ، فحقاً ساحر . انه المنسحب من دنيا الهم
والتجارب والشهوات الى دنيا من الجمال الرقيق العذب الصامت
المتفرد . كل معبر بجوار فاديشا شيء حبيب الى الانسان ، غاوي
التأمل . وفي تعاريج النهر خلال الوادي عزلة مستورة ريفية
هادئة ، تستيقظ فيها الافكار بفضة رقيقة بمس من نغمة الميساء
وشبابه الراعي .

وهذا المعبر الذي يسوق الى احدي المضيئين لا يلبث ان
يطل على مرج فسيح من السهل بعرض ميلين ، مكسو بالبساتين
حتى البحر ، ثم يطل الى يسار على الميناء بجزرها ، ومن وراء
ذلك فعم لبنان ، وفي المقدمة البحر الجميل المتواهي الى لا حدود ،
فاهيك بالجو النقي اللين البديع .

وتوى على الميناء الى يسار سلسلة من ستة ابراج مربعة
منفصلة ، يبعد واحدها عن الآخر نحو عشر دقائق مشياً . ويبدو
انها لما أعدت لأغراض دفاعية عن الميناء ، فهي تقوم على البحر
مباشرة ، وبدل تصميمها على انها من صنع عربي ^١ . وحوالي هذه
الابراج وفي البحر نفسه أعمدة كثيرة العدد من الغرائب الرماذي
على نحو ما يشاهد على الشاطئ الى أين بيروت . ومن تلك
الابراج الستة برج الاسود ، وقد اشتق اسمه - على ما يقال -

من رسم ترس حفر فوق مدخله وعليه الأسدان كما من قبل
ظاهري الصورة . والترس والأسدان شعار الكونت ريمون
النولوزي . وكان يقدون^١ ، ملك أوشاي ، لما انتزع طرابلس
من العرب بعد حصار دام سبع سنوات ، فقد نصب برتوان بن
ريمون كوتاً على طرابلس . وفي عام ١١٧٠ أصاب المدينة زلزال
كاد يأتي عليها . تم احتلالها العرب سنة ١٢٨٩ ، فأخربوها كلها .
على أنهم أعادوا بناءها فيما بعد .

وفي المدينة جملة تجار أوروبيين مسوطنين . وفيها قنصل
فرنسا والكاترا والنمسا الخ . وأهم بضاعة فيها لتصدير بضاعة
الصابون المصنوع في الجبال . وقد سبق أن كانت تصدر منه نحو
ثمانمائة كنتال^٢ في السنة ، لكن كنتال غانون ثورة استرلينية .
على أن تجارتها أصبت مؤخراً ببعض التقلبي . وفي الصابون في
الأهمية بضاعة الاسفنج . وهو يؤخذ عن الشاطئ ، إلا أن أجوده
يكون على بعض عمق في البحر .

تصدر طرابلس الصابون إلى طرطوس ومن ثم إلى الأندلس
وحجزر الأغرريق ، كما تصدر مادة القلي لصنع ، وهي مادة تتوفر
في الصحراء الشرفية . أما الحان الذي يتزله صنّاع الصابون فهو
صوح كبير حسن البناء .

ولا ريب أن القصر إلى يسار ، وفيه أبي ناصر إلى يمين ،
سلاماً شأن الجبام والمسازل الرقيقة يجب أن يسلم للدرويشة

Baldwin ١

٢ الكنتال ، أو القطار الفرنجي ، مائة كيلو .

بالأفضلية في الرفاهية وحسن الموقع . ويقال ان الدرويشية اليوم
غير مأهولة . واغلب الظن انها تكون راحة للمسافر ، حتى المسافر
المعتدل الدخل ، الذي يرد ان يحط رحاله أجلاً ما في الشرق .
ان المقيم على مثل هذا المقام ليكون انساناً مغبوطاً في
منزله الدرويشي هذا ، مع موقعه في وادي قاديشا حيث تصعد
من بساطين البهون والتوت والشفائق وسائر الشجر والنبات ،
ورائع نضار افواه وتبرده . ليس من شيء يعوز هذا المكاتب
ليسبق عليه الطابع البيئي سوى بعض الاثاث الانكليزي والكتب
والوسيقى . فيستطيع ساعته آخر العزلة في دير قاديشا ، اذ
يتش على سطحه او في الحديقة ، ان يتأمل الوادي والنهر
والبساتين والمسطحات الشاهقة على كل جانب . ويستطيع ان
يتحدثي نفسي تخوم الارض ان تفرق له ملاذاً احب من هذا
الملاذ يبعد عن المدينة بتجاورها النشطة ومشارل تجرها الاحدقاء
ومصلها للودود نصف ميل . اما العواصف على شواطئ لبنان ،
الى اعلى ، فليسع ، ولكن لا يشعر بها . وارغاء الموج الطويل
على الشاطئ ، البعيد يصعد عبر الوادي خفياً وكأنه مقبل من دنيا
السلام .

لقد ما هو مبهج ، مع قدوم المساء ، ان يتناول انكليزي
كتاباً من ادب وطنه الام لتكبير او سكوت ، او لشاعر
اكثر نوعة ونبية كشعراء البحيرة ، ثم يجلس تحت الاشجار او

١ 'Lake Poets' ، وهو اسم يتناول جماعة من شعراء الرومانسية
الانكليزية ينتمون لوفظوة وشلي ... - العرب .

في قنطرة المدخل ، « يضيئع الحاضر في الماضي » بينما ، تسلسل افكاره في الف ذكرى ورؤيا ، الى ان تنقطع به افكاره انقطاعاً عذياً ، يقطعها جرس الدير في انشاء ينشر رنينه من على منحدر الجبل .

وإني لانسأل : ألا يقص علينا هذا الجرس قصص الماضي بقوة حية كقوة المسرحيات او القصائد الخالدات ؟ أفلا يستثير امامنا صبيحات السبت وامسياته في مروج حباتنا الباكورة ، يوم ان كانت مثل هذه الاصوات تأنيناً محمولة على الريح تدعونا الى الكنيسة الشبيهة التي أحببنا آباؤنا ، وتنادينا للمثول بسين ايدي فيبورهم لتزود بالنظرة الاخيرة من الموتى ؟

انه الحزن - الحزن اللذيذ ! - والفرح والامل والايام والذكرى ! تلك كلها تنفجر متجددة مع كل دفقة من هذه الاجراس التي تقبل نغماتها وكأنها منبعثة من قلب الهواء ، ثم تمتد امتداداً طويلاً مع اصدااء الجبل فتبدو كأنها هي من عالم غير هذه الارض .

ما اسعد امرءاً يكون كذلك في ديار الغربة : يشعر ان لم ينقطع به الحبل الذهبي الذي يصل روحه بطواف افكاره الاولى وأنقاها . يشعر ان غريته مبهما شطت وفتامت ، فالماضي لا يفهم الحاضر ولا ينشر ضياءاً على المستقبل . يشعر دائماً ابداً في داخله بينبوع من اشياء رحيمة مباركة يستقي منها في كلنا الحالين اذ يكون كل ما حوله مبهماً ساحراً ، او موحشاً فاحلاً .

قصر في ضاحية طرابلس

على نهر فاديشا

المقول في هذا القصر أنه بناء عربي . لكن الأرجح أن الصليبيين هم الذين شيّدوه . يقوم على منحدر مطلقاً على طرابلس . مظهره مظهر قلعة قديمة من قلاع الاشراف البارونات عهد الاقطاعيين . وقليلاً ما يدخله السائح اذ يكفي بنظرة عابرة على منظره الكالج . ويجري على سطح جدران هذا القصر نهر فاديشا منسرباً عبر واديه البديع ليدخل المدينة .

الى شمال ، مقهى يبدو كأنه جزء من الجسر الذي يمتد فوق النهر . والواقع أن هذا المقهى متصل بالجسر . تفتح في جداره نافذتان فنطريتا الشكل تؤديان النور الى داخله الفظ الخشن . ومع ذلك ، يوفر هذا المقهى الفريد في وضعه أنساً ومأوى لكل تعب عطشان يلقي راحة هنا على حافة النهر العذب في ظل جدران هذا القصر .

إن جوار طرابلس جميل جمالا خاصاً ، على كونه أقلّ تلوناً وتنوعاً من جوار بيروت . هنا في ضاحية طرابلس مغارس الكرم ومزارع التوت والسمون البوتقال والرمان ومنابت الزيتون تطوق المدينة من كل صوب . وتبدو من على الهضبة لوحة ارضية

جهة تشتمل على جزء كبير من المدينة . وينفزع عن نهر قادش
فروع يجري عريضاً في شوارعها ، بينما تنصب المآذن وتبسط
الأراضي المجاورة مكسوة بنفارس والجنائن .

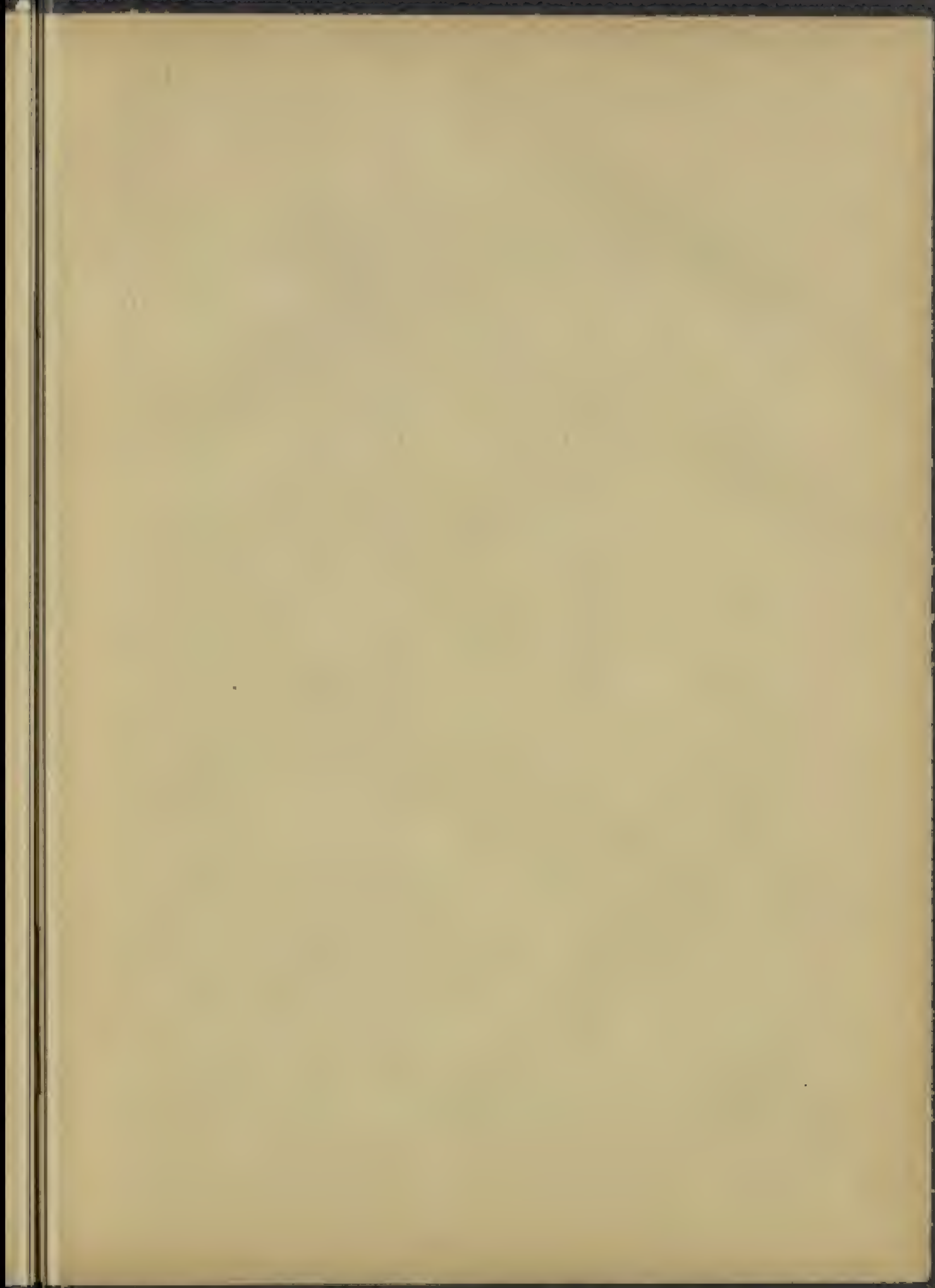
بعض شوارع هذه المدينة واسع (بالنسبة الى الشوارع في
الشرق) . وفيها أبنية من حجر ذات طابقين . غير ان المدينة
جيدة ليس لها مشهد يدل على الازدهار والرخاء . بل فالرجح عليها
سبب شيء هو الى الانحطاط والضعف الغرب . ويكاد المسافر يعجز
عن ترك الافتناع بان أصلح أيامها فقد انقضى . لكن المدن
السرفية . والحق يقال - ترادى عالياً مثل هذه السبب البليدة
التي لا روح فيها . فليدور هنا عين ماء حارة . ويبدو هناك
ركام من المهملات والأفئدة ، بينما تحت الأعشاب في الشوارع ،
ومع ذلك لا يمكن أن تكون بلد الدمار نعت حقيقة بالمدينة .

في طرابلس أسواق طائفة فائقة عظيمة الطول ، ملأى بالبضائع
المعزاة . وتدور فيها الحرف والتجارات الصغيرة بنشاط مرموق .
وما كانت المنطقة المجاورة تبيع حريراً موفوراً من صنف جيد ،
كان الكثير الأهلين يشتغلون بحياكة الزنير الطويل المقلد للسني
يكون نسباً في الأعمار الإسلامية . والمقول ان التجارة هنا تكاد
تكون احتكراً للمسيحيين ، لا سيما الأرثوذكس . ويقدر سكان
طرابلس بسنة عشر ألفاً ، منهم على التقريب نصفهم .

وقد وجدت جهة من العائلات الفرسيّة تستوطن المدينة وتهتم
بفروع مختلفة من صناعة نسج الحرير . ويلاحظ أحد السواح
والمحدثين ان الفرسيين هؤلاء يوثقون امكان إقامة تجارة رائجة
في مادة الحرير الخام ، اذا تبصرت الأسواق للتصدير . والأسفاج



10/10/10



كثير على الشاطئ، تلقى منه القنصل الانكليزي حملاً كاملاً خلال
اقامتنا . ويتكمن الحصول على هذا الاسفنج عن الشاطئ ، ، ليصن
أجوده يكون في البحر على بعض العمق .

ولم يتوفر حتى الآن تشجيع للصناعة والانتاج في هذه البلاد
الحكومة حكماً رديئاً ، مع ان خصوبة الاودية المجاورة كقبة
بانتاج الحرير مضافة اليه مواسم اخرى شينة سخية . هذا ، عدا
الجداول الغزيرة التي يمكن تسخير طاقتها لتحريك ضروب كثيرة
من الآلات . فاذا ما قدر لطرابلس ان تبقى في حوزة ابراهيم
باشا ، حاكمها الحالي - وهذا ما يتمناه السكان المسيحيون من
اعماق قلوبهم - فلا بد في اجل ان تؤدي حكمته ورغبته في
المشاريع الى تحري هذه المناطق الشينة تحرياً دقيقاً وتعضيد
مؤسسات النسيج والتجارة .

الكنيسة وبيت الشيخ في اهدن

الوحدات في الشرق مدينة بالتكثير من طرائفها ولذتها
للتناقضات التي لا تنقطع حقائقها . فمن الغلب عام إلى أكثر من
رائع ، ومن حكمة فيض إلى بدوع منفرد وعظيمة .
ليس الوصول إلى اهدن من جميع الجهات سهلاً يسيراً . فالمرافق
التي توصل إلى بقعتها السحرية الصغيرة إلا هي مرافق طويلة
المدى ، مجبذة . لكن بعد أن يحل المرء إليها تسقيه الأشجار
المشرفة ، والأدواح الخرجية ، وأشجار البخور البديعة ، والشلالات
المحددة من الجبال ، والحضرة الخفية المندودة على الأودية والأعالي .
والمنازل الأنيقة الملوثة ، فينتف : ما أبدع هذا كله وأجمله !
ومن الأشياء البارزة في هذه الدوحة بيت الشيخ أو بالحري
قصره والكنيسة . وبيت الشيخ منجأ المسافرين الذي يعد فيه
معبداً إذا فتن في الدنيا في سفره أن يصرف مستظلاً صلياً
المستظل . والحقي أن بيت هذا السيد وأساليب حفاظته بالوافدين
قليلاً ما يشبه بيوت سائر شيوخ القرى وأساليب حفاظتهم .
فالواقع أن عاليه طابعاً من عهد الأوطان . فالقصر منين ، حسن
البناء ، ويمكن اعتباره في لبنان صرحاً أيضاً مهماً . والمضيف

ان يمكث فيه جملة ايام يكون فيها موضع الترحاب . والمعقول
جدا ان يغريه المكان بالاقامة فيه حتى يستنفد ايام الضيافة كلها .
فان النطافة في داخل هذا المنزل والطلاق الهواء فيه لطيفين
جدا لمسافر بعد الخانات الفكرة والاحكام الخالية من وسائل
الراحة . وقد افط صديقي المستر ابوت ، فحصل بوطانيسا في
بيروت يومئذ ، آخر اقامته تحت سقف هذا الشيخ . وكان وقد
عليه من رأس العين ، من هذا المكان البديع الراحة والاستجمام
الذي يسعد عن بملك ميلين . وقد عرفته ووصفته ...

فاجأ الموت صديقي المستر ابوت مفاجأة اذ هو على هذه
الدعوة المنفردة من ذرى لبنان . ومع ذلك فانه كانت حامدا
شاكرا ان تسلمه المصادفة الى عناية عدا الشيخ واطفه . ولا شك
ان اهتمام الشيخ كان عظيما فلهذا المناسبة المفجعة . فأنرف على
نقل الجثة الى قبرها الموحش اثرافا حافلا بالمشكورين ، ومشى في
الجادة ومعه وجوه القرية وجوارها .

لكن مع هذا يجوز ، ولو في النادر ، ان ينجلي المرء بالخطباء
حتى في اعدن . وبرهان ذلك ما وقع بعد سنتين المذكور ...
صديق الكاتب . كان طبيبا ، وكان قد لبث عامين في دمشق
وسائر الانحاء . فانتقل الى لبنان ، ثم الى اعدن ، على أمل ان
يكون فيه تقع للشعب بدعوتهم الى ديانة الحق وأفضل شوائب .
راح يوزع في البيوت والساكنة نسخا من انجيل القديس يوحنا
ومن سائر اجزاء العهد الجديد ، مترجمة الى العربية ومطبوعة في
انكلترا . ولو سبق له ان كان على معرفة افضل بكمية لبنان ،
لأطف من غيرته شي من التستر . فلما اسرع مسا على الاختيار

مدني العنصرية والتعصب لدى كثير من هؤلاء الناس ، ومدى
 خصومتهم لكل تجديد يراد ادخاله على نظم الايمان ^١ التي هي
 ارث ابناء . لقد عثر رجال الكهنوت هؤلاء ، خلال زياراتهم
 للبيوت ، على كثير من النشرات ونسخ هذه الانجيل . فأفضت الاخبار
 فوراً الى مسامع البطريرك الماروني الكبير في دير قنوبين - هذا
 المنعزل القاتم الموحش الذي يبدو بين المهاوي الجبلية معلقاً بين
 السماء والارض حيث لا ينفذ ضوء الشمس الا قليلاً . فلم تبطل
 الاوامر ان صدرت منع توزيع الكتب وجمعها من كل البيوت
 التي تلقىها ، وانذار الطبيب الاجنبي بوجوب الامتناع عن نشاطه
 في هذا السبيل والا تعرض للحرم . فلم يعر الطبيب هذا التهديد
 اهتماماً كبيراً ، وواظب على زيارته اليومية التي كانت نافعة للروح
 نفعها للجسم ، اذ كان صديقي يتعهد المرضى في اعدت وجوارعها ،
 فيأسو اوجاعهم دوماً مقابل . فم قلبت نصائحه وادويته ودمايته
 ورقة طباعه ان جعلته محبوباً في كل عائلة . وقد نزل قصر
 الشيخ وأصبح آنيراً عنده . ولم يكن للشيخ عهد تحت سقفه بمثل
 هذا الضيف النافع .

وعزم البطريرك فوراً بعناد هذا الطبيب ، فاصدر الحرم فعلاً ،
 ومنع بوجهه كل عائلة ان تستقبله في بيتها او تعطيه تاراً او خبزاً
 او ماء ، او تتصل به ، والا تعرضت لاشد العقوبات ، حتى اذا كان
 يوم الاحد ثلثي هذا الحرم من على منبر كل كنيسة في المنطقة .
 فسرعان ما أثر الحرم لونه . فأغلق في وجه الطبيب كل بيت .

^١ حدثنا من الامل تحت غير لائق . - المغرب .

ولم يبق من باب يفتتح له ابتهاجاً بتقديمه . لم يبق من صوت والد
او طفل يرحب به ذلك الترحيب الخار ، حتى البيوت التي كان
في داخلها يتعذب المرضى والمختضرون لم يحسر اصحابها ان يسألوه
النساء نظرة عليهم او دنواً من فراشهم .

ولخط الطبيب اوثباك مضيقه الشيخ . على ان الشيخ النبل
ساعة رآه يتعباً للانتقال التمس منه ان يبقى في رعايته ، وان لا
يفكر في النكد الذي سينعرض له الشيخ من جراء الامر . واكد
له ان الحرم لن يغير في حسن معاملته له واحترامه اليه .

فاعتذر الضيف عن قبول هذه البادرة الصكرية . وانسحب
بمعاوليه وخدمه الى بقعة خضراء جميلة تفيء عليها بضع شجرات
بديعة على مقربة من القرية . فمكت هنا شبرين في اعجب وضع
يمكن تصوره . كان ينتظر سحوح الفرصة لديه مرة اخرى لعمل
الخير . إلا ان الفرصة هذه لم تسح قط . وبقي مكانه في وسط
كثرة من السكان على مشهد دائم من البيوت والعائلات والاعضاء
وخدمهم ، ولكنه في عزلة شبه بعزلة روبنسون كروذو على
جزيرة المفردة . لم يكن ثمة احد يحمل اليه الخمر ، مع ان كروم
البنان الكاد تكون على باب خيمته . ظل صباح مساء يرمق
الدخان يتصاعد فوق سطوح نحتها عائلات طيبها وسفاهها . على ان
احداً لم يعطه الخمر . وكاث كل مسكنه ومسكن جاراته ثلاث
خيام مضرورة تحت الاشجار على الضفة المعشبة . ولكن محمداً ان
يموتوا جميعهم جوعاً لولا انهم حظوا في الضواحي برجل مسن ،
له من الصلابة ما فوقاه على افعال قرار كبسته . فكان يتجسس
ووالده الصبي الصغير وحماره من الجبال مرتين في الاسبوع .

فيبسط طرابلس ويرجع بالزاد والخمر للنجاسة . حقا انه كان يقبض
اجرا طيبا ، لكنه كان يعرض نفسه لخط الكهنة ولوبخ
الضيور ، وان لم تكن وظائفه خيرة ثقيلا عليه .

في كل احد ، طوال المدة التي لبثها الدكتور ، تحت
الشجرات ، ظل الحرم ينلي من على منبر كل كنيسة حتى يبقى
الشعب على حالة دائمة من الاضطراب والذعر . ولو ان الطبيب
كان مواظبا (المقصود : الجارية) - المعرب الا انكليزيا ، لكان
شاطر المسكين اسعد الشدياق محيرة . فقد راح اسعد هذا محاولته
الاصلاح الديني في حجرة من حجر اخضر في قنوسين ، يطعم
خبزا وماء عاش عليها بضعة اشهر عيشة هي الموت البطيء ، الى
ان قضى نحبه . ولا ريب ان بعض الكهنة كانوا يودون لو
يسمعون بهلاك الطبيب . الا انهم لم يجسروا على اخذه بالشدة
والعنف .

ومن عجيب الامر انه بعد ان أقام على هذا النحو ما يقرب
الثلاثة الاسابيع ، حقق الناس يستأنفون زيارته ، لكن ليس لقصد
ديني او ودي . انما كان وفودهم عليه ليطلبوا نصيحتة في غلهم
وأوصالهم . كان الرجال والنساء والأطفال يقفون جماعات على
باب خيمته . وكانوا احبانا يحملون المرضى معهم ويقبلون منه
العلاج لاهلين . الا ان واحدا من اولئك جميعا لم يكن ليعطيه
كسرة خبز او شربة ماء او يأذن له بالدخول الى بيته حتى ولو
كان مدفعا معدما . فقد كان لقرار البطريك نفوذ هائل على
اذهانهم . ولعلمهم لم يكونوا يعتبرون ان انصافهم بالطبيب ، على هذا
النحو في سبيل صحتهم وحسب ، انما كان عصيانا لروح الحرم .

ويقينا ان شعور الطبيب ايام الاحاد لم يكن مما يعبط عليه .
كان لا يستطيع ان يخلو عن نفسه شعور الغم كلها جميع اصوات
اجراس الكنائس تدعو الشعب الى الاجتماع ليسمعوا انه هو
وأعداده كلها مما يجب لعنه لاذاه .

فلما انقضى شهران وجد الطبيب آخر الامر ان هذا العناء
الذي يحبط به لم يخف ولم يطف . ورأى ان كل احتمال ان
يستأنف أداء امدمة والنفع قد زال الآن . فقوات خيامة ورحل
عن اعدن الجبلية ، اعدن التي كانت عليه امتحاناً قاسياً .

كان مستحيلاً ان يكون استعداد ونأهب افضل من استعداد
الدكتور « و » ونأهبه في هذا السبيل . ان اهل لبنان لقوا من
هذا الغريب اعظم النفع والبشارة والرفق . لقد اقبل فتول بين
ضرباتهم ، لا يدفعه دافع الا في من طلب مسرة او شهوة لتسقط
الخبر ، فتخلوا عنه جميعاً ^١ . لم يفرق به واحد من السكك .
فاما الرجل المسن الذي كان يهبط طرابلس ، فلما كان يصنع ذلك
في سبيل الاجرة . وكان الدكتور « و » ، تحت خيشه التي لم يكن
ماوى يحسد عليه ساعة نظره السماء او تعصف الريح على الجبال ،
احس باله انما يجهد سدى عبثاً . ومع هذا ، فليبنان كانت حقلاً
بكراً جديداً بعتاً على النخس . ولم يكن قدم قبل قدمه وحشت
اعدن في سبيل هذه القضية . والمرة الاولى التي زار فيها

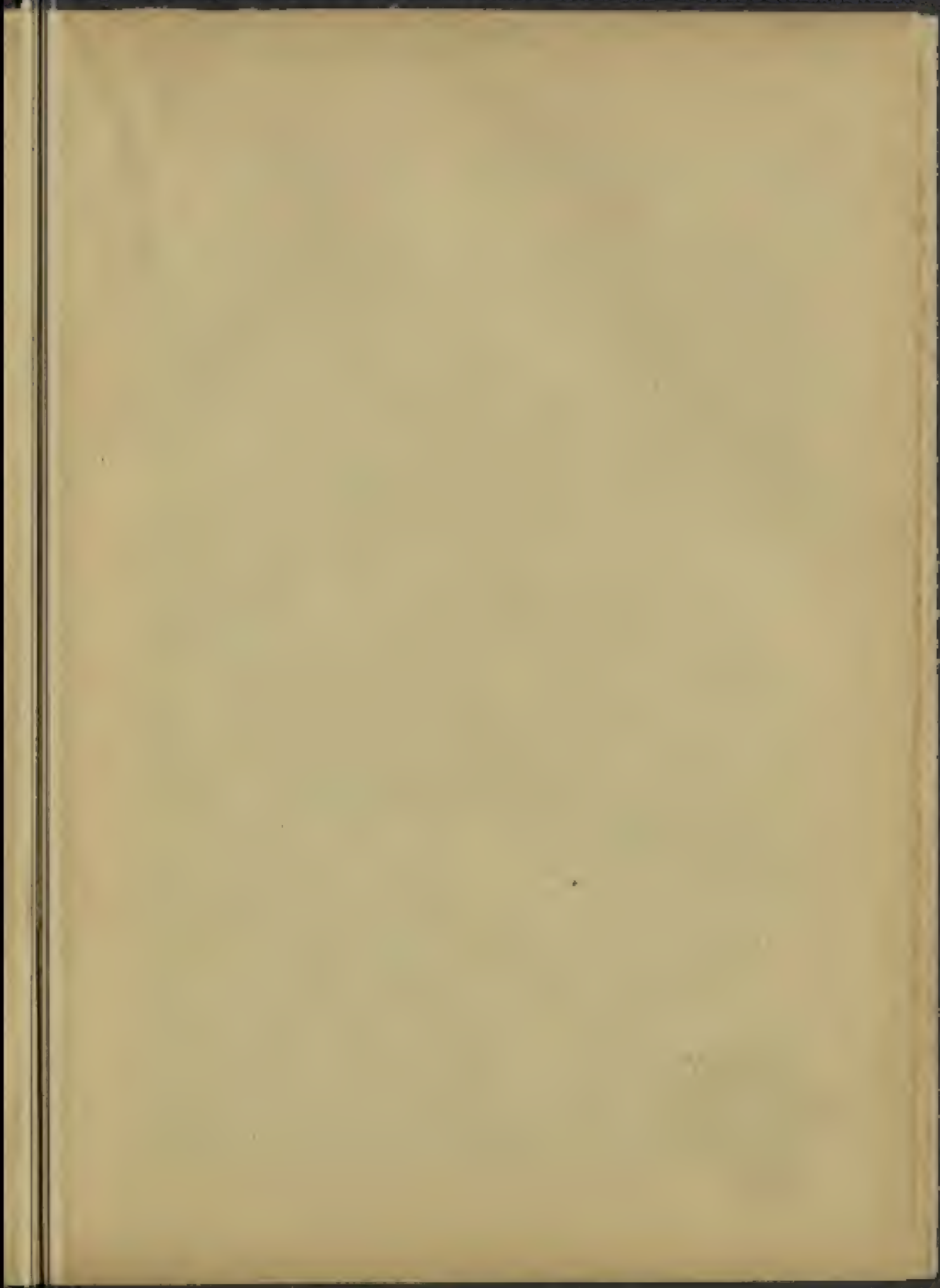
١ ثمة الاستغناء عن فكرة تعلق باراء مذهبة خاصة بالملف . - العرب .

٢ يحيط ان المؤلف هنا اذهنه لقوة في الحكم عن موقف الشيخ الطيب
الذي قائد الدكتور « و » ان يبقى في ضيقه وكفه . - العرب .

الدكتور « وه » اعدن كانت مناسبة احتضار المستور « أ ه » ، القنصل ،
وقد حفر هو له الحد بيديه الى جانب القضة في السفلى . اما
زيارته الثانية فكانت هي التي اُبتلي فيها بالاضطهاد . فاما الزيارة
الثالثة التي هـر موشك على القيام بها لاعدن فستكون على الأرجح
اوفر حظاً من البركة .



View of the old mill



بشري

موقع هذه القرية على نهر قد يشا المقدس ، ويبدو منحدرًا من
التلوج التي ترتفع فوق الارض الشبر ، وعليه جسر صغير يعبر عليه
الناس من جانب من واديهم الفتيق الى جانب ، ويجهد ما يصح
ان يسمى هذا الموقع القدة وادبا . فالت المسحة الماعونة التي
يبدو في اسفل ، لتظهر خيفة جدا مسورة بالمهاوي الهائلة ، وعلى
وجهها هذا وهناك كتل مبعثرة من صخر . فهي والحالة هذه أشبه
بشق عميق وعيب ، بسجن حقيقي صنع الطبيعة ، تخيف سكانه
وتروع . لكن لا يكاد المسافر يبط بشري حتى تناول غيبه بالنظر
يؤونا مريحة مرضية ، وفلاحين في حقولهم الصغيرة وبساتينهم التي
التزعوا ارجاسا من الصخر ، الى قطعان ترعى ازاء النهر ،
وحمام وطيور داجنة تغطي سطوح البيوت التي تنحى بينها اشجار
السرو والبن والحنوبر والنوت ، الى نساء واطفال في البسة
جيدة وصحة هي مثال العافية ، عدا الترحيب اللطيف بتقديمه .
ان في هذا الوادي شيئاً اكبر على الصمت اكراها ، شيئاً
مريباً موحشاً . وان كان المنازل والخلق الشعب وسياه وجوهم
تشتل على كثير من البهجة وحسن الضيافة ، حتى لقد بدأنا نتعشق

المكان هذه المناقضة بنوع خاص .

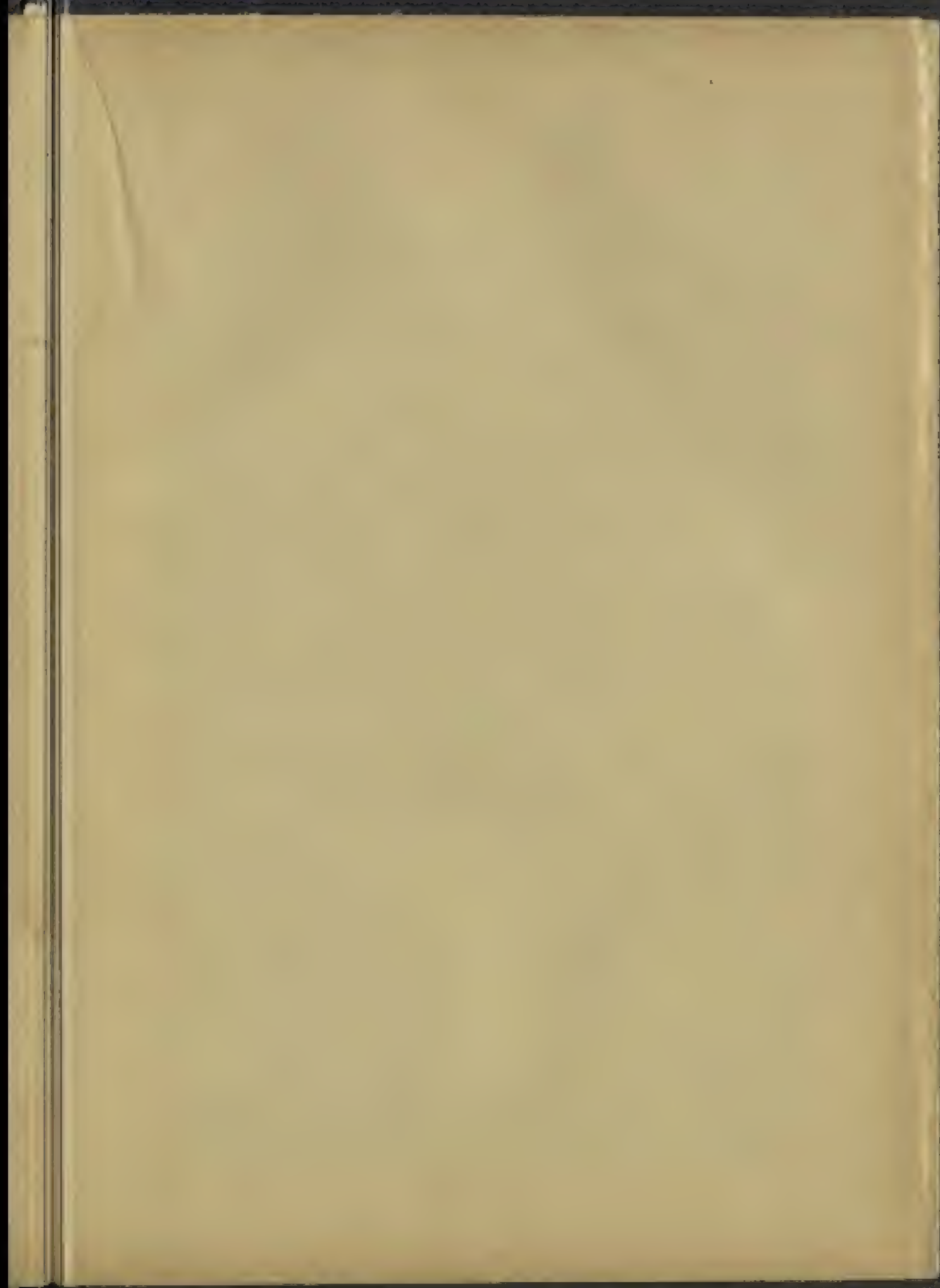
تقوم القرية نفسها على طرف مهوى - حبق منفر الشدق الى
عين حيث يأخذ بالانحدار شطر دير قنوبين . ويوحى مشهد القرية
أنها في كنف مطمئن ، برغم الحفا في الجبلية المدلاة فوقها تدليسا ،
والحفا في الجبلية تحنها . فالاشجار محشودة حولها في كثافة . وحقول
القمح الصغيرة تنزوي فيها لصق الحيطان والجدران . وحكيتسها
اشواضة تنفض على حافة المهوى .

اما النازل من فوق الى يسري فيسر بادراج منعونة في الصخر .
ثم يجناز معبراً يلف الثقافاً حول اطرافها . وهو مملك غير جداً
في بعض اقسامه . ويقال ان الناس يتعرضون احياناً للهلاك عليه
في الشتاء . ويصعب على المرء ان يتصور شيئاً ادعى الى الرهبة
والوحشة من هذا المشهد وقت تغطي التارح هذا الوادي وسطوح
بيوته ، وتتراكم في حبق افجاجة . عندئذ ، يصبح المكان مستحيل
التمالك على الغريب ، وان كانت في محاولة الوصول اليه ما يغري
وبالتق . فهناك جرس الكنيسة يطوح بأصداء رينه فوق هذا
الوعر التاجي ، والاصوات ترغم الترنيمه المرونية ، وزئير الشلال
يدوي منعطفاً بأصدائه على كل حدى . حتى اذا اقبل المساء كانت
للمسافر ان ينضم الى حلقة اسرة الشيخ حول نار من الحطب الجزل ،
تضع البرد من الابدان والوحشة من الخيبة . وكثيراً ما تلقى الى
هذه النار اشجاراً بكاملها . ويأتي الجدي او طير الدجاج او القتبص
مشفوعاً بخمور البنان السخية ، فيؤلف العشاء الذي تريد فيه رغبة
بساطة العادات .

وهذا الشلال البادي في وسط البوحة ينهر من علو مائة قدم .



1900. 10. 10. 1. 1. 1.



وثند وراعه حقول كنيوة من جليل بلون هو مزيج الحفرة والورقة .
 والى بعض مسافة ، صوب اليسار ، تبدو المجموعة الشيرة من
 اشجار الارز على قمة الجبل . وهي تبعد نحو ثلاث ساعات من
 بشري التي يقضي المبعوث اليها من الاعلى نحو الساعة . وفي كل
 سنة ، في شهر حزيران ، يصعد اهل بشري واعدن وسائر الاودية
 والقرى المجاورة الى غابة الارز هذه ويتناولون^١ في ظلالها .
 الرجال والنساء والاطفال جميعهم يعتبرون امتيازاً لهم ان يقبلوا
 غير كموا ويرغموا ترانيمهم تحت هذه اندوحات المعترة . ولا شك
 ان هذا الاحتفال يترك طابعاً لطيفاً في الذاكرة على مدار العام ،
 ومن مشاعر الاطفال مساً رقيقاً عذياً . فهنا يقضون في الغالب
 يوماً او جملة ايام ، فيشققون تحت هذه العزلة البديعة باصواتهم
 الحلوة لدى بزوغ الشمس وغروبها وفي فترات تتوالى خلال النهار .
 حفاً انها لبقعة يتسنى الكثير ان يستريحوا فيها من اتعابهم
 ويطلبوا في اللجود ! فتحت هذه الضفة حيث ينكى الملوكة وانحجب
 القديسون - تحت هذه الشهود العريقة ، ألا يكون مضطجع الراحة
 مضطجعاً مباركاً ؟

هنا في ظل من آخر ابحاد الارز ، حيث تحشرج الريح شتاء
 في اذبا الغصون حشرجة اشبه بالنايين ، تصعد دونما انقطاع ، حيف
 خريف ، ترانيم الشعب وصلواته !

^١ القسوة هنا تناول الدني . - المغرب .

دير مار مطانيوس في جوار اهدن

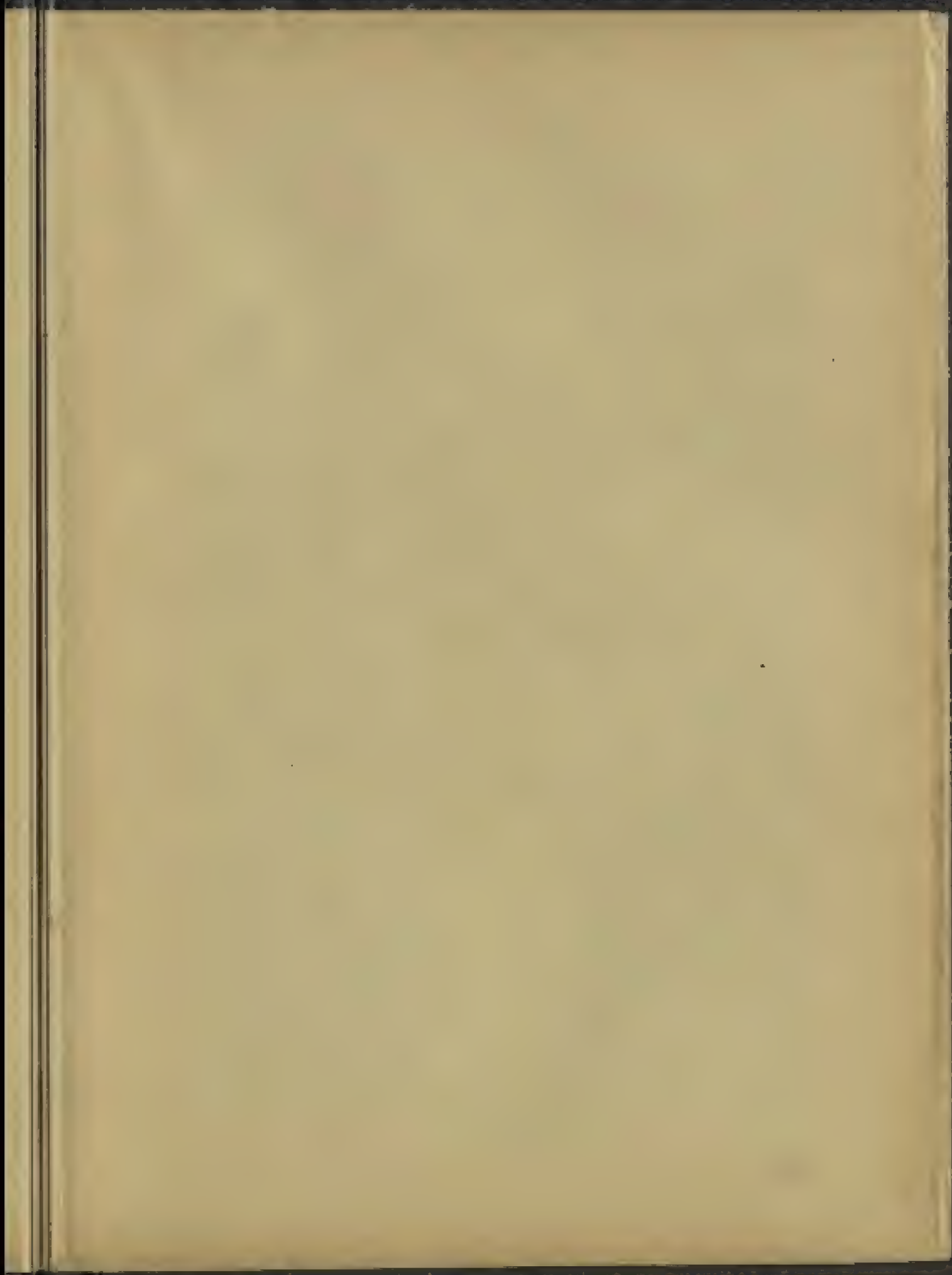
هذا الدير جدران بيضاء تعلّم جنوباً جريئاً على حافة صخرية من وادي عظيم العمق يند الخـداراً من جهة الارض صوب نهر قاديشا . وتغريك هذه الجدران بتصويرها من اي ما ناحية جثها . ان المشهد رومـانطقي . وسبل الدنو منه وعرة مسئلة في هبوطها ، تصعد عليها من القاع اصداه اصوات الشلالات المنصبّة في الوادي .

لا يبعد هذا الدير عن دير قنوبين الشير الذي يشبه جداً . على ان بناء دير قنوبين يفوقه مناعة على مناعة . والحق ان دير مار مطانيوس مفرّج موحش لا يفري المسافر ان ينحطف تحت سقفه . وفقد امضيت فيه شهراً وبعض الرفاق ، فاستويتنا حملاً من المكان المجاور هبّاه لغداًنا مطبخ الدير . وفدّم لنا الدير حمراً طيبة وخضراً فيها الكوسا المحشور بالارز والافاويه وفيرم اللحم الدقيق . ومحشوة الكوسا اكلة شائعة محبوبة في الشرق .

وظهرت لنا غرف الدير بظهير مقبول . لكن حين تكون في لبنان اديرة ينزل فيها الضيف منزلاً واقياً بديعاً ، فعلام اذنت يقيم في مار مطانيوس ؟ انه دير للنبوة والتفكير لا للفرح والحبور .



صومعانه مارماریوس في اهدن



فالشمس تندهر في وقت باكور بين الجلاميد الرهيبة ، وتضعد
من الاعماق ظلمة تبعث فشمعيرة باردة ، وتعالى اصوات البهائم في
انهارها مندرة مبددة ، حتى يتصور الزائر الشائر الاعصاب انه
في وادي الاشباح حيث سمع كرمشبن^١ اصوات الشباطين
وزحمة اقدمهم في الذهاب والاياب . وليس لآباء هذا الدير سبيل
مبهجة . فهم اهل ولادة ركمد وزمالة ، استنقعت افكارهم طوال
سنين كثيرة ، ونجست عواطفهم ببقا المراس ، او تجرد فيهم على
الافل ذلك الشطر الخار الحنون من عواطف البشر وطبيعتهم .
يستحيل على المرء ان لا يشفق على هؤلاء الناس . ان الاشخاص
في مقدم العذرة هي رسوم دقيقة لهم . جميعهم مرسلو المحي .
وكثير منهم يعمرون جداً ، لطائفة التي تستغرق فيها حياتهم ،
ولذلك المذبح نداء حاداً ، ولزينة مواظبتهم على كل عسادة من
عادتهم . الجديد لا ينفذ البتة الى ارواحهم . والعقل في سيره
يعجز عن تسليق جدران مارمطابوس . انهم يحبون حياة تعاس ،
لا حياة احلام . قلبس لهم كلفة من خيال فجعلتهم يملكون . ولو
ان سبباً من حرارة الحماسة لوفر لهم الكاروا ممن نحل عليهم
البركة .

ينفضون في اعماق سحر من النهار ليرددوا حناوات الصباح .
انكن قبل ان يندوا ثيابهم ، يترب عليهم ان يتلوا صلواتهم وهم
في الفراش . وهكذا يستهاكون بضع ساعات في التعبث او في

^١ كرمشبن Christian هو رجل الزوايا الرومية الدينية التي فيها
يوحنا بياض . - انظر .

مظاهرة على الأرجح . وقد اتبع لي ان حضر صلاة العشاء في
كنيستهم . وكان حاضراً عدد قليل من الآباء . فبلا الكهنة
المراسم بصوت مرتفع آتي سريع . فلما خطبوا التي جده منته
ما يفعلون ، وجدوا في ذلك موضوعاً للسوى واخذوا يومشون
الي ويومى ، بعضهم الى بعض ساخرين من اهتمامي بما يقومون
به من شأن . ولا غرو ، فالمواظبة الدائمة على تكرير الصلوات
وأنة مراسم اخرى ، طوال ساعات كثيرة كل يوم ، امر يكفى
للقضاء على روح التعبد ان كان سبق لها فنة وجود .

واقف اتبع لدير مارمطانيوس في الاجل الاخير ان يكنسب
شهرة موجهة منجعة . شهرة آتته عن طريق اعتقال اسعد
الشدياق وسجنه . وما جريفة اسعد هذا سوى محاولته ان يدخل
الى لبنان مجرد إيمان بسيط نقي^١ . كان اسعد فني ملاكاً
بمقدار ، وصاحب نفوذ ماء في الجبل . تولى تعليم اللغة السريانية
للمستر كنغ احد المرسلين الاميركيين في بيروت . وهو رجل
عظيم الموهبة انقضت على اقامته في لبنان سنون كثيرة . وفيها
كان الرجلان يقرآن معاً كتاب العهد العتيق بالسريانية ، كانت
اسعد يعلق على بعض الآيات وبدل المستر صنف على الاخطاء
والنواقص في مذهبه ويطلب في ذلك الشرح . على انه لم يحسب
حساب التكاليف وهو يفعل ما يفعل . فان ثلثه كثيراً ما
كان يقابله بحجج وتعليقات اقوى وأوضح من حججه وتعليقاته .
واذا بأسعد ، خلال بضعة اشهر ، يستلم شيئاً شبيهاً للمقبلة .

١ استغنياً عن الالة اسطر ضنها المؤلف آراء مذهبية خاصة . - العرب .

ثم اذا به ^١ يصبح روستنياً مخلصاً . فأحدث هذا القرار الذي أقدم عليه اسعد ضجة في لبنان . لقد كان معاصراً ماهراً فثبت يعلم ويقيم بين البروتستانت . وقبل انه عازم على نقل اجزاء من الانجيل الى العربية لشرعها بين مواطنيه . ذلك بان مراسو الخدمة في الكنيستين المارونية واليونانية تقام على الاكثر باللغتين القبطية السريانية واليونانية ، وهما لغتان لا يفهم منهما الشعب كلمة واحدة . وليس يؤذن الا في المدارس بقراءة المزامير باللغة العربية . مع ان لغة اهل لبنان المحكية انه هي العربية ، وان تكن هي الدارجة لا الفصحى . فشرع العهد الجديد بهذه اللغة التي يستطيع ان يقرأها قسم من الشعب ، ويستطيع ان يفهم الباقون اذا قرئت عليهم ، كان بمثابة اسداء لعمة لا تقدر . وقد تم هذا الامر فيما بعد ، ولكن ليس على يدي اسعد . غير ان فعلة اسعد اغضبوت مثلاً جديراً بان تسري عذراه . فعزمت السلطات الكهنوتية على قمع عرطته وهي في اول نشأتها . فجرى القبض على اسعد واستبق سجيناً الى دير مار مطانيوس . أستودج استوداجاً من بيروت الى الجبال ، وفيها اعتقل . فقتل جنة اشهر في حجرة ضيقة بين جدران هذا الدير يرفقه حارس يقظ ، ويسكن بالحرمان ، ويضيق عليه بالحجر . لكن ذلك كله لم يقلل من ثباته ، بل جعله اقوى تعلقاً بهذا الشعور الجديد الذي استولى عليه . وتوصل الى ان فر من حجراته وتجاوز جدران مار مطانيوس وانتقل الى كوخ مجاور . وقد كان عليه ، بعد ان ذاق من تلك المراحم الرقيقة - مراحم الكهنة - ان

^١ اسقطنا من هذه العبارة كلمات غير لائقة . انظر .

يفر من ربوعهم الى طرابلس او بيروت حيث لا جراحة لهم
 على تناولهم بالمكرهه وحيث تحببه جملة اوروبية . غير انسه
 لاستقامته في غايته حرص على ان يقع اولئك الكهنة انه ليس
 بمعتز نادراً ولا يراه منافق كمن زعموه ، وان اياه جدير بان يتزع
 من قلبه كل خوف . لذلك تربت الى جوار الدير اياماً عدة ،
 فالتقي عليه القبط للمرة الثانية . ولم يصكن سجنه هذه المرة في
 مار مطانيوس ، بل في قنوين حيث الدير اوثق بنياناً وأمن.
 وعنا في دير قنوين يشهد البطريرك الصغير الذي تم
 بأمر منه حبس اسعد في دير مار مطانيوس . وعلى ذلك لم يكن
 باستطاعة اسعد ان ينظر منه الرحمة الكبيرة . زج الاسير في
 حجرة منع فيها من انفس الهواء النقي . ولم يقدم له من الغذاء
 الا ما يكفي إمساك الومق ولا يكاد . ويقال ان حصته اليومية
 من الطعام لم تعد وجبتين من خبز وماء . . . ليس يعلم بالضبط
 مدى الزمن الذي مر عليه وعو على هذه الحال . لكن لم تفس
 اشهر جملة حتى انهارت عافيته تحت وطأة هذه المعاملة . وأعلن
 الرهبان آخر الامر انه توفي . وقد كان المرسلون جهودوا
 في سبيل اطلاق سراحه . على ان البلاد في تلك الحقبة كانت في
 غاية الفوضى : الجيش المصري في بر الشام ، والاساءات التي تناول
 الاشخاص قردون ان يكثر ما احد ، ووضع القذاحل يتوقف
 على ظفر الغازي . ومع هذا فيوم أعلن نبأ وفاة اسعد ، انطلق
 الناحر الدمشقي السيد . . . الى ابراهيم باشا ، فزوجه الباشا فوراً
 بصابط خوله ففتيش دير قنوين . لكن الناحر والضابط ، لما
 وصلا الى الدير ، لم يؤخذا الى حجرة اسعد الحي ، بل الى قبره

الرحط .

ان دير فنوبين ، حيث تقى الهلاك هذا الغنى المنكود ،
 جدير بان يكون محكمة من محاسن النقبش . يقوم بنساء الدير
 على منحدر مسطح ، فيبدو كأنه معلق بانقضاء يدعجه جدار شاهق
 مشبد لصق جانب الجبل . وفي المكان هاربة عميقة تند صعوداً
 في الجبل مسيرة ساعات كثيرة ، وتكسوها النباتات البرية من
 قاعها الى الرأس ، وتنحدر على جوانبها جملة من السيول . اما
 موضع فنوبين فهو حوالى منتصف الطريق الخداراً مع احد جانبي
 هذه الهاربة ، على فوهة كهف كبير . وليس في الدير سوى بضع
 غرف صغيرة تنفذ الى امام فتستمتع بضوء الشمس ، بينا البقية
 الباقية من الغرف كلها تحت الارض . وقد كان حبس الاسير في
 واحدة من هذه الغرف الاخرى ، فكان النور الذي ينسلل الى
 حجرته قائماً يكاد لا يكفيه للقراءة حتى في رابعة النهار . شد
 ما آله الرعبان ، وعدده البطريرك . وهو الى ذلك لا وفق له
 الا امانى الوحدة وقاملات العزلة . وشد ما كان موجعاً له في
 مطاع سيرته ان يجد اولئك الذين دعوه الى الباع هذه السيرة
 قد انحازوا عنه وعجزوا عن القاذة .

لبطريرك الماروني ، وراء اقفال دير فنوبين وقضبانه الحديدية ،
 سلطة عظيمة في الجبل ، سلطة دقيقة واسعة الانتشار شبه سلطة
 ديوان النقبش ، تمتد شعبها ويسري نفوذها الى كل دير ماروني
 وكوخ ومنزل . ولم يكن اسعد ليتنعم بنصيب من خلق
 وشجاعة يواجه به سلطة كهذه السلطة . غير ان عذابه مع هذا
 لن ينضب سدى . فاحتجاجات هذا الماروني المسكين وندائاته من

محبة - هذه التبدلات التي لم يجب عليها احد بسوى الصخرة
والخقد - لا بد ان تصعد من تلك القاربة العميقة في الجبل
وتدعو الآخرين ان يشهدوا للحق الذي كان شهيده .

لقد حاول كاهن او كاهنان من الطائفة في السن ان يردوا
اسعد الى مواضع امله التي صدف عنها وطقوسه الخرافية ^١ . وقد عجز
اولئك الكهنة ان يدركوا سبب هذا التبدل الذي طرأ عليه ،
فحمله على ترك معتقد آفته وكنيسة اجداده وانسابه واصدقائه .
الا انهم كفوا عن ادعائه ، فيما بعد ، ساعة وجدوه غير قابل للتأثر
ولا الاقتناع . فليتظر اذن موته بلذة وغبطة . ان عاقبته التي
انهارت لم تنر فيهم الشفقة . راحوا يرقبون آلامه بهجة وحبور .
ولم يكن لينفذ الى حجرة شعاع من اشعة الفرج . وفي الشتاء
كان يرد الحجرة وظلامها كبرد القبر وظلامه .

أمس دير قنوبين الامبراطور نبودوسيس الكبير . واعيد
بناء هذا الدير مراراً كثيرة . غير ان الكنيسة المقدودة في الصخر
باقية الى اليوم على نحو ما كانت عليه اول نشأتها . وهي على اسم
العدراء ، وفيها عدد من البطاريكة القدماء يطلون من صورهم على
الجدران عابدين منجهين .

يقم البطريرك الحالي في هذا الدير اكبر الوقت . وكل ما
يحيط بالمسكن قدسي وان اعوزه الجو الادبي . فالمسكنة التي
كانت في يوم من ايام الامس غنية حافلة بديعة قد بُعِثت على

١ لا يخرب عن بال القارىء ان هذا رأي المؤلف . - العرب .

التدريج . فلبس لها من اثر الآن . ان فنوبين هي « لا تراب »
لبنان في مؤلفها وفسوة مناخها ، وان يكن ذلك لا ينطبق على
الطعام فيها ، فالجور طيبة ، والخوان في غرفة الطعام محمل تحميلا
وافيا . ومع هذا فالاديرة اللبنانية اقل طرافة ونشاطا ذهنيا من
كثير من جماعة « لا تراب » .

وكيسة دير مار مطانيوس مقدودة في الصخر وواجهتها من
حجر . لبس فيها منبر . اما الخدمة فتقام فيها مرتين كل يوم .
والكاهن الذي يقوم بالخدمة يدخل نفسه في نوع من « قرابة » ،
بينما يقف الباقون ، اذ لا مقاعد حتى من ابسط صنف في الكنائس
المارونية . والجماعات التي تحضر الصلاة في الاحاد والاعباد تكت
رافقة طول مدة الخدمة .

في بستان مار مطانيوس خضر شتي وفواكه كثيرة كالعنب
والرمان وغيرها . ولم يكن على هذه الصخور الوعرة ارض ما .
الا ان حائطاً اقيم على موازاة هذه الشجيرات ، فاذا يسيل
الثلج التي تقبل من علو ، جاذفة الثراب ، تقف عند الحائط
وتلقي رواسب من حائها . وهكذا تكونت على مر الزمن
ارض مهدت وقسمت « جالبي » .

ولا يزال الناس المتصابون بالجذون ، حتى الوقت الحاضر ، يرسون
من البقاع المجاورة الى دير مار مطانيوس طلباً للشفاء . وأخرى

La Trappe نظام رهباني اسسه املا روترو الثالث سموت برش في
العام ١١٤٠ . وقد انتقلت هذه الرهبانية من فرنسا الى سويسرا من انصار
اوربوا ، وهي رهبانية مبنية على القنفذ في الحياة والاعتصام الى العصر الحديث .
- المبرح -

يمثل هذا المكان أن يحزن العقلاء لا أن يعقل المجانين . فالمدحدر الى
الوادي المظلم موحش جداً ، وحضاني الجبل من كل صوب عابسة
عبوساً قهطيرياً ، حتى لتخال نفسك ، إذ تهبط هنا ، أنك تستأذن
مودعاً جميع اشياء الطبيعة المباركة المبهجة ومن ضمنها البساتين
الحلوة ، والشاطئ المضاء بالشمس ، والراعي ، والمروج ، والبحر الجميل
وعنفوان امواجه . ان المرتفعات الشاهقة لتتدلى فوق هذا الدير
حتى لتحرمه الشمس إلا بعض خيوطها الرفيعة . ولئن يكن يبدو
على سطح الدير وجدرانه في الصورة المقلوبة عنه قبض سخّي من
الضوء ، فذلك بان الصورة قد أخذت ظهراً ، والظهر هو المبقات
الوحيد الذي يمكن ان يحدث فيه مثل هذا الامر . فأما معظم
النهار ، فالدير بسطحه وجدرانه بارد فقر من الشمس . وما من
نقطة او زاوية او طبقة من صخر في الجوار إلا وهي مغطاة
بالصلبان التي لا تبدو في الصورة .

على مقبرة مار مطانيوس قليل من المسحة الشرقية . فالظلال
الموحشة والمناشي تحت اشجار السرو والشربين لا تدعو السائر الى
التأمل ، ولا تحبهم بصحافة وعمق على القبور . والقبور في
مار مطانيوس كقبور العرب الصحراوية ، مقامة تحت الحفاني النائرة
حيث يستحيل على العاصفة ان تهب او على الحرارة ان تشتد
وتتلف . ما اكثر ما يرقد هنا من اجيال ، وما افظع الحواء
الذهني والفراغ العقلي الذي يعرضه تاريخ هذه الاجيال لو كتب ا
لقد سكف البشر منذ اجل طويل عن الاهتمام بتأملات الناسك
المشرد ومجاهداته وتخليه عن كل شيء في الجباة ينطوي على ذوق
او بركة او بهجة . ومع ذلك ، فأي سفر مبتكر ، او سلسة

من اسرار تمكن كتابتها ممن ينامون ويعيشون طي هذه الجدران ،
لو ان واحداً من الرهبان كانت له موهبة الكتابة ، فاستطاع
كالقس بروت ان يصنف مادة من مخطوطات مكتبته ومن بليات
أفكاره .

قرية اهدن

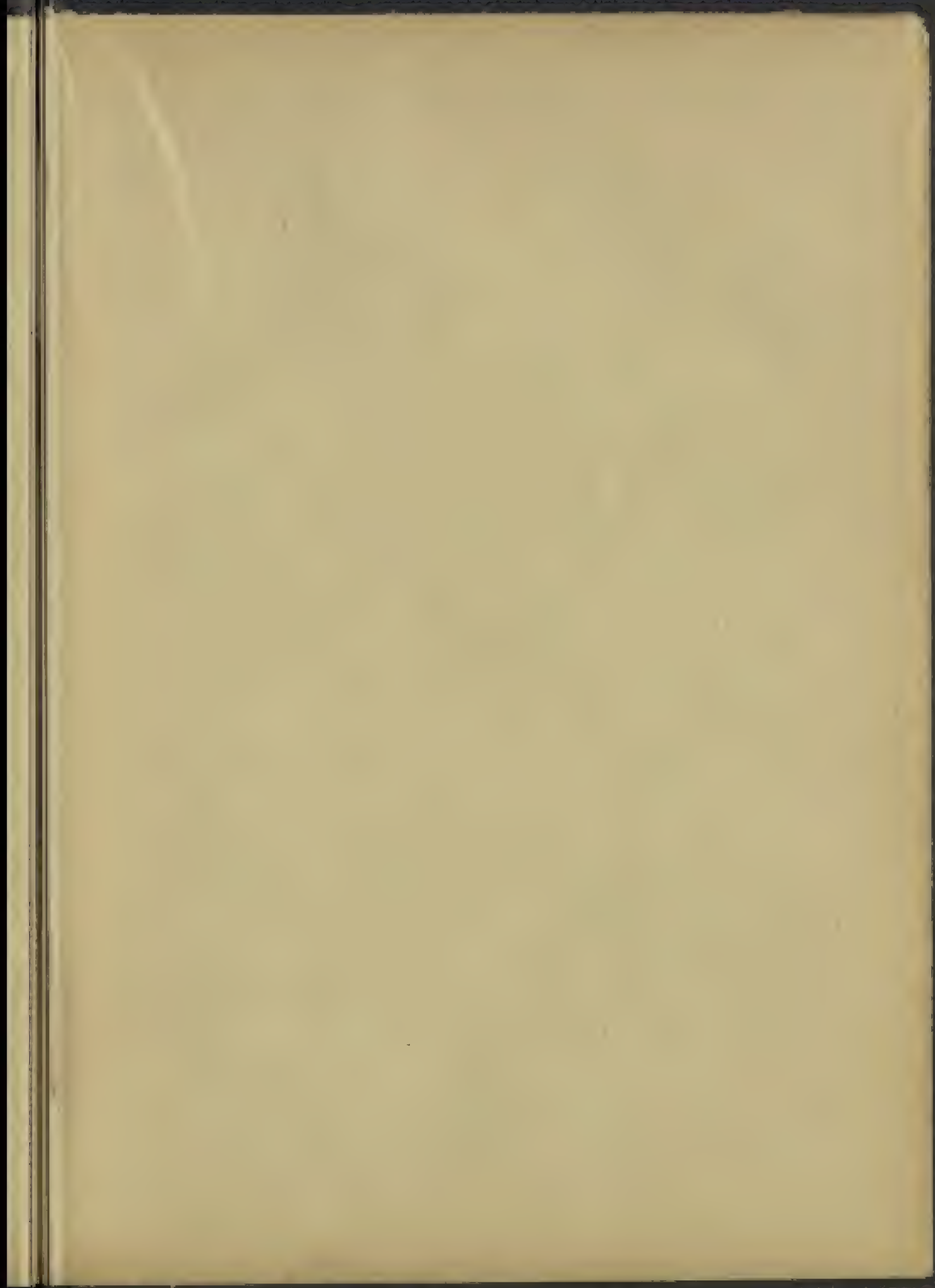
اقول الاسطورة ان هذه الناحية كانت موضع جنة عدن .
اما مذات الاسطورة فجهال المكان وروعه . ومع ذلك فالطبيعة
الايثية ١ القوية التي تنعم بها هذه البقعة تجعل الاسطورة
مستبعدة .

وعلى كسب يفرع ارض لبنان العريق . وتلك الغضبة الى عين ،
وعلى غشها القرية ، اذا هي كسائر الغضبات جزء من لبنان . ان
اهدن بمعنى الكلمة اخري نوكر نسر ، انكاد تكون معلقة بين
السماء والارض ، شأن حارس يحضر الارض الخالد الذي يمكن
الانتراف عليه ، كتلة خضراء دكناء ، من خلال شبابيك المنازل
المتسدة على الكفة اعلى . وتنفض جبال القرية القمم المكحلة رؤوسها
تلجأ ، الغارسة اقدامها في مراعي خصبة تسرح فيها القطعان
وتصعد منها الغاني الوعيان كأنها متفجرة من الانير .

جوار اهدن بحרות حراً صالحاً ، مزروع نوناً وكرماً .
وايس من كوخ الا وهو يموت بالحر . ولا تقف اصناف الخمر



قوة العسل



المصنوعة في جبال لبنان عن النبي عشر، أكثرها حلو قوي الذيد،
ومنها اثنان أو ثلاثة بمنازة ولاسيما الحمر الشهيرة الذهبية اللون .
إن نقاء المناخ أكثر السنة في هذه القرية ليجعلها مكاناً
موصوفاً . ويبلغ من الذع هوائها في الشتاء أن ينتقل عنها أهلها
منحدرياً إلى زغرة . يمكن القول أن اهدن هي باغثيريس لبنان .
ولو أنها كانت سهلة المثال كالبرانس^١ لكانت الجماعات الغفيرة من
طلاب المنفعة وزوار المشاهد تغطي حقولها الرومانطيقية . وتنبج
الاديرة الوفيرة في جوارها ملجأ طيباً يلوذ به المرء من رغبة
العيشة الجبلية ليحظى بالسوى في معايشة بعض الآباء الرهايين ،
ولينزل ضيفاً على مكباتهم ومطابخهم .

يشير الموضع هنا بأشجار توتة التي لا تخص ، شهرة مصر
بأشجار نخيلها . فترى التوت في أهم شطري السنة يكسو المشهد
في كل صوب خضرة مبهجة . ولما كان هذا التوت لا يزرع رغبة
في ثمره ولكن في ورقه الذي يربى عليه الكثير من دود
الحريز ، يعمد الأهليون إلى قنطِرِ فصاة الشجرة على ارتفاع ست
أقدام تقريباً ، فتنبثق عندئذ فروع الشجرة بل قضبانها مودقة
أبداع ورق وأبهاء . وعلى هذا ينتج في لبنان كل سنة مقدار
كبير من الحريز .

يغرس التوت على صفوف مستقيمة . فإذا كانت أشجار الشتاء
حُرثت الأرض فيما بين الصفوف بحراث خفيف لتتمكن التربة
من اجتراع ماء انظر .

أما الأكواخ ذات السطوح المربعة ، على ما تبدو في الصورة ، فهي شكل البنيان العام . ولعل هذا الشكل كان مستعملاً منذ أقدم العصور . يحمل التراب إلى السطوح خلا وبسوى على مستوى منظم ، ثم يروى بمحلاة حجرية منعاً للأمطار ، التي تغزر في هذه الناحية ، من التغفل فيه والرشح إلى داخل البيت . وبالطبع ، ينمو العشب في التراب على هذه السطوح نواتاً حراً . وهو العشب الذي ذكر صاحب المزامير أن لا تقع فيه إذ قال : « لبيكونوا كعشب السطوح الذي يبس قبل أن يقلع » .

وبهذا الصدد أقول أن تربة الجبال تربة تربة أعظم الغراء ، ومغوية أشد الأغواء ، عالم النبات . فهي حافلة بقدر كبير ، وأنواع موفورة من الأعشاب العطرية . فإذا أرف الغروب ساعة سقوط الندى ، تشجن الهواء بروائحها الزكية . وإلى ذلك يشير تشيد الانشاد حيث يقول : « عين جنات لبنان ... هي يا شمال وعلمي يا جنوب اسمي على جناتي قدسكب أطباها ... رائحة ثيابك كرائحة لبنان ... »

وفد وصف أحد رجال التبشير مشهداً آخر في لبنان لا يختلف جدياً عن مشهد الدفن هذا ، قال : « في عيناب حيث توقفنا مرة أخرى لنجدد نشاطنا طالعنا صباح مهيب ... ثلاثون

١ غاوراً عن ثلاثين سطرًا ، في النص الأصلي : جميعاً المؤلف يذكر الفصل الانتكاري المستر ايوت وفيه في المدن . وقد سبق المؤلف أن تناول هذا الموضوع بالذكر في فصل ماضي . ثم لم في الاعادة لقادة . - المغرب .
٢ يشهد دفن الفصل المستر ايوت . - المغرب .

شيخاً ، وقد جلسوا حلقة واحدة . ثم نهضوا منسحبين الخضة
لبشركوا في دفن رجل وجبه من الدروز . واذا بشيخ منهم
جليل القدر ، ابعده غايات الجلال ، يقف فيهم بضع دقائق فيخطبهم
بالفعال ظاهر الوفا . لقد بدا لي كأنه صورة مجسدة من ابراهيم
وعمر بن الخطاب بن حبيش . ومع ان معظم هؤلاء الشيوخ كانوا
دروزاً يعرفون بعبادتهم المقتضية افلاماً عريضة ، فقد شهد الجنزة
كثير من النصارى . ويبدو في الدنيا كأنها ان البيوت التي تقم
بالموت تصبح ساعنة الى حد كبير مباحة لروح الود والالفة .
فينسى الناس الى اجل ما كان بينهم من نفور ديني ، هذا اذا
لم يزيلوه البتة . وعندئذ يتلافى عن طيبة خاطر ، حول القبر
الواحد ، بشر ما كانوا ليفكروا في التلاقي تحت سقف الكنيسة
الواحدة .

قرية زغرنا

قرية على بعد سبع ساعات من اعدن وساعتين من طرابلس .
تقع موقعاً بديعاً على قدم لبنان تقريباً . تقوم بيوتها بين
مزارع الزيتون في الوادي .

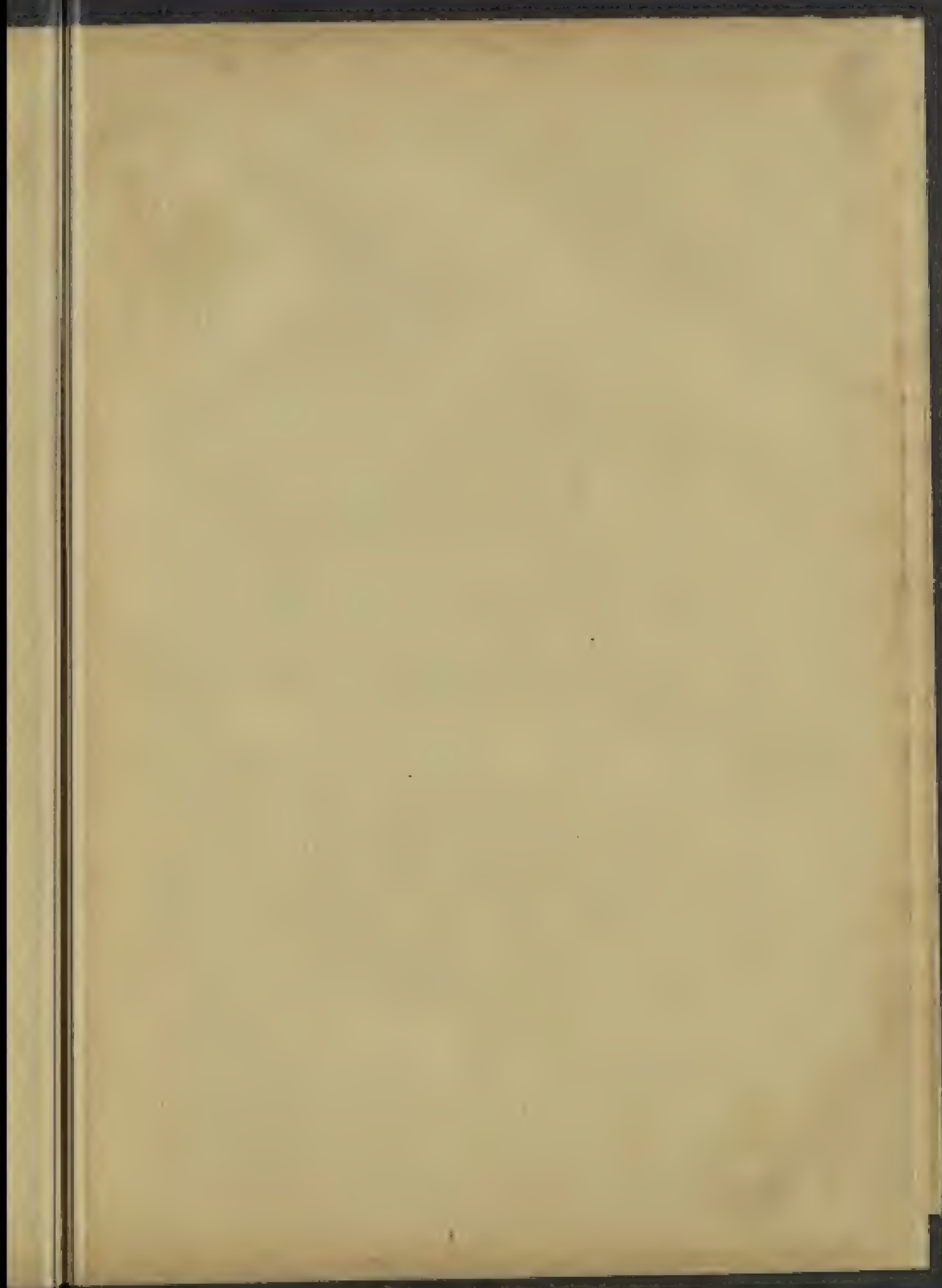
ليس من شعب في الارض يتولى منزل ساحرة الموقع كسكان
الساكر والاعشاش في سلاسل لبنان . وهؤلاء الذين يبدوون في
مقدمة الصورة انما هم فلاسح المنطقة : رعاة ومواشيهم ، وآخرون
يحملون الحزير رأس المنتجات التي يجود بها الاقليم .

ان الطريق من اعدن منحدرة ومرة . قلبت على الحداويع
الشديد المخرج مدى خمس ساعات ، ثم نضلع ونعندل . وتبدو
مزارع التوت حول القرى وفي اعماق الاودية الصغيرة الضيقة
منناحية في درجات الجمال .

وما أطيب ان يقف المرء عند موقع زغرنا البهيح ، ليستضيف
مشايخ اعدن ، وقد انتقروا في فصل الشتاء الى هذه البقعة ليستنعوا
بأواء الناعم الطيف . ويدور بزغرنا نهر رشعين ترفده ساقينان
والكثينة الذين يتزلون هذه المنازل المنفردة انما يشبهون رعاياهم في
القاليد وعادات الحياة . ورعاياهم متعلقون بهم جداً . ومع ان



قوله زعموا



في اقليم لبنان مائتي دير ، فالكثيرة هي القرى اللبنانية التي تقع
بعيداً عن جوار هذه الاديرة . ويؤذن لكهنة الموارنة بالزواج ،
شأنهم في ذلك شأن اسلافهم عهد الكنيسة الاولى . لكن يشترط
في الزوجة ان لا تكون ارملة . واذا تحمل الكاهن حفر عليه
الزواج مرة اخرى .

ليس هؤلاء الكهنة كزملاتهم في أوروبا موارد او مرتبات
معينة . فهم يعيشون على أعطيات رعاياهم ، وما يوضع لهم في
التقديرات ، او يعيشون بعمل ايديهم . بعضهم يحترف تجارة ما ،
وبعضهم يحرث مزرعة صغيرة . كل من يحبهم ، غنياً كانت او
فقيراً ، سارع الى تقبيل يدهم . وما من قرية الا لها كنيسة لها .
ولكل كنيسة جرسها ، وهو شيء لم يسمع به في مكان آخر
من تركيا . وان طقوس الكنيسة الرومانية التي يتبعها جميع
الموارنة لا تدرس في أوروبا بحرية وعلانية اوفر مما تدرس بها
هذه الطقوس في هذا الاقليم الذي حافظ فيه اساقفته على حالتهم
المناوغة الاولى . وغالباً ما يلقي المرء احدهم منطياً بغلا ، لا
يرافقه - يرى فتدلت . ويعيش معظمهم في الاديرة ، لا يتجاوز
موردوم السنوي الفاً وخمسة ليرة او ستين استرلينية . على انه
مقدار يكفي لتأمين كل رفاهية لهم في هذه البلاد التي رخصت
فيها كل الاسعار .

ونعتبر قرية زغرتا فردوساً صغيراً في نظر الكاهن القانع .
وقلبية هي قرى الكهنة التي توفر لرجال الدين ملجأ طيب
وادعى الى الطائفة .

وان يوم الاحد ليغري المسافر بالتخلف في هذه البقعة . يغريه

وتبين هذا الجرس المنفرد وقد توأمت النغمة بعيداً . يغريه احتشاد
الناس في أذن ملايهم ولا سيما النساء في الجلابيب الموردة
البيضاء والطناطير . كما يغريه الأطفال وعم صورة بحسنة المعافاة
الموردة . ولا تنس الشيوخ في سياهم الابوية تنحدر طاهم السجبة
على صدورهم ويصل الشعر الخفيفة على جباههم . أما القدام
فبالسربانية ، وهي لغة لا يفهم منها أكثر الناس حرفاً واحداً . غير
أن الانجيل يتلى بالعربية لينفهم الشعب . وبناء الكنيسة في خشونة
بناء الكوخ ، ملائم البساطة الاجتماع .

وها هو الأب جيرومي دنديني ، الذي بعث به البابا عام
١٦٥٠ رسالة الى بطريرك الموارنة ، يصف جنازة هذا البطريرك
ومن شهودها في فلورين فيقول : « وجدته في الكنيسة على
كرسي ، مينا ، مجلياً بثوب الاحبار ، متوجاً بالناج الاسفي ،
وفي يده الصليب البطريركي ، يحيط به الكثير من السباه رجالاً
ونساء ، يعولون ويغرعون الصدور ويصرخون صراخ نجيب طوال
الميل . حتى اذا كانت نهار اليوم التالي توافد جموع الشعب ،
فحملوه ظهراً الى مدفن البطاركة المألوف ، وهو موضع لا يعد
أكثر من رمية بندقية ، ثم أنزلوه على عاتقهم الملك الحفرة جالساً
على كرسي خشبي . »

ان زفرة في الشتاء هي بالنسبة الى اعدن كمونبليه . اذا دنت

المعروف ان الاب ارونيموس دنديني ولد على لبنان سنة ١٥٩٦ . اما
رحلته التي نشر فيها المؤلف هنا فقد غلبها الى العربية الحوري يوسف رزك
المعشني . وانشرت ناباً في « مجلة البطريركية » ، ثم طبعت على حدة في مطبعة
جريدة « العم » في بيت شباب - لبنان ، سنة ١٩٣٣ . - العرب .

التلوج والامطار والعواصف الزاحفة من الاعالي ، رأيت سكان
المدن ينتقلون الى مشائيمهم في دغرة . رأيت العائلات تسوق
ماشيتها وتحمل قسما من ماعون بيئها وتهبط متعرجة على طول
المحدرات الوعرة الى حيث :

تتنفس الرياح ناعمة على الضفة البتسية ،
ويسمع صوت الصاعقة والعاصفة بعيداً فوق لبنان ،
ولكن لا بحس وقعها .

مشعر في جبل لبنان

فوق وادي ناثشا : الوادي القدس

هوذا لبنان في جلال روعته الجامة ومجده الذي لا ينفد .
هوذا لبنان موحشاً غبرت جموعه وجاهيره فلبس في الغواء ثامة
الا ما كانت من صباح نسر . يا للطبيعة ، شد ما هي ها هنا
بأذنة مترفة ، غابات وأودية ومهاوي وشلالات خفيت او كادت ،
لم تظأها قدم . وهي الى ذلك جميلة وجديدة ، كأنها خرجت
الساعة من يد الخلاق الذي صاغها ، فهل انى على هذا المكان
حين من الدهر ماجت فيه السنايل على هذه الحقول ، وعمرت
الدوالي على هذه الآكام ، وأهلته البيوت والقرى لا هنا وحشة
وانفراد ، وكآبة محيطة كأنما تم كلام النبوة : « لبنان يتحجب
لأن الشعب نوازي من تحت ظلاله » .

ليس في هذه القفار البديعة تشويش في الاشياء . ليس هنا
فوضى كجيال الالب من فدد ضخمة سقطت من علو ، او من
مهاوي مظلمة مسنوعة على العبور . قد يكون ان رساماً حلم
بهذا المشهد ، ومن ثم خط له لوحة مثالية . فلما من منحدر
خفيف الا له غابته البديعة التي تصكوه ، وحجارة الغرائيت التي
تنفسح عنه بين الحين والحين . وهذه الاودية التي تبدو في اطرافها

شديدة المضيق ، كما يمكن الوصول إليها بمعار متعرجة مع
السواقي التي تجري متعرجة هي الأخرى ، فاشرة البركة ، وإن
تكن بركة في ففر .

توجب هذه المعار عيناً ينقض على من يقطعها ركوباً على
البغال . فالأدراج من طبيعية ومصطنعة على الطريق ، بل هي
الطريق نفسها . وهي أحياناً مقدودة على عمق جملة أقدام في
الصخر ، أو هي على شفا مهوى هائل . وعلى ذلك ، يكون
السفر هنا على الأقدام أسلم وأمن .

هنا في هذا الحلاء المحيق شيء مصطنع من الصمت والسكون .
هذا يستيقظ العاصفة على فجأة محبفة رهيبية . ولكننا الآن في
الظهيرة ، في نهار حائل ، وانغومة الماء تصعد رفيقة خافتة من
تحت . ولا بد للمسافر من خطي كثيرة محترقة متعبة ، قبل أن
يحظى بالراحة على خفة هذا الماء . وآخر ضاغط مستبد . وأقواء
بلوري شفاف حتى تبدو القيم المكللة تلجأ كأنها في الأشعة
الباعرة فوهات نارية مشتعلة تطفئ عليها بعض غيات رفيقة
أشبه بجزر صغيرة تتخلل بحراً جليلاً موحشاً .

كان الحفراء اللبنانيون معنا ، كالمسافرين ، جميعاً مسلحين . وقد
ألفوا هذه المسالك الوعرة ، فهم يشون دوماً أكثرات أو احتراش ،
كانهم يشون على أرض سهلة مهيبة . لا خطر هنا بخش من
الخص أو قاطع الطريق . واشد الناس خطراً ممن يمكن أن يلتقيهم
المسافر هنا هم الجنود الذين وضعوا على الحامش في أثناء خصومات
لزعما وخلافاتهم .

ما أكثر ما عرضت لنا حفا في نائمة وأشجار نامية من شقوق

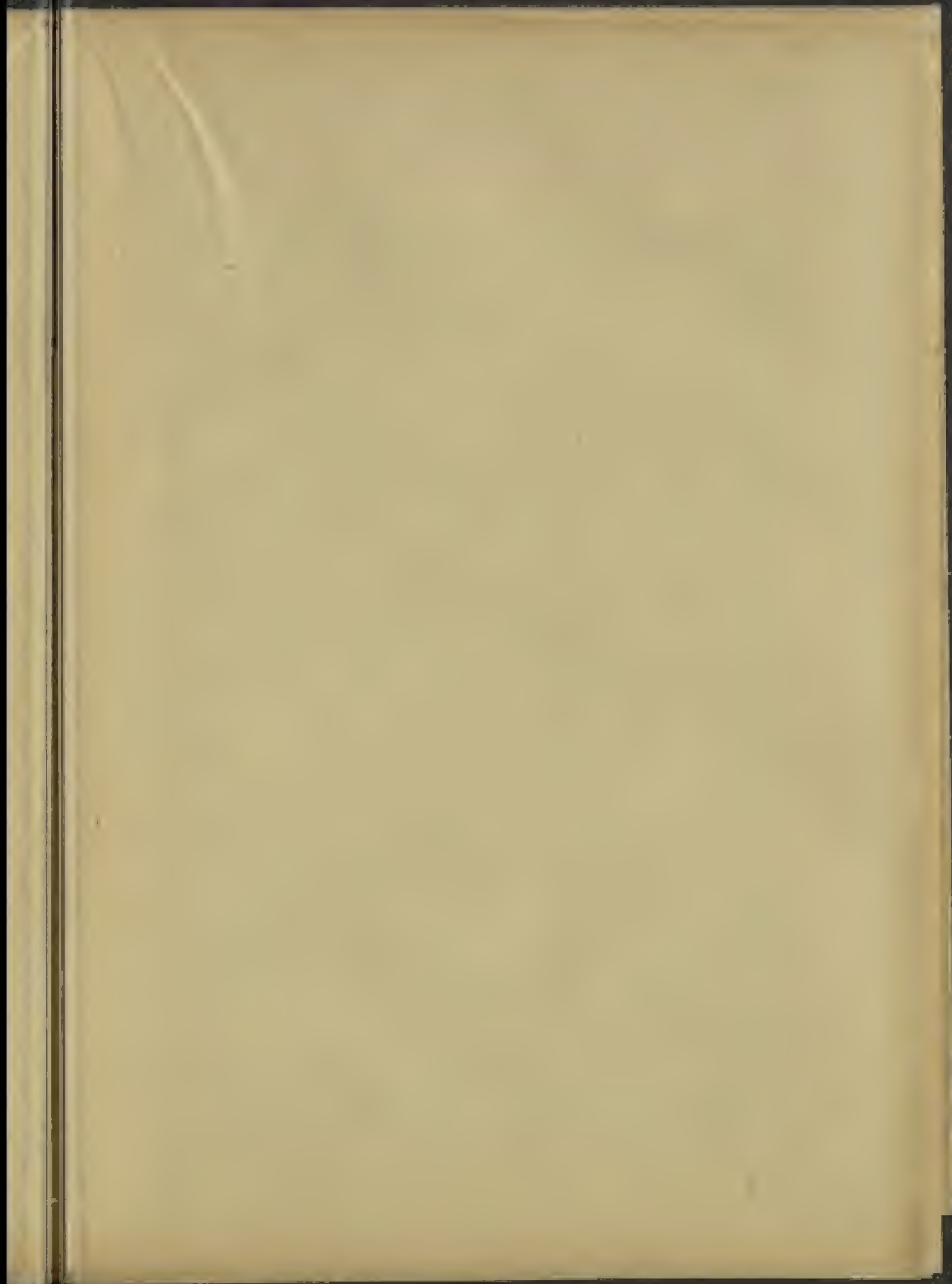
الصخر ، فدعنتنا الى وقفة نستريح فيها بضع دقائق فنأمل اللوحات
المتبسطة امامنا في اسفل ، والصفاف الغنية بالأشجار البهية عن
كل جانب .

لا خوف من نخبة الليل في الغاب او في كهوخ الراعي .
فمن اطيب صلات السفر في لبنان يقين المسافر انه في خاتمة كل
نهار يستطيع ان يعادف مأوى مضافاً مريحاً يأوي اليه . فهذا
باب دير من الاديرة الكثيرة جدير - ولا شك - بان يفتح في
وجه المسافر حيث يجد حجرة نظيفة ، وبيئاً له فوراً طعام مجدد
للفشاط دسم متوفٍ لتخلله خمر الجبل . فاذا لم ينفق وجود دير
على مقربة ، فان منزل شيخ القرية المارونية لبس الحاجة ويكون
احبائاً افضل وآنس غب مسير نهار بكامله مسيراً مضطجاً فوق
الحلجان والطرق الوعرة . اما طعام الغداء فليس همّاً يؤبه له في
مثل هذه الرحلة ، اذ لا بد للمسافر ان يكون ابقوورياً نهماً حتى
يتوقف ويهيم اطعام غدائه في اوج سيره ولذذمه . ان كسرة
من خبز وزوجاً من بيض بارد غني قبل السفر يوفر طعاماً
صالحاً ويمكن تناوله في عرض الطريق او الى جانب ساقية جبلية
نقية دون ان يستغرق ذلك وقتاً لاعداده . وقد كان هذا الطعام
غداًنا اليومي خلال رحلتنا .

على الهضبة ، الى بين الصورة ، وأبنا نأراً استوقدنا نقر من
الجبلين الطوائف الذين لم يكن لقاؤهم بما يرغب فيه كل الرغبة .
ومع ذلك فان وهج نارهم كان يكون اروع مشهداً اذ ينعكس
في الليل عندئذ على حفا في الجبل . اما الآن ، في اوج الظهيرة ،
فقد اختلط هذا الوهج بالقي الشمس الخلاطاً ذهب برونقه واباحه .



منظر فوق وادي الدوابة



ورفع لنا على حافة الجبل ، الى الشمال ، دير معلق كوكبر
سمر ، مشرف من على اعماق الوادي القافة . فلو ان اشباح
العشب كانت ساعدت ترحف وتلمس لكان المسافر التمس هناك
مينا عن رضى وحشية خاطر . وباله من ميت غريب معجب
يقضي فيه ليله فيسمع اصدااء الاجراس تقضي ساعة مريحة فوق
القبعان . وقد ما هي مغربة موحشة هذه الدعوة الى الصلاة
والأمل حيث لا جماعة تلي الا السيول والكهوف والمهايط التي
تدث على الدوار ، والتوابل التي تخرج نصف الليل بعصف
الريح . قبل يكون هذا موضعاً للعبطة الدينية والعزاء والرجاء
نذرت كلها عبر سدول الزمن الى روغات اللاتهاية !

بالنسبة الى مزارع دمويّة وزهن حاد صارم ، يمكن ان يكون
هذا الدير غالباً عزيزاً ومضيداً لأفعاً ، كمنزل بأوي البهائم بين
المشاهد الحبيبة اليه والاصدقاء الاوداء في بكرة الحياة . على أن
اغلب الرهبان ليسوا على مثل هذا المزاج . والحياة في هذا الدير هي
على حد تعبير كاتب قديم « شبه بالضوء الخفيف الذي يصحب المسافر
قبل هبوط الظلام — ظلام القبر . ثم هي شبه بخيمة راح منفردة
لا مراعي حولها ، في دنيا يرى فيها الدبول والجفاف . »

ويكاد لا يكون مجال في هذه الزاوية لاجتهاد الرهبان الذين
يسوسون في الغالب مزارع الكرم والنوت ويبيعون نتائجها .
ان هؤلاء دائماً يسالين محرونة حريثاً صالحاً . ولربما اقام حتى في
مثل هذا المكان مطران من مطارن الجبل الكثر الذين يكونون
في العادة اهل دراية وتهذيب ومسلكت أبويّ وعادات واذواق
بسيطة ، فيؤلفون من وجوه عدة صورة اقرب الى الروح والحق

الرسلي من نظراتهم في كنائس أوروبا الأوفر ثروة . ويعصمهم
من الترف والغرور فقر ظاهر ، بل شيء أدنى إلى العيشة المقتصدة
اللائقة . كذلك تفصلهم عوائق الجبال من تجربات العالم ومغرباته ،
فلا يسمع على أبوابهم دوران عجلات العربات . ولست هم
اتصالات أو صداقات بين ذوي النفوذ والامتياز . ولا تعج
فغانهم أو تخفل موانعهم بمواكب من طلاب الترف في السلك
الأكاديمي ، أو من خطباء السلطة الاستغنية والنفوذ . إن
أريستوقراطية لبنان روحانية ، تنجلي في تنفيذ الواجبات الرنبية
تنفيذاً أميناً وفي الناس المباهج والمسرات بانباغ الدعوة المقدسة .
وما أقل ما لدى لبنان من أشياء يقدمها عدا ذلك سوى العناية
بأرض الدير وموارده والزبارات للرعية الموزعة وكنهتها ، ثم
الانصراف إلى الدرس في مكتبة الاسقفية القديمة .

أفليست مثل هذه الحالة مجلبة سعادة ، إذا كان رائد صاحبها
الغناغة والضمير الهادي والتقوى الوادعة السامية ؟ إن الإنسان
الذي يحظى بحالة كهذه ، فيكون له القليل من العموم والتبعات
والاكذار الدنيوية ، وتكون له حياة نافذة مكفبة بقدر يمكن
معه من تنشيط عقله بالممارسة ومن امتحان صبره وإيمانه ، هو
إنسان يستطيع أن يطل من على أسواره الجبلية ببسة شكر
وامتنان ، لأن مستقره براء من خطر الأمواج والعواصف . ثم
أن هذا الإنسان ليس محروم دائماً عواطف الحياة البيتية
وما يشغفها من أمور غالية عزيزة . فالأسقفية الموارنة مأذون لهم
بالزواج مع أنهم لا يبيعون لأنفسهم دائماً المتعة بهذا الامتياز .
لا شك أن الكتب يخط بين الاسقف والكاهن . فالكاهن الماروني

وقد حصل كذلك في السنوات العشر الأخيرة ان نفراً من
الاساقفة الارمن ، يحضروهم حاضراً من تقدم الآراء والعواطف الحرة
حتى في لبنان ، خلعوا عنهم نير العزوبة والتخدوا لانفسهم لزواجا ،
وكان معنا كاهن جبلي راح يدل على الطريق فسمنا من جماعتنا
في المؤخرة . كان ، بقلنسوته وجلبانه وخيته ، يركب بغله الثابت
الافدام الذي ألف كسيته اجتياز المهابي والارضية . وكانت
صاحبنا في طريقه الى بيته ، الى الشجرة التي تظلل سقفه ، حيث
تنتظره امراته ، البينة قلبه ، في وسط قريته التي نقطتها رعيته له
ترحب بعوده راعيتها . ولعل كوخه كان وخبياً كأكواخ سائر
الفلّاحين ، لكن لم يحسن في تلك الضعة فقر ولا عوز ولا
حرمان . فهنا البستان الصغير المحروث حرثاً صالحاً ، والكتب
القلبية القلبية ، والاتات الحشن . وهنا محبة رعيته له - هذه الرعيّة
التي يعايشها معايشة أسرة واحدة كبيرة .

أفلا يمكن ، إذن ، الكاهن اللبناني ، حتى مع الاخطأ ، التي
تطوي عليها عقيدته ، ان يكون امرأً تقياً - معيداً ؟

وحده يجوز له ان يكون متزوجاً قبل قبوله سر الكهنوت . - انعرب .

١ لا نعرب عن بل القاري ، زعّة المؤلف . - انعرب .

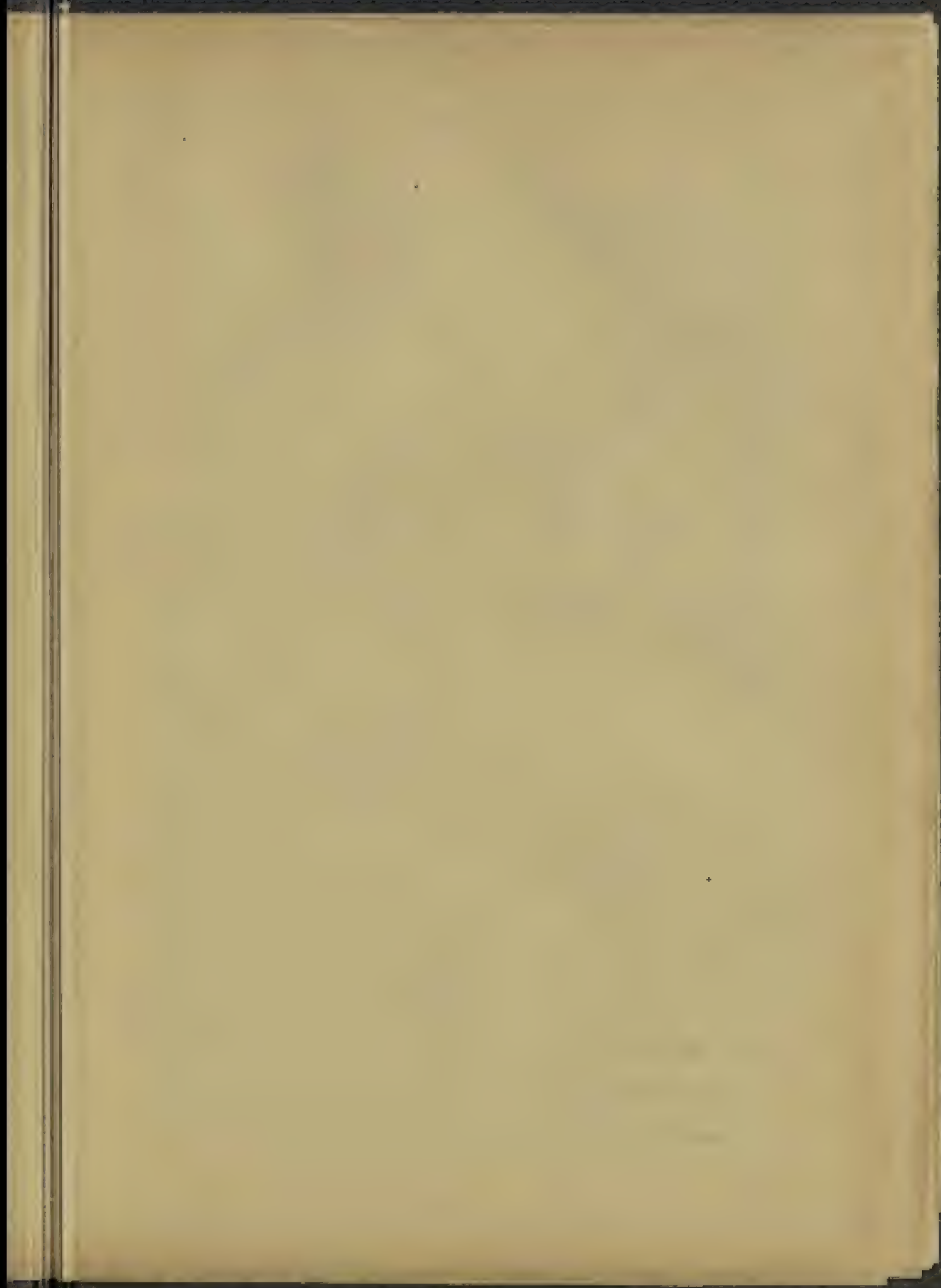
شجر الارز العريق في غاب لبنان

هذه طائفة من اعرق اشجار الارز قدماً ، على الجذع الضخم ،
الى يسار ، حفر كثير من السائحين اسمه ، ومن اقربها عهداً
اسم لامرئين للشاعر الرحالة ، وقد جهد في حفر اسمه بالحرف
كبيرة ... هناك قبيلة عربية تنزل الغاب احياناً ، وقد اتفق
وجودها في المكان يوم ان قام لامرئين بزيارته . ويظهر شيخها
مائلاً بين الواقفين . القبيلة مضياف ، عظيمة الخفاوة بالغرباء . اما
زيت نساها فهو ما تلبسه جميع مسيحيات الجبل اللبناني على
التقريب .

تؤكد التقاليد المروية ، ويصدق الاهلون ، ان هذه الاشجار
المسنة انما هي بنوة الغابات التي زودت سليمان بالحطب لبناء
افيكل منذ ثلاثة آلاف سنة . وفي كل عام ، يوم خميس الجسد ،
يقم الموارنة والارثوذكس^١ والارمن قداساً احتفالياً ، هنا ، عند
جذع اوزة على مذبح بيتي مشيد بالحجارة .
لا شك ان الاشجار هذه قديمة جداً . وتبقى قديمة حتى لو

١ ليس في علنا ان الارثوذكس يسامون في هذا العيد . العرب .





استقطنا من عمرها بضع مئات من السنين ... منذ قرنين كانت
عددها خمسا وعشرين . ولم يجد بوكوك ، لقرن خلا ، سوى خمس
عشرة شجرة . اما السادسة عشرة فكانت قد عصفت بها الريح
حديثاً . واما بركهاردت في السنة ١٨٠٠ فعدها منها احدى عشرة
او اثني عشرة . لكن لم يبق منها اليوم سوى سبع . وهي
بتقدير من عظم الحجم وضخامة المشهد وغرابة على الفناء حتى ليسهل
التحديق بانها كانت فعلاً فائقة في العصور التوراتية .

ان الشجرات التي تلتفت من خلال القرنين الماضيين انما تلتفت
بفعل الشبخوخة القصوى والانحطاط ، بينما اعانت الرياح ، التي يشند
عصفها احياناً في هذه المنطقة ، على افئلاعها ونهشها .

يقول بركهاردت : « أسن الأشجار تنهاز بان ورقها واغصانها
المدة الرفيعة انما تكون في اعلاها ، وفي الوقت نفسه تنبت اربع
فصلات او خمس ، حتى سبع فصلات احياناً ، من الجنب الواحد .
اما سائر الأشجار فيكون ورقها وغصونها الصغيرة ادنى ارتفاعاً .
على انني لم اشهد اشجار اوز كذلك التي في حدائق « كيو »
نس اوراقها الارض .

« وفصلات الأشجار المسنة مكسوة بجماء الساجين ومسائر
الزائرن . ويبدو على أسن الأشجار ان فصلاتها مينة حقاً ،
وخشبها مسوح مسحاً رقيقاً بلون الرماد . »

اما الشجرة الضخمة الى اليسر فهي التي يقول موندرييل انه
قامها فوجد مدار جذعها اثني عشرة بردة وستة فراريط ، كما
وجد اندى الذي تنشر فيه اغصانها سبعاً وثلاثين بردة .
ويشعب جذعها ، على علو خمس بردات او ست ، فوق الارض ،

الى خمس اخلاص ، كل ضلع منها تساوي شجرة عظيمة .
 والضمير الى هذه الاشجار صعبة ، يحيط بها الناح المتراكم
 على عمق كبير حتى يستحيل عبورها قبل منتصف الصيف ساعة
 يؤذن بالذوبان ، فضلاً عن وعورة الارض التي تغطيها الصخور
 والحجارة وتنت في انحارم بينها خضرة خصبة بديعة .
 ان مركز الارض على جبين الجبل ، تحيط به من كل صوب
 اودية عميقة رعية ، ومنحدرات صخرية يكاد يكون انحدارها عمودياً ،
 ومهابط شلالات ، وروماد فاحشة ، استطوي حفاً على شيء من
 القدسية والروعة ، فهذه هذه الاشجار كأنها نصبت في ذلك المقام
 الرائع الخطر ، لتكون ديبانسا بين الزمن والانهاية ، وشواهد
 تذكارية خالدة مفعمة حزناً فحدث بعد الفسكل الاول ، عهد
 كان الله يسكن بين ظهرائي شعبه في العهد المنجلي في السارويم
 وفي بركات الارض والسماء براعت حية . فقد غنى الزوال على
 كل شيء آخر : المبكى والمدنية واجبال البشر والكثيرة كثرة
 رمال الشاطئ . ودغبت عروش ودبابات وامارات وسلطات
 ذهب الرباح التي تصفر في انصاف هذه الاشجار ، وبقي الارض
 قائماً على جبين خالداً . لم ينقطع صوت انطلاق حتى اليوم
 ان يفتح هذه الاشجار بما يقضي عليها قام الفضاء . ان صوت
 الزمن ليخرس على هذا الجبين الضبابي ، شدة ما سمعت هذه
 الاشجار خفيف الجنبعة الزمن في اندفاعه والنباح ويغني ، لكن
 في الوقت نفسه لبثت هي مع كل فصل تورق ورفها وتفرع
 فروعها غامرة قوية كعهدا في ميعه الصبا .
 يبدو تخيلة الزاني القاعد على الصخر الاشيب الى جانب هذه

الشجرات امر سري ، ليصنعه بهيّا جميل ، في قنمة الريح السارية
 خلال الأغصان . فكان تلك النسمات انعام ففرية تنبعث من اوتار
 عود تنقره ايدي اموات طوام الزمن منذ اجل سحق ولا تزال
 ارواحهم تطيف . انت السامع ليعلم ان ذلك صوت لن يسمعه
 فيما بعد ، صوت يبدو انه ينطوي على نداء اللانهاية . ان الدوحة
 المجاورة لبنت المقدس ، وهي الجزيرة الجليبة التي ذبح في ظلها النبي
 اشعيا ، واشجار الزيتون المعمرة في وادي يوسف ، لتعجز ان
 تلازم الذاكرة كأرو لبنات ، هذا الشجر الذي امتزجت صورته
 بأكثر صور طفولتنا ، بالسقف والجدران والذهب الابيض والورع
 اول عيكل شيد لاله الحق وبهاء هذا الهيكل وجلاله .

وما أصدق كلمات حزقيال في اداء صفة هذه الاشجار ماضيها
 وحاضرها ، حيث يقول : « ارؤة بلتان بهيجة الاذان ، غيباء
 الظل ، شاححة القوام ... السرو ثم ياتل اغصانها ، والداب لم
 يكن كفروعها ، وكل شجر في جنة الله ثم ياتلها في بهجته ...
 وينزل من ظلها جميع شعوب الارض . » ولعل صوت النبوة
 قد سمع مراراً في اقباء هذه الشجرات المقدسة ، ومراراً امتزج اشجارها
 والصور التي تنيرها نيرات الالهام . فهل من كون في الطبيعة اقرب
 على الشاعر من هذه الاشجار ساعة تلوح للقضاء بسواعدها الشاححة
 في اهبان العاصفة ، او ساعة تتعاهد تعاداً غريباً الترانيم المارونية من
 جماهير الجائين حولها ؟ لقد ايمست اللمعة ، او التفت قلب الفصول
 غباض باقي الاوطان حتى اقدمها ، بما في ذلك غابات النخيل ، فخر
 مصر ، وادواح البلوط والشوح في افرايم والكرملى ...^١

١ استغنيا هنا عن عبارات مكررة لا تزيد ولا تنقص في المعنى . - القوم .

أما القبيلة العربية الصغيرة ، التي يظهر بعض أفرادها في
الصدرة ، فتقبل على النزول في هذه البقعة ، بعد إذ يدوب الثلج
في أوائل نوز ، وتقيم هنا طوال أشهر الحر . ومثل هذا المقر
عزيز محبوب في نظر شعب ساذج بدائي ، يتنعم فيه بتقسيم يحمل
العافية على اجنته ، نقي ملهم ينسم في هذا المقر الرفيع البراء
من كل أثر هذا الحر الذي يغلب في الأودية والأحاديث . ينصب
هؤلاء العرب خيامهم في الغاب ، يحبون حياة نصف وحشية . على
أنها تخلو من أخطار مثل هذه الحياة وعاداتها . وإن الغريب لبغى
منهم حفاوة في هذه المنازل المحشوشة . وتراهم إذا شب النهار
ينفقون الساعات الطوال مستظلين ظلال الارز ، فيما يتحاورون أو
يدخنون أو يفعدون ككالي . وترى بعض الامهات يؤرجعن
اطفالهن على جبل مشدود الى تلك الاغصان المقدسة ، كأن الامر
كرامة أو فضيلة أو قدرة على شفاء علة ما من على البدن .
ومن يدري ؟ فاعل الرجال ، شعور خرافي عندهم ، يجدون لذة
خاصة لا يجدونها في موضع آخر ، إذ يقنعون غصناً ساقطاً أو
جذعاً مقلوعاً ، يدخنون في فصيحهم الطويلة . يجب القول ان
اوضاعهم ونظراتهم ، مهما التفت وشرقيتهم ، ساعة يكونون في
هذا الكسل والاستغراق الحالم ، تختلف بعض الشيء من ذلك
الاستغراق الحاسي المصفي الذي يأخذ به الغريب الاجني ذاهباً
مع رؤاه ، مؤثراً ان يكون بفرده في مثل هذه البقعة ، على ان
يكون معرضاً لوعوة طفل أو لحظات مستطلعة متفرسة ترسلها
ام الطفل العربية الصبية .

مشهد عام للأرز

مقام هذه الأشجار النيفة منكشف انكشافاً شديداً ، على شفا
بحاور اشبهخ فية من قعم لبنان . يحيط الناج بهنـه الأشجار مدى
نصف السنة على عمق حمة اقدم . ويتعرض مكانها لأغلب رياح
الجيل وعواصفه . اما غابة الأرز الصغيرة التي تمثلها الصورة فتستل
على عدد كبير من الأرزات الحديثة السن التي يمكن الطواف بها
في نصف ساعة . يقول بوكوك : ان الأرزات الكبيرة تبدو
على شيء من البعد كأنها لوحات ضخمة منتشرة . فصلاتها قصيرة ،
تنشعب في أسفلها الى ثلاث او اربع ، ينمو بعضها اراء بعض
على ما يقارب عشر اقدم علواً ، فتظهر كذلك العمدة القوطية
التي تروح كأنها تتألف من حمة ركائز .

أعرق اشجار الأرز في بلادنا لا يرقى نارجها الى اكثر من
مائة وخمسين سنة . والمفروض ان شجرة الأرز تبلغ النضج في
اقل من ثلاثة قرون .

في مؤخرة الصورة تتجلى قعم لبنان البيضاء . ونحت الأشجار
الى بين عرب قد استوفدوا نارا ، ينعكس فيها على وجوههم ،
بينما هم متعلقون حولها في العراء . كذلك ينعكس بها الذهب بين

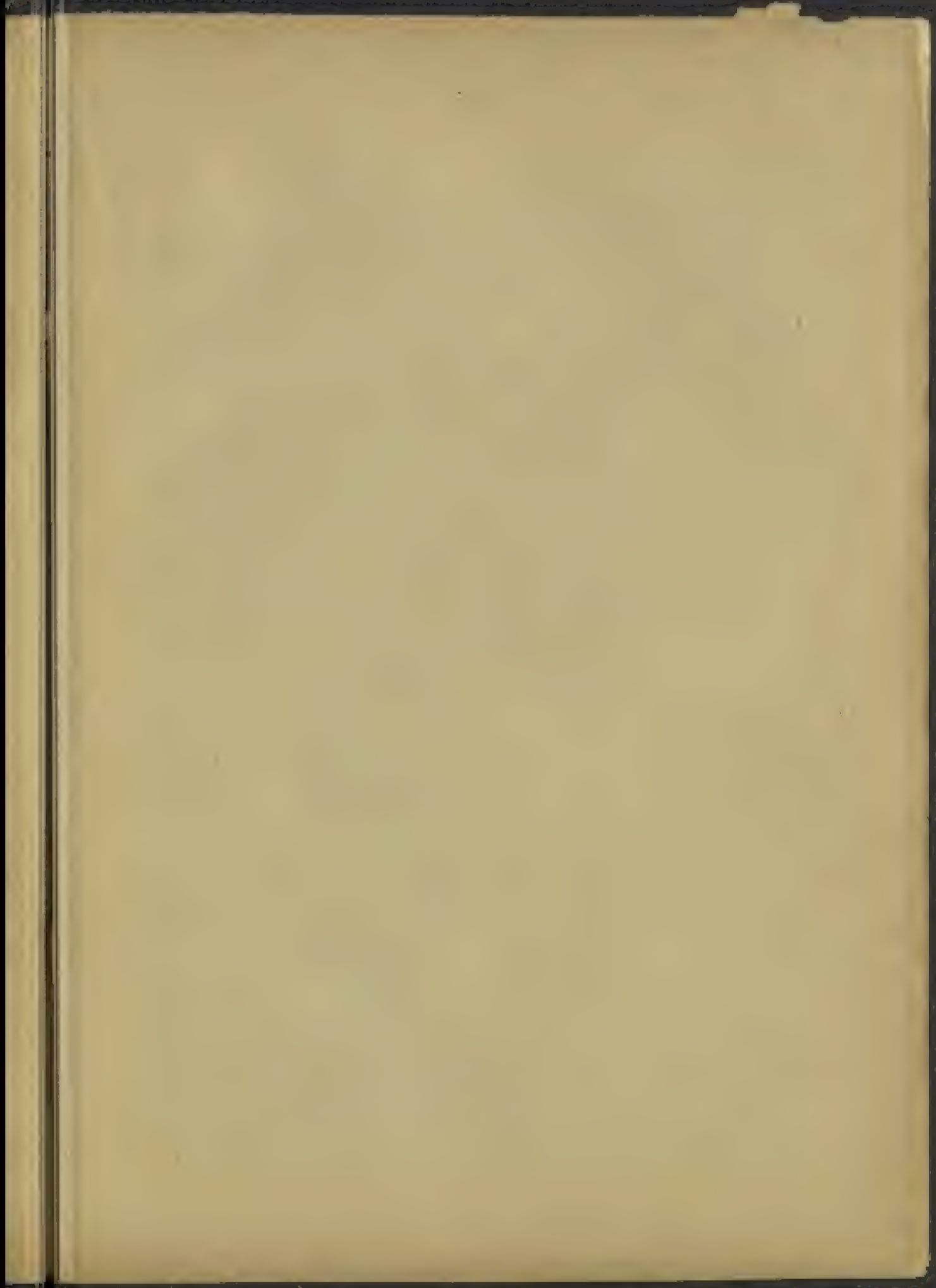
الفينة والفينة على جذوع الاشجار التي تبدو منتصبة كبعض العمود
الخرم في خرائب مصر ، يضرب البدو خيامهم حولها في الصحراء .
لم يكن البتة خطر من ان يشب حريق في ناحية من نواحي
الارض ، حريق يحمده شرر منطائر او رماد مطلقاً نصف اطفاء .
ذلك بان العرب يحترمون هذه الاشجار احتراماً ينطوي على خرافة ،
فهم يؤثرون ان يسعروا النار في منازلهم على ان يسري الحريق
الى احدى هذه الشجرات .

يقول الاب دنديني : « اطلقت لشاهدة هذه الاشجار وهي
تدعى القديسات لتقدم عندها . ويرغم انها قليلة ، فان حصر
عددها بالضبط مستحيل ، مما يعتبر من معجزاتها . وقد عُدت
ثلاثاً وعشرين شجرة ، بينما عدت واحد من اصحابي احدى وعشرين
وحسب . ووجدت الناس لا يبتدون الى هذه الاشجار يداً بالقطع
اصنع الالواح . ويؤكدون ان جماعة من الترك كانوا يرفعون
ماشيتهم في ذلك الجوار ، فبلغت بهم قلة التقوى وفضاظة القلب
ان قطعوا احدى هذه الشجرات القديسات ، فعوقبوا فيما بعد بقلة
ماشيتهم كلها . وهنا يناح المرء ان يشاهد كذلك ينبوع نهر
يدعوه الاهلون النهر المقدس ، لانه لما ينبع من الجبل الذي ينمو
عليه الارز القديس ، ينبع من موضع لطيف منجذب ، وينحدر خلال
الوادي سواقي صغيرة منمنية بين حجارة الصوان . »

بند الصعود من اهدن الى الارز نحو خمسة اميال ، بما في
ذلك تعاريج الطريق للموعدة جداً في ثلثها عبر الوهاد والغضاب .
اما الوقت الذي تستنفذه الرحلة فينوقف على فصل السنة . وقد
لبث الامرتين ثلاث ساعات على الطريق في حزيران ، ثم لم يستطع



342



إلا إن يتأمل الأرض مغمورة بالتلج على بعد بضع مئات من
اليودات .

يقول أحد الرحالة : « أول ما بدت لنا أشجار الأرض
نقطة سوداء على الجبل ، ثم بدت كأنها دغل من الشجيرات
القرمزية التي لا جلال لها ولا جمال . ثم بعد حوالي الساعة والنصف
وصلنا إليها . إنها أشجار ضخمة سمكة جميلة ، أبدع ما أنتجته دينا
الحضرة . في هذه الغبضة جيلان من الأشجار ، أكبرها سناً ضخمة
جبارة ، ترسل رؤوسها إلى علو شاهق ، وتنتشر فرووعها على مدى
واسع . »

أما شجرات الأرض الصغيرة في هذه الغبضة فلا يسيل شيزعها
من الضويز ، فهي تشبه جداً . ويستيقن المرء من ذلك إذ يجد
بضع صنوبرات بينها . يحمل جداً في الزمن القديم أن الأرض كان
ينتشر فوق الجبال والأودية إلى قريب من قرية لعدن التي
اشتهرت عهدئذ بأنها أقدم لأبدع الأشجار . فالغابات التي استطاعت
خلال جملة من عصور أن تقي بالخناجات العظيمة إلى خشبها لا
شك أنها كانت تغطي مساحة رحبة من أرض ، ولا شك أن
الشجارات كانت متلاصقة على ما هي عليه اليوم .

والأرض من هذه القصبة معدوم وجوده في سائر أنحاء لبنان .
فهو إذن منحصر في هذه البقعة المنكرسة له . أما أشجار الجوز
والتوت والسنديان والصنوبر فموجودة في الجبل كله . وعلى
حاشية الجبل ، مما يحاذي السهل ، توجد بين الفينة والفينة
شجرات السرو الجميلة الكبيرة بقدر حتى تتظلل بأغصانها فافة
صغيرة : ثلاثين رجلاً مع الجبل والجمال .

اما العرب الذين استوفدت منهم جماعة ناراً كبيرة تحت
الارزة ، فكثيراً ما يظهرون خلال اشهر الصيف يطوفون لبنان
في طلب المرعى ، يمشون باشبثهم اجلاً في البقاع الحصبه ، ثم
يقومون اطنابهم في طلب مرعى جديد .

وبشبه بعض اقاليم الجبل اقاليم الالب . العشب يحسوها
والبنابيع الموقورة بالاضافة الى الانداء الغريزة التي تقع خلال
اشهر الصيف اذا نبت نباتاً اخصب واحق لون خضرة من النبات
في البقاع الاقل حظاً .

يقد العرب على هذا المكان ، يطوفون نحواً من خمسة اشهر في
العام ، ثم ينحدرون شتاء الى الاودية غير المكشوفة او المعرّضة . وهم
يمضون الشتاء على شاطئ البحر حوالى طرابلس وطرطوس . يقول
بركهاردت : « شدا ما عجت ان ارى على هذا العلو في الجبل عدداً من
الجمال والاكوخ العربية . ومع ان هؤلاء القوم يعيشون كالبدا ،
ليس لهم منازل فارة ، فان ملاحظهم ليست بملاصع البدو الصحيحة ،
وفجتهم على كونها تختلف من فجعة الفلاحين ليست بلهجة بدوية صافية .
هم يدفعون الضرائب للولاة الاتراك . وهم على سلم وجميع شعب البلاد .
لكنهم موصوفون بالليل الشديد الى البرقة . ولا يملكون عدا
الجمال سوى الحبول والابقار والاغنام والماعز . » فالعبارة
القديمة : « يا ساكن لبنان الذي يبني عشه في الارز » لا تنطبق
اليوم الا على هؤلاء البداء الطوائف ، او على هذا الشيخ
وقبيلته الصغيرة التي تقبل صيفاً فتخيم في ظل هذه الاشجار .
وقد طال مجلسهم جداً حول طعام قشفت ، فيما هم متعلقون
حول نار تمونها الغاية بالوقود . ثم نهض بعضهم فجعل يمشي

بين الأشجار هي الجلابيب الفضفاضة الحشنة والعماثم .
 ولكن أحد المرسلين رأى مشهداً من نـيران كثيرة على
 قمم لبنان ، فكان ذلك أبديع وأروع . قال : « استظفنا ، ونحن
 على الشاطئ ، بين صيدا وبيروت ، أن نشرف على منظر بهي من
 الآلات التي تثار على الجبل عشية عيد الصليب . فلاح لنا من
 الشمال إلى الجنوب معرض أنوار صفت على شكل هلال وطففت
 تزداد بهاء كلما اشتد زحف الغمة وتكاثفها . وكان بعض هذه
 الشعل يرتفع فوق الأفق على علو كبير ، يظهر من مدى ارتفاع
 الجبال العظمى . وقد عددت خمسين شعلة كبيرة أضرمتها الأديرة
 والكنائس . وبالطبع ، أن مثل هذا الاحتفال يجري في جبال
 لبنان كلها من طرابلس إلى صور إلى مناطق أخرى . فبالطبع ،
 لم يكن اطلاعنا على هذا المشهد سوى اطلاع جزئي . فيمكننا
 إذن أن نعتبر أن عدد الشعل التي أوقدت لهذه المناسبة لم يقل
 عن خمسمائة .

١ الآية شلة فار كبيرة . وهي ضيعة عامة ، ويلفظها العامة « آيلة »
 بألف اللام . - المغرب .

قرية برومها^١

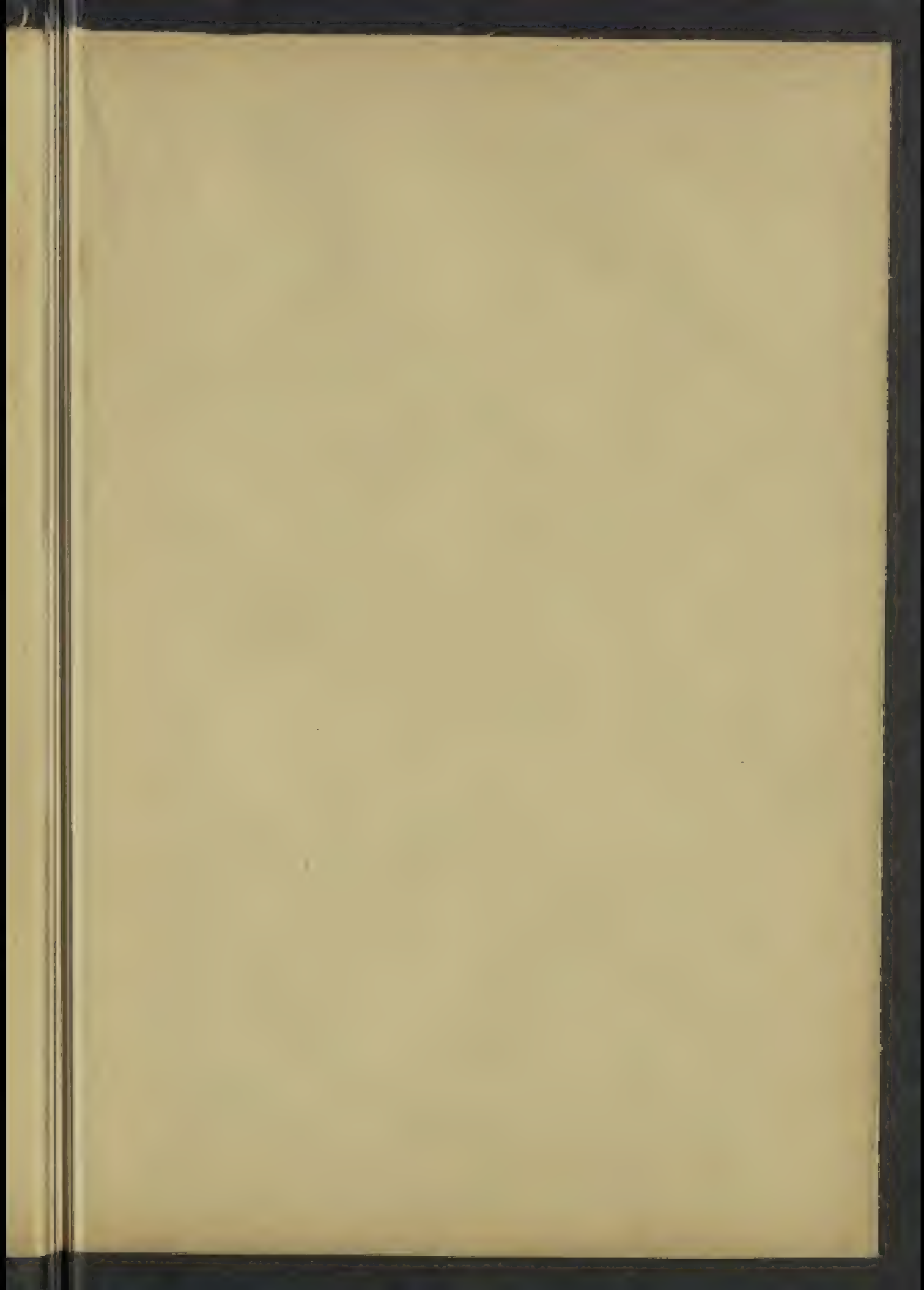
تعرض السفر في جبل لبنان صعوبات تمتحن صبر المسافر
امتدحاً قاسياً . فقد نكحون المسافة الى قرية او دير نحواً من
بضعة اميال على خط مستقيم . لكنها في الغالب تطول بكثرة
انعراجات الطريق حتى تستغرق من ساعات او سبعا . فاذا
المسالك تلتف وتدور حول سفوح الجبال ماضية عبر الاودية
الطويلة بغية قطعها عند اطرافها . ثم نضي هذه المسالك مصعدة في
الاكبات خلال منافذ ضيقة او درجات مقدودة في الصخر يستحيل
السير عليها إلا للبعال .

غير ان المسافر ، بعد اذ يبلغ النقطة التي يتوخاها ، يطل
على مشهد رائع بديع ، ويفتشق الهواء النقي العذب ، وفي
احيان يستطيع بصره ان يعانق ثمانية عشر ديراً او عشرين .
ومع ان مشاهد لبنان اقل روعة من مشاهد جبال الالب ،
فلا بد من القول ان منظر البحر المتوسط الذي يقارن
بقاع الارض اللبنانية انما يضيف الى جمالها جمالاً عجيباً ، فتراه

^١ هجاء المؤلف بالانكليزية : Brumhana . والارجح ان المقصود هو القرية
البنانية المعروفة باسم ربحالا . - العرب .



1871



يفصل قدم السفح او حاشية الغاب ، يتألق نالقا بعبداً خلال
منفرج الوادي الطويل او من على جبهة الجبل ، او مصطبة
الدير .

ان الطريق التي تتجلى في هذا الرسم هي الطريق من بيروت
الى دير القمر . ويقول الفنان الذي نقل بامانة واتقان هذه الصور
السريعة من شتى مشاهد الجبل وسوربا ان هذه الطريق من اجل
طرق لبنان وأشدها جسارة وتحدياً . ولقد أخذ هذا المشهد في
غاب من شجر الصنوبر يهبطه المسافر بعد اذ يدخل اول سلسلة
مرتفعة من الجبل .

وهذه القرية مارونية جافة على سفح المهاوي الجرداء ، على
حاشية منحدر غابي يتدنى الى واد ضيق عميق القرار . وقد وزعت
الاحجار فيها توزيعاً سخياً بسين المنازل ذات السطوح الملسوة
والنوافذ الصغيرة المظلة على المنحدر . ويبدو الى يسار الرسم
كنيسة القرية الصغيرة .

ان هذه الطريق نموذج حسن من الطريق التي تمتد بين
بيروت ودير القمر ، فتستغرق تسع ساعات ركوباً . وهي ليست
بالطريق الرديئة ، مع انها قليلة التعميد . إلا ان الامير بشير
اشتق طريقاً جديدة ، على مدى معظم هذه المسافة ، ليسهل المواصلات
بين بيروت وعاصمته وقصره . تعترض المسافر عليها مزارع
واكواخ واديرة وغابات تغطي على الرحلة تنوعاً في المشاهد
وحياة وثائيراً يؤنس نفس المسافر ولا يوحشها .

ويظهر على الفلاحين هنا طابع استقلال وصراحة ، لان
حكومتهم ليست بالظالمة . وليس في بيوتهم فقر شديد . فان

صناعتهم وجهودهم تضمن لهم كفاية حاجاتهم وكثيراً من طبيبات
الحياة . وهم في المألوف اهل لطف ورقة في استقبال الغريب
الذي لا يعدم الفرصة اذا هو اراد مبيت ليلة تحت سقف واحد
منهم . فتوقد له النار بالخطب ، ويجهز له على الموقدة ، وتبذل
القهوة والشار والبيض والجبن والدجاج ، على كون هذه الطبيبات
لا تعطى ولا تؤخذ مجاًناً .

وهواء قرية برحمانا صحي شديد النقاء . وهي متوسطة في العلو
بحيث لا تعاني قسوة الشتاء في المناطق الاشد علواً . عدا ان
المرتفعات المحيطة بها تقيها بعض الرياح العاقبة .

يقول احد الرحالة واصفاً هذه الطريق : يبدأ بعدد المسافرين
في الجبل تراه يصادف محطات نظيفة تباع فيها القهوة والشار ،
محطات تدعوه الى التعرّيج فالراحة تحت ظل شجرة من الاشجار
الفارعة الاغصان . وقد مرنا نحن حوالي ساعتين فأقضيها الى ينبوع
تبرتنا بمائه . وعلى مقربة منه كوخ قدم لنا صاحبه بعض المنعشات .
ثم استأنفنا التعميد في الجبل خاربين ناحية الجنوب الغربي الى
جانب سلسلة من الهضبات مملأى بالرياحين في مبعده ازدهارها .
ومشينا خلال مغارس الزيتون والتوت والجوز نعرش عليها دواهي
العنب ملتفة حول الاغصان او متدلية . اجرة قرينين هما عين
العشب وعين العنوب ، فبدأ لنا الفلاحون منهصكين في الشغل
كل الانهاك . ثم انحدروا الى واد عبر طريق رديئة يكاد يكون
اجتيازها مستحيلاً ، حولتها غزارة الامطار وشدة وطء البغال
وانسافرين الى مهايط درجات عميقة . انتفى وقت قصير وجدنا
فيه المشهد قاحلاً والاشجار على بعد بعيد عنا . غير اننا لم نلبث

أن وصلنا إلى سلسلة تالية من الجبال وجدنا عندها زرعاً . ومضينا
نحوس خلال غابات الآس وأحراج الشوح والكستناء والتفاح
البوي لتغذي من ثم إلى نهر الدامور الذي اجتزاه على جسر من
حجر بني فوقه . وهو نهر سريع الجري ، مندفع في مجرى
كثير الصخور . ثم صعدنا مرة أخرى في سلسلة عالية من الجبال ،
أشرقنا من ذرى قممها على منظر بديع رحب يتناول المتوسط
والشاطئ اللبناني . إلا أن الطريق لم يلبث أن دارت بنا حول
الجبل شطر دير القمر .

يقع شطر من هذه القرية على الكنف الأخرى من الوادي .
وعلى القمة ، إلى الجانب الأعلى ، بناء هو فيما يبدو دير من
الاديرة . وإن كثيراً من الأبنية الرعائية يقع في أشد المواقع
افقاراً وعزلة . إلا أنه يكون كذلك في أنبل المواقع وأجملها .
فاذا اخترنا مثلاً البناء اليسومي الشير في عينطورة وجدناه متراً
تنزيل الاسفين بين الصخور القاعة فبأما عمودياً . . ورأينا شبه
بحصن في خصرة متعذر يقع على ثلث الطريق صعوداً من سفح
الجبل إلى قمته . لكننا لا نلبث أن نتساءل : كيف نسير
الوصول إلى هذا الصرح ، أعبوطاً من فوق أم صعوداً من تحت ؟
ويصعب علينا الجواب ، إذ لا يبدو أثر الطريق ما .

وكذلك دير بزمان بناء جدير فخر . والقاعة الكبيرة فيه ،
قاعة الديوان ، تعد في سوريا أوسع غرفة وأروعها أثاثاً في أيما
منزل مسيحي . وهي في الصيف رطبة باردة مبهجة . على أن
موقعها فوق تلك الشعفة الشائخة يعرضها في الشتاء لزيارة العواصف
والصواعق المائلة ، ويسرّبها بجلايب كثيفة باردة من الضباب .

ويشهد الجدار المشقوق شقاً كبيراً في طرف هذه الغرفة بارئ
الرهبان انما يتعرضون لخاوف عظيمة خلال العواصف الجبلية .
وقد لبث شهرين في عينطورة حديقاً للكاتب اراد درس اللغة
العربية التي يثقها بعض الآباء اتفاقاً حسناً . على انه لم يكن
اثيراً عند اهل الدير لانه كان يجهر بأرائه الدينية جهراً جراً
ويصرح برغبته في بث هذه الآراء في لبنان . فقرضت عليه
حرمانات شديدة ، مثلاً : ونجدة واحدة من طعام في النهار .
وانما لوجبة ضئيلة بحيث كان صاحبي ابدأ نجف جائع ، لا يذوق
لحماً ولا خبزاً . ومما اكثروا ما كان يلجأ الى الصخور خارج
السور ، ليخلو بنفسه الى الدرس ، حريصاً على نسيان قسوة
البشر ووحشة المناظر ، مستغرقاً الاستغراق كله في دونه الحبيب
حتى ينبيه جرس الدير الى وجوب العودة . بالطبع ، كان يفكر
افكاراً مرة اغلب الاحيان ، لان الآباء لم يكونوا اصدقاء اوداء
له برغم استعدادهم لان يساعدوه على اتقان العربية . فكان يقبع
لبلاً في حجرته على سراج يضيء في وحشة ، بينما يضعف بدنه
ويجزل اذ هو يلثم التهاماً لغته العربية التي تقدم فيها تقدماً فذاً
سريعاً . كاد غذاؤه وعشاؤه ونومه ان يكون هو اللغة العربية .
فلما عاد الى بيروت كان صاحب الوجه نحيله ، يلبس بدلة مدعوكه
وثياباً لم تعرف الغسل في الدير . لقد كان حديقي حساساً غبوراً
مندفعاً ، فكانت سيرته فيما بعد ملأى بالتجارب والمغامرات
والحرمانات . وهي سيرة لا شك انه كان مديناً فيها لدروس
الصبر والاحتمال التي نعلها في عينطورة .

خان وجسر

على مقربة من منبع نهر الدامور

يقع هذا المشهد الرومانطيقى فى الطريق بين بيروت وبيت
الدين على بعد ساعة من قصر الأمير بشير - الأمير الدرزي الذي
أنتم فى الأعوام الأخيرة صنع القسم الأعظم من هذه الطريق
الجبلية الملائمة للمسافرين ... إن الوادي الذي يجري فيه نهر
الدامور لمعبق ، تنحدر إليه الطريق المذكورة فتر عبره . أما
الجبل هنا فمكسو بشجر الصنوبر البديع . وقد هبط السائح هذا
الموضع من مواضع الراحة البليدة الباردة ، على مقربة من مياه
نهر الدامور عند رأس منبعه . والدامور ، هذا ، نهر يجري
متعرجاً ، يقوم فوقه جسر حجري . وألقى إن الوادي فى بقاعه
كلها يبلغ الغاية فى رومانطيقية مشاهدته : أديرة وقرى وما أشبه ،
تحتل أبدع المواقع . وإن الانتقال فوراً من قصر الأمير الفوي
القاسى ، الذي طال ترمسه بالتقلبات والمطامح المظلمة ، على هذا
المنعزل الموحش الهادئ . الأمر يعتبر مصداقاً لأبيات شيلو :

آه ! ما أفضلها وأوفرها بركة
حالة من يقيم فى طمانينة واديه الأمل

بعيداً عن شبكة الحياة في تطورها العنيف
رافداً كأن طفل على تدي الطبيعة !
اني لأنتزع على منازل الأقوياء بحزن وتفجع ،
منازل تشق اليوم شاححة فوق الأرض
مستنزئة بالشمس . على أنها غداً - وا أسفاه !
سينساها ، فلا يذكرها السكان الذي فيه تقوم .

رغد ووثير مضجع ، يوقب فيه الغريب
الذي اختار البعد عن موج الحياة الصاخبة
بتصبة جاهدة في آت ، فامتزل القاطر
في كهف الصومعة العميق الساكن .

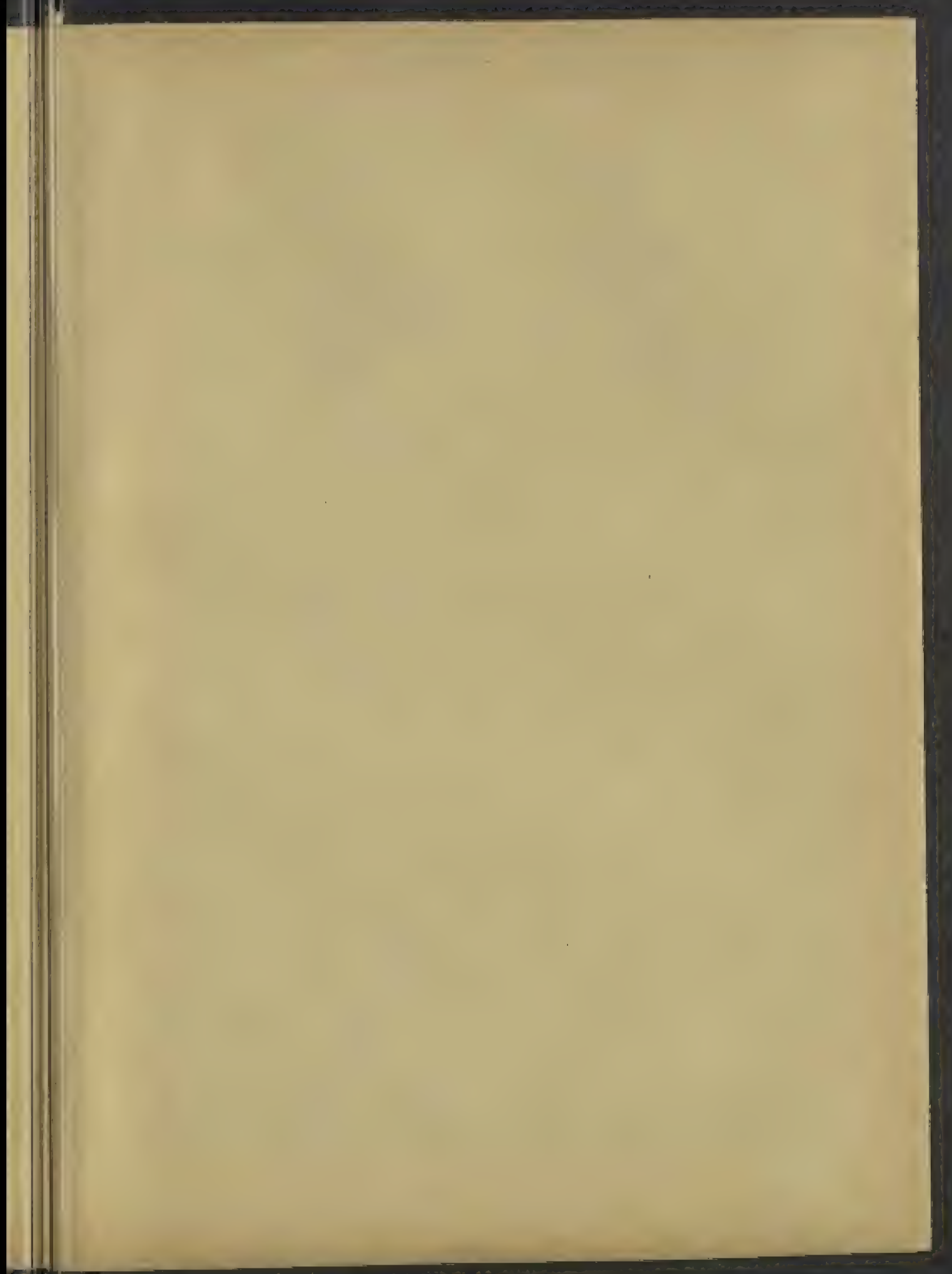
وكبت الأفكار الطامحة التي لا تنفض فينا إلا التلعصنا ،
كبتها بارادة وحداثة منكوبة .

ومعهده بين جوانحه الحادثة حتى العلمات واستراحت
تلك الرغبات العائنة التي لا تنفك تطوح بنا وتغررنا !

ينفق أحياناً للمسافرين المزودين بالخيام الخالصة ان يؤثروا في
هذه الرحلة اللبنانية المبيت تحت تلك الخيام على دخول بيوت
القرويين . لكن لا شك ان جانب الموقف والترحيب الجلي الذي
يبدر من الفلاح والمزارع هما ملاذ أوفر حظاً من الراحة .
ظروف الناس هنا على وجه العموم ظروف رخاء ، بل ظروف
استقلال واستغناء . البيوت مبنية بالطين ، وهي تشتمل عادة على
جملة من غرف . أما السقوف فأنها دائماً مبسوطة بسيطة ، مغطاة

山崎山崎山崎山崎山崎





بالتراب ، ينبت عليها العشب والزهر البري . ولكن الثلج في
 الشتاء ينفذ خلال هذه السقوف او يضر بها ، لولا ان الاهل
 يحرصون كل صباح على إزالة الثلج الذي ربما وقع فتراكم ليلًا .
 وهذه الاكواخ والبيوت ، مع ما يحيط بها من مزارع التوت
 او يظلمها من عرائش الكرم وشجر التين ، مناظر على جوانب
 الجبل مغربة الصور . ويفيض ضوء الشمس الباهر فيسبغ مسحة
 من البهجة على الجبل والوادي والقرى ، ويضفي الجود والروعة
 على هذه المباني الترفه - مباني الحضرة والاجتهاد والحرص
 والاعتناء . وفي بعض القرى العليا ، يلبس الناس على الرأس
 لفات بيضاء ناعمة ، كما تلبس النساء مناديل زرقاء . وطباع
 الاهل مكرزة على الاحترام ، وتبلغ اجاباً ان تكون مهذبة
 دمت . وقد دعانا احد اللبنانيين من ذوي اليسار الى وليمة نحن
 واثني او ثلاثة من الاصدقاء . ولكننا ابنا قلبية الدعوة لعلنا
 بما سبكه الرجل في هذه المناسبة من عشاء ونفقة ، لولا انه
 ألحّ ولولا اننا خشينا ان نسيء اليه اذا نحن ثابروا على الامتناع .
 وانقضت بضعة ايام تهيؤاً واستعداداً ، فجيء بالقنيس واتي
 بالسمك من الساحل وبيع بعض الخمر اللبنانية المنتقاة ، ومعها شئ
 الثمار حتى الحلويات العجيبة التي يعالج امرها الشرقيون معالجة
 رديئة . لكن مها يبدؤ منزل الشيخ مبهجاً مضافاً في خاتمة نهار
 مضجر منعب ، مها يفرح الغريب الذي لا بيت له اذ يتبوأ مقعد
 الشرف في منزل مضيفه ، بينا تندلع النار وتعصف الريح في
 خارج ويخشد الليل سريعاً ، فان الفرق بعيد بين منزل متوف
 في بيروت والضباقة تحت سقف جبلي .

جری كل شيء على نحو ما توقعنا . كانت الولیة غنیة
منوعة بالقیاس الى الفئة القلیة المدعوة . إلا ان الترتیب كان
ردیفاً واحداً غریبة . حلق الخدم الكثیر یتراحون ذهاباً ایاباً
من الغرفة التي نحتلها ، شأنهم في ذلك شأن الجنود اللبنانيين في
تجمعهم . وكان السقف دانیلاً والوافد صغيرة والنهار مضرباً
كثیف الهواء ، وغالباً ما كان يتصاعد البخار من الصحون الجلیبة
كمبور سجاة رقیقة .

ولم یكن صاحب الدعوة في هذه المناسبة مطمئناً في مقعده
على رأس مائدته . في المرة الأولى التي يدعو فيها اوروبيین الى
الغداء . وكانت اولامره المستعجلة التي یصدرها الى الخدم مضحكة
احیاناً في ترکیب عبارتها ، وكثیراً ما كان هو نفسه لا یفهم
معناها . وحضر الدعوة جملة من اصدقاءه ، لكن الحديث معهم لم
یكن شیئاً ممكناً ^١ . ثم انتهى الغداء فلم تصدح موسیقی ، ولم
یطالع علينا في القاعة قصاص ییت في آخر حياة باساطیره الغریبة
واختراعاته . إلا ان حادثاً مسلباً جداً ما لبث ان وقع .

كان بین المدعون راعب مارونی یعرفه صاحب الدعوة . لم
یتكلم إلا قلیلاً جداً خلال تناول الطعام . يدل مظهره على انه
رجل هادی محترم . فساعة كانت تقدم الخوی ، دخل راعب
ارثوذكسی ساحة المنزل . ولعله كان صدفة یتنزه في الجوار .
ودنا من الشباك وربنا جذبت الروائح المشیبة او قضیة شغل
بسیط بینة و بین أحد الاشخاص في داخل المنزل . فما وقعت عين

١ المقصود ، على الأرجح ، أنهم یحاولون اللغة الاجنبية . - العرب .

الماوروني عليه حتى نطق بلفظ يدل على الصكراية ، ونهض عن
المائدة يأمره بالانصراف . فاحتمل الارنوذكسي احتداماً بدا على
قسمات وجهه ، لما سمع كلمات الماروني المبهمة . وزاد في احتدامه
انه كان صائفاً ، بينما الرابع الماروني قد اكل شبعه وتلاوات
حذفناه مرحاً وتحمدياً لكثرة ما شرب . فعقب ذلك تبادل عفيف
في الجدال والمشاحنة ، وارتفع صوتهما فوق اصوات الجميع . ولم
تورعا من تقاذف الشائم والقدح في وجهيهما . ثم اوشكا ان
يصيرا الى الملاكمة ، وهو مشهد كاد يكون غريباً جداً ، غير
ان اخدم حالوا بينهما واقنعوا الارنوذكسي بالانسحاب .

ان الفراغ الذي يهبط على عقل الضيف في مأدبة شرفية هو
فراغ هائل ، فليس هناك ما يمنع الحبال او الحس الا حفيف
الشجر ، او انهار مياه النافورة ، او رائحة غليون التبغ . اما
اصوات الطبل والمزمار السوداني او التركي ، فلا تلبث ان تنبأ
الاذن كما تفل العين حركات النباتات الرافعات سواء بسواء . وليس
في المأدبة الشرفية لساء حاضرات . والشرفي على وجه الجملة رفيق
خوة شديد الاضجار . فاية مواضيع يمكن ان تكون مشتركة
بينه وبين مضيفه لا هو لا يستطيع ان يتحدث عن الكتب
والفنون والعلوم . وهو يابى الحديث عن ايمانه او حبه . على
انه يتحدث عن السياسة ، لكن يجمل اوروبا جهلاً عظيماً ، يجمل
مواقع بلدانها ومناخها وطبائع اهلها . ولذلك لا يلبث ضيفه ان
يرحب ترحيباً حاراً بتلك الساعة التي يسأله فيها مودعاً مزوداً
بالسلام والبركة .

لكن يصعد المسافر عن يسير الدامور الى رأس الطريق ،

لبغبي من ثم الى بيروت ، سرعان ما تقع عيناه على غابة جميلة
 من شجر الصنوبر . وان المشاهد كلها ساحرة على هذه الطريق
 من بيروت الى دير القمر وفصر اميرها في بيت الدين . وبين
 جملة الاديرة في جوار هذا الموقع ، وعلى بعد ساعتين منه ، دير
 مار يوحنا المشهور بطبعته ذات التاريخ القريب الطريف . يبلغ
 عمرها نحواً من مائة سنة ، وإليها يشير فولني Volney فيقول
 انها المطبعة الوحيدة التي صادفت نجاحاً في الامبراطورية التركية .
 يقول فولني : « لم يصادف الجزويت الا في مستهل القرن الثامن
 عشر ، في مؤسستهم التي اقاموها في حلب ، شيئاً من الحماسة
 للعلم الذي حملوه معهم الى كل مكان نزولهم . لكن في سبيل هذا
 الهدف ، واهداف اخرى ، كان ضرورياً ان يلتفتوا انفسهم مبادئ
 العربية . على ان انفة الفقهاء المسلمين منعهم اول الامر ان
 يفتحوا كنوز علمهم لغير المؤمنين . الا ان بعض اكياس الدرام
 تغلبت على هذه العقلية . وكان التلميذ المسيحي الذي احرز لنفسه
 اكبر الميزة في تقدمه في هذا الباب يدعى عبد الله التياكرا .
 كان محباً للعلم حباً خاصاً ، يجمع الى ذلك غيرة شديدة في سبيل
 نشر معارفه وآرائه . فلم يطل به الوقت حتى بذل اعداؤه
 المساعي في اضطهاده لايقاع الملكة به . فاستصدروا من السلطان
 « خطي شريف » او امراً يشتمل على حكم بقطع رأس عبد الله .
 لكن لحسن الحظ تلقى تنبيهاً في الوقت الملائم ، ففر الى لبنان
 حيث اصبحت حياته في امان . وزادت حدة حميته بما اُلهبهم
 ١ « Taker » كذا وردت تهجئة اسم في الاصل الانكليزي . والصحيح
 انه : عبد الله الزاهر . - العرب .

الاضطهاد . ولم يكن باستطاعته ان يجد هذه الحمية منفذاً الا بما
يكتب . لكن المخطوطات بدت له وسيلة غير وافية بالترام .
ثم انه لم يكن غريباً عن منافع المطبعة ، واجتمع له من الجراءة
ما جعله يخطط لنفسه مشروعاً ذا شعب ثلاث : يكتب ويسبك
الحروف ويطبع . وقد انقاد له التجاح في مشروعه هذا ، لما كان
له بالخطرة من جودة فهم ولجونه في فن الحفر وهو فن سبق له
ان مارسه بحكم مهنته صانع جواهر . الا انه كان في حاجة الى
معين . فطارعه الخط بان وجد انساناً دخل في شركته . واستطاع
ثقيقه ، رئيس دير مار حنا ، ان يقنعه بان يتخذ الدير له مقراً .
ومنذ ذلك اليوم خلع عن نفسه كل هم ، ووقف جهده كله على
اخراج مشروعه الى حيز التحقيق . وبلغ من غرة حميته ومواظبته
على العمل ان تمكن في العام ١٧٣٣ من ان يطبع مزامير داود
في مجلد واحد . وكانت قوالب حروفه صحيحة وجميلة بحيث
افتنى كتابه حتى اعداؤه انفسهم . وجددت هذه الطبعة عشر
مرات بين اول ظهورها واليوم . حقاً ، لقد صبت قوالب
جديدة للحروف ، لكن لم يتفق ان صبت قوالب اروع من
تلك التي اتقن الخط اليدوي تقليداً متقناً ، وتماثل الحروف الجميلة
فمنعلاً تم الهيئة يوماً من شكل الحروف العربية المرسومة في اوربا
ومن منظرها الخزيل المضطرب .

عشرون سنة امضاها عبدالله على هذا النحو بطبع سني المؤلفات
التي هي في الغالب تراجم من كتب العبادة عندنا . ولا يعني هذا
انه كان على معرفة بلغة ما من لغات اوربا ، ولكن اليسوعيين
كانوا قد توجهوا جملة من كتب . غير ان عربيتهم كانت غابة

في الردانة ، فأولج ترجمانهم ، وكثيراً ما أحل محلها نصوصه
الخاصة وهي تودج في الصفء والافاق . كانت العربية التي ينشء
بها مدعاة اعجاب لاسلوبها النقي الدقيق المنسجم . وكانت اللغة
العربية تعتبر فاصلة عن الانصاف بهذه الفيزات . لم تكن تجربة
عبدالله هذا برهان على ان هذه اللغة ، اذا طورها وطوعها قوم
أولو علم ، فانها قابلة ان تكون من لغات العالم وافواها عبارة .
نوفي عبدالله حوالي السنة ١٧٥٥ م ، فغلظه تلميذ له ، وجاء من
بعده وهاب بن الدير ، فاستمروا على سبك الحروف والطباعة . إلا
ان عملهم الآن يتناهى الانحطاط ويحتمل في اجل وجيز ان يتروك
البنة . فالكتب لا يباع منها الكثير ، إلا المزامير التي هي كتاب
القراءة التقليدي عند التلاميذ المسيحيين ، فطلبها اذن متواصل .
على ان الصفات موفورة لان الورق يستورد من اوروبا والشغل
جد بطيء . واذا كان قليل من الصنعة يكفي لمعالجة القصور
الاول ، فان القصور الآخر حتمي اصل . ذلك بان الحروف
العربية تحتاج الى ربط بينها لتلاصق تلاصقاً جيداً وتنزل في
خط منسقيم . ومن هنا كان يحتاج العمل الى اسباب دقيقة . اما
الاسفار التي صدرت عن هذه المطبعة ، فمن جملة مزامير داود
معربة عن اليونانية ، وسفر الانبياء ، والانجيل ، والرسائل ، وشرح
مزامير التوبة السبعة ، وناملات للجمعة الحزينة .

خلال المدة التي نلت مكتابة هذه السطور ، حاولت مطبعة
لندن محاولة جدية توزيع الكتاب المقدس ونشرات العبادة . ولا
شك ان مطبعة لندن اسرع وابسط تنفيذاً للعمل من مطبعة
عبدالله . وقد كانت النتيجة ان اجزاء من الانجيل والرسائل ،

منقولة الى العربية ، ثم توزعها في جبل لبنان في القرى والساكن
والاكواخ النعزلة . ويمكننا ، بناء على الصعوبة والمعاودة اللتين
صادفهما القديسون بهذا العمل ، ان نقدر العقبات التي كان على عباده
ان يواجهها .

ان رهابين دير مار حنا - وهم كاثوليك - يستقبلون الضيوف
استقبالاً حفاً ، ويبيعون منهم كتبهم في بسر وسهولة ، ويطلعونهم
على ما لديهم من جواز للطباعة العربية . وليس عندهم سوى مكبس
واحد . ومن هنا كان طبع الكتاب يجري في ببطء . ثم هم لا
يستعملون في ايام الاعياد ، وهي كثيرة في السنة عندهم . وهكذا
يكون معدل المجلدات التي تيسر لهم اصدارها على مدار العام لا
يتجاوز - كما قالوا - مائة وثلاثين مجلداً معظمها مزامير .
والمستخدمون في المطبعة قليلة . ونجليد الكتب يجري في الدير
الذي انقضت عليه عشر سنوات ، وعدد الاشخاص فيه خمسة
وثلاثون ، ثمانية منهم رهبان والباقيون علمانيون وخدم . اما
الارواح التي تنبع من هذه المؤسسة الطباعية ، فنعمود على بطريرك
الكاثوليك الذي يقطن الذوق . وهو يتفق المال في مصلحة
رعيته . ونظام رهبنتهم هو نظام القديس باسيليوس الذي يعزوه
المسيحيون الشرقيون اعتبار اللاتين للقديس بنديكتوس . على ان
عؤلاء المسيحيين الشرقيين قد اسندوا بعض التعديلات وافقت
عليها كنيسة روما . وهم كل يوم يتفقون سبع ساعات بالصلاة
في الكنيسة ، ويعيشون على طعام قش ، ولا يجيزون لانفسهم
اكل اللحوم الا في النادر اثناء حالات المرض المتأخرة في الخطر .
فتراهم كسائر الشرقيين يصومون ثلاث مرات في العام ،

ويواظبون على القطاعة مراراً كثيرة يستعملون خلالها من اكل
البيض والحليب والزبدة حتى الجبن . ويوشكون ، طوال اشهر
السنة على النقيب ، ان يعيشوا على العدس والفاصوليا مع الزيت
والارز والزبدة والقشوة والزيتون وقليل من السمك . ويخبزهم
رغيف خبيل خشن ، محمر نخبواً رديئاً ، يكون قوتهم لبومين ،
ولا يصنع طازجاً إلا مرة واحدة في الاسبوع . ومسكن كل
واحد حجرة ضيقة يتألف بمثل اثنائها من حصير او فراش
واحرام دوناً شراف . فلبس بهم اليها حاجة لانهم ينامون في
ملابسهم . وملابسهم هذه هي قميص خشن من فطن مقلم افلاماً
زرقاء ، وزوج من سراويل ، وصدريه ، وجلباب من القماش الاسود
اخشن الذي يبلغ من سمكه وغلظه ان يمكن نصيه دون ان
ينطوي . وما منهم احد ، إلا الرئيس ووكيل المؤنة والقائم
بالخدمة الكنسية ، لا يتعامل حرفة ما ضرورية او نافعة للبيت .
فهذا حائك ينسج الافشة ، وهذا معمار يقف على تشييد مبانيهم .
ويتولى اثنان منهم تدير المطبخ ، واربعة يعملون في المطبعة ،
واربعة في تجليد الكتب . ويتعاونون جميعاً في الفرن يوم
يخبزون الخبز . اما النفقة التي يقتضيها القيام بأود اربعين او خمسة
واربعين شخصاً يتألف منهم الدير ، فلا تزيد في العام على مقدار
اثنى عشر كيساً او ستمائة وخمسين ليوا ، ومنها تحمم النفقات التي
تسوجبها ضيافتهم لكل غريب ، وهي نفقات تؤلف بمجة ذاتها
مقداراً لا يسنان به . لكن اكثر هؤلاء الغرباء يتركون الهدايا
او الاحسانات للدير ، وهذه تؤلف جزءاً من موارد البيت ، بينما
ينتج الجزء الآخر من حراثة الارض . وكبيرة هي الارض التي

يشهدونها بالزراعة ، يدفعون ثلثها اربعمائة فرس او خمس عشرة
ليرا استرلينية لأميرين . وقد كان اول من نظف هذه الاراضي
الرهبان الاول انفسهم . على انهم أصبحوا اليوم يكلوث
زراعتها الى فلاحين يقاسمونهم الغلة مناصفة . والغلة تنال من حري
ابيض واصفر يساع في بيروت ، ومن بعض القمح والحمر يقل
طلبهما فيستهلكان في الدير او يهديان للمحسنين الى الدير . وقدما
كان الرهبان يتمتعون عن شرب الخمر . على انهم تخلوا تدريجياً
عن قسطنهم . وباتوا كذلك ينسأهلون بالندخين وشرب القهوة غير
عابئين بما يوجه اليهم الرهبان الاكبر سنأ من توبيخ وتأنيب .
وجميع الانظمة نفسها هي الانظمة النافذة في اديرة هذه الرهبنة
كأيا . وقد بلغ عددها في غضون ثلاثين سنة اثني عشر ديراً .
ويقدر عدد الرهبان جميعهم فيها بمائة وخمسين .

بيت الدين

قصر الامير بشير ، سيند لبنان ، قصر عظيم التكاليف . شكله مستطيل كبير . في جانب منه غرف الامير وحرمه . وفي جانبيه آخرين غرف ضيافته وحاشيته . اما الجانب الرابع فتفتح على الوادي وبلدة دير القمر ، ومشرف من بعد على البحر . افضل غرف القصر بحجرة بنوافذ زجاجية . وحوله حدائق من جلابي التزعت ارضها انتزاعاً من تلك البقعة الصلدة . وقد جيء بها من الغلال من مسافة عشرين ميلاً على القريب ، واستغرق ذلك نفقة باهظة . اما السبيل الى القصر فطريق ملتوية ملتفة على درجات حجرية واحلقة تقود الى هذا الحصن المعصوم - حصن هذا الامير الذي يستطبع على صوته ان يوقف لبنان كله الى السلاح في ايام فلال . وبامتطاعه الامير ان ينسج على اسوار قصره الذي هو وكر اسره فيقول مع القائل القديم : « أليس هذا هو المنزل الرفيع الذي شيدته على أفاريز الجبال الخائدة ؟ »

يقف على هذه الاسوار الهربة - اسوار العز والبذخ - مواطنون من مصر والحبشة وايطاليا وفرنسا ، كما يقف الدروز والساموئيل والمسيحيون . وهنا الجيلي الجسور المدجج بالسلاح يختلط بالسكان

المفكر أو الأديب . وربما انزوى الأديب على انفراد في فيء صخرة
أو شجرة ، ينظم الشعر في مدح الأمير أو في تصاريف الحظ
العجيبة التي نقشب عليها الأمير . والأرجح أن طبيب القصر - وهو
فرنسي ذكي لطيف ما يروح هنا مقبلاً - قد قرّر كمواضئ السيد
شابواستو في دمشق ، أن يمكث حتى آخر أيامه في البلد الذي رعاه
ونبتاه مثل هذا السخاء . والفرنسيون يفاعون جداً في الشرق
يوصفهم أطباء . فعبئهم على ذلك سهولة بل رغبة في تصكيف
انفسهم لأذواق الشعب وعاداته . تراهم لا يكتبون لفراق وطنهم .
على أنهم دائرو التيجع بسد . وليس يطلق خيالهم ما يرون من
كثرة تنوع المعتقدات ، فهم ينسبون تلك الانسامة الطبية العالمة
إزاء غوامض الدروز ، واحلام الدراويش ، وسجيدات الترك .
وعلى مقربة من القصر كنيسة مسيحية صغيرة . والأمير نفسه
مسيحي في الجبل . لكنه في عكا حين يزور الباشا ، أو في مدن
الساحل ، مؤمن بالذي . عمود اليوم سبعون عاماً ، له مهابة مشيخة
وحبة طويلة بيضاء . وفسحات محيطة هائلة رفيقة في العادة .
إلا أن ما أبتلي به أخيراً من التسلكات الحظ قد طبع سياحه
بطابع اشد قطوباً . لقد عاش حتى رأى باشوية عكا ينتزعها الباب
العالى من حديقته وحليفه عبدالله . وهو الآن ، بعد أن رجع ،
كالنسر المعمر ، إلى وكره البذخ في الأعالي ، ينظر عبر الحدود
إلى العواصف المتلاعبة بالماضى . ينشوق إلى سقوط السلطان ،
ويتطلع إلى تصارات إبراهيم ' ، معتقداً أنه سيموت آخر الأمر

١ القصود إبراهيم باشا نجل محمد علي باشا . المغرب .

في قصره بسلام . لكن لعل ابراهيم ، اذا وجد منه ذبذبة في
الولاء ، يحكم عليه بنهاية اعجل واسرع . وقد كان في قصره جملة
من نساء جيلاات صحبته في مزاره الى مصر حين تخلى عن
بيت الدين موطأ باعدائه من كل جانب . ثم عدن صحبته فرحات
مبتهجات لدى عودته الى العرش . ان النساء في الشرق - على
الاقل - عن مخلوقات يتطبعن بالعادة اكثر مما يتطبعن بالظروف
والاحوال . فبعد الفرار والسفر والمقام في مصر والمناخ والمشهد
اختلف عما ألفنه في وطنهن ، بعد بلاط محمود علي (المقصود :
محمود علي - المعرب) حيث تعرفن الى السلطنة والمخططات وشهدن
توقفاً وبذخاً جديداً عليهن ، بعد هذه المدهشات كلها ظلى بيت الدين
حييماً اليهن شأنه من قبل . لقد صاحبنهن الامطار والنجوم
وعواصف الرعد والوحشة والعزلة في منزلهن الجبلية الصخرية
طوال اعوام . فهل ترى لحقت بهن ذكرى حدائق الباشا ونوافير
الماء والموسيقى وحفلات الرقص الى الجلالى المتعرجة المتتوية
وجنائن الازهار الثمينة في دار الحرمين في مصر ؟ فهاذا يجدي لون
الكحل حالكا كجناح الغراب في شفرات العين ، وماذا نجدي
صبغة الحناء القرمزية في باطن الراحين واطراف الاقدام ، وماذا
تجدي النقود الذهبية مدلاة على الكتف في اسلاك مطرزة ، اذا
قلت الواقدون على القصر لا بداء الاعجاب بنساء الامير واطرائهن ؟
ان القصور الشرفية الحالية من الكتب شأنها شأن بيوت زعماء
الجبال القدامى . لا يخام وزن الرغبة في المطالعة ، وفوق ذلك
لا وجود هنا مثل هذه الرغبة . بقيت التزهات في الحلاء .
ولكن الافاير الجبلية الحشنة ، الشديدة التجدد عن كل جانب ،

تحويل دون هذه التزهات اللطيفة . وعلى هذا ، ترى الجبال يعجز
عن تصور حياة ، تعيشها امرأة جميلة ، أشد رقابة وكآبة من
الحياة في بيت الدين . ان الشغف بالملابس هوس قديم في
الشرق . ولا شك ان هذا الهوس مستوطن لبنان ، يحل بين
هذه الجدران الموحشة حلوه في الاوساط الاوروبية المرحية .
وقد أدخلت على هذه الجدران مرابا عظيمة المنفعة الحرم . فلو ان
العناية بالفن في بيت الدين أمكن وصفها من وراء الابواب
الضخمة والاسيجة والضياب والحرس ، أجل لو أمكن وصف
الساعات الكثيرة التي تقضى كل يوم بالاستحمام والتزيين والتعطر
واستعراض المحاسن وتبادل الحسد والتعنيف واللوم ، لاستطاع
الرائي ان يقول وحق ما يقول : « ايس الضعف هو اسلك ، بل
الغرور ، يا امرأة ! »

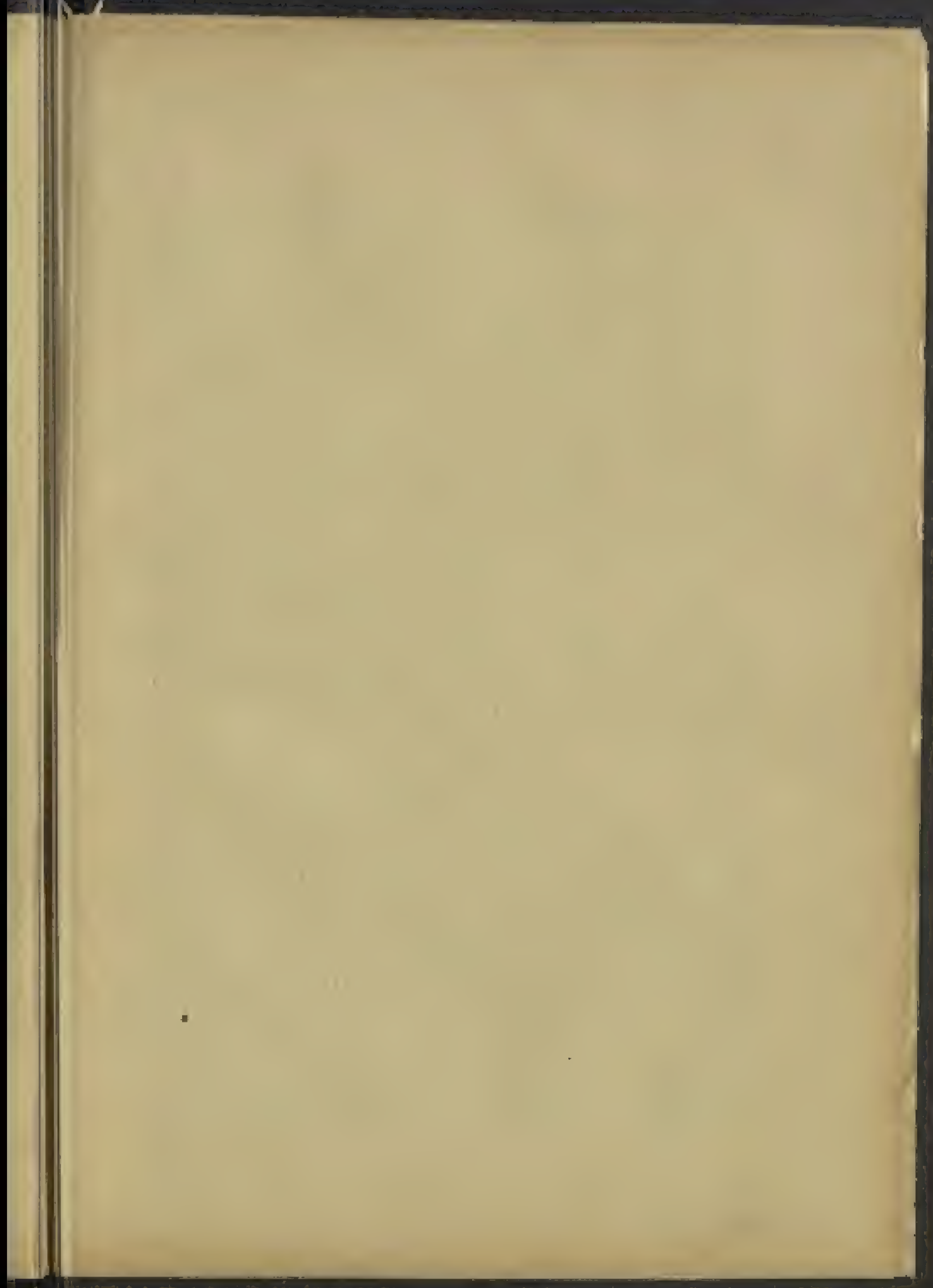
اما الصورة (صفحة هذا الفصل) فنقل اجناع الرؤساء وقد
احتشدوا للانحاق بجيش ابراهيم باشا وهو يومئذ على اعبه ان
يوغل في سوريا قبيل استيلائه على دمشق وانتصاراته في قونية
الخ ، بث الامير حليف ابراهيم دعائه في جبال لبنان كلها ، قلبى
المبشرون الدعوة مغنيطين . كانت الامر كأنما الصليب الموهج
طاف بالجبال القديمة منادياً كل امرئ ان ينضوي تحت لوائه
ويسارع دونما ابطاء الى الحشد . وكانت اجلييون هؤلاء جنوداً
شجعاناً صلباً ، عرف ابراهيم قسمة في الحركات الحاطقة الجريئة .
وكان في مصلحة الامير وخطته ان يمد ابراهيم بأوفر نجدة ممكنة
له . ويستطيع الامير لدى اقصى الحاجة ان يحشد قوة من عشرين
الف رجل مشاة وفرساناً مسلحين بالبنادق ، ومعظمهم خيالة

طريقتهم في الحرب اقرب الى ان تكون افرادية قل ان
تستبمع الحسائر والمخازر التي تقع في معارك الميادين الخفية . اما
الدروز ، الذين منهم تتألف ثلثا قوته ، فيميزون باللبسهم القمّة
افلاماً عريضة . وهم جيش من الرجال متين البنية صريحين ، على
وجوههم المستديرة الخليفة ، الرقيقة البشرة في الغالب ، سيج ، مرج
ومغامرة ، يضمنون شعر رؤوسهم تحت العمامة اللبنانية الخفيفة ،
لان مذاهب الاتراك وعاداتهم ليست مطلقاً بالري الشائع في
لبنان .

ولقد كانت المناظر حول بيت الدين ملائمة لكل الملاحظة لهذا
المشهد العسكري الخافل . فعلى سفوح المنحدرات ، حيث ترتفع
كوكبة من الجبال ، نبع سنان امتد الى المراقي الضعيفة . خلال
المسلك الضيق ، حيث لم يكن يستطيع الاقلّة من رجال ان
يتقدموا دفعة واحدة ، ويصدور معرضة . وعلى المهابط في
وجهة اخرى تدفق جماعات من المشاة الجبلين على غير نظام .
فالبنادق والرماح والسبوف كثيرة على انماير الجبلية كغلايين
الندنجين في مقهى . لكن زحف الرؤساء وهم ينطون جيادهم في
ابية ، بينا يسير وراهم بطلانهم ، كان ابدع الوائاً . وكانت الجياد ،
وقد اعتادت امداً طويلاً هذه السبل والمساك الوعرة ، تمشي حذرة
متلهفة كأنها ارجلها تظاً سهلاً بسيطاً ... هذا ، واصبحت الساحة
الكبرى امام القصر مكتظة بمن وصل من الوجمال والجياد ،
بعضهم منكثون لا يفعلون شيئاً ، وبعضهم يدخنون ، وبعضهم
يحدثون جماعات . وكثير من اصحاب الفضول وقفوا على السطوح
والمصاطب يطرحون النظر بعيداً ليشهدوا الرايات والجنود اللبنانيين



بيت الحكيم ، قصر امير الكويت



المتقبلين . واملأت الادوية والباحات بالضباط والعساكر خارجين
داخلين في شوق وهفة ، بينا الامير في ديوان الاستقبال محدة في
تقلب الرأي مع الوجوه من مستشاريه واصدقائه . كانت الجميع
يشعرون ان هذا الميوب اليوم ليس في سبيل نزاع مألوف ، او
خصام موضعي ، لا يقاتلون فيه إلا بمقدار ما يروقههم من حماسة ،
حتى اذا ضجروا نكسوا الى بيوتهم - اجل ، كان الجميع يشعرون
ان هذا الميوب اليوم انما هو في سبيل عراك مستتبت نتوقف
على مصيره الممالك . وليس ابراهيم ممن يتحملون الفتور في قضيه .
اما قائد عساكر الجبل في المناسبات الاخرى ، فكان الشيخ بشير
الزعيم الدرزي الذي حكم عليه بالقتل بعد بضع سنوات . لكن
الامير في هذه المناسبة ، ابداء منه لجة ظاهريّة ، اكثر منها
حقيقيّة ، في قضية ابراهيم ، رافق الحملة شوطاً كبيراً من الطريق
الى دمشق محملاً في محفة .

والمسيحيون هم الاوفر عدداً من السكان . على ان الدرزي هم
الاوفر غنى . غير ان الفريقين نزاعات الى الحرب . وينفرد
المسيحيون من اسم الدرزي نفرة شديدة حتى ليستحيل ان
يسلموا يوماً في هدوء الى رئيس درزي . وانهم متعلقون بالامير
الذي اعتنق الايمان المسيحي هو وعائلته منذ اجل طويل . وطالما
لقي الامير عضداً من باشوات عكا وطرابلس الذين ما زالوا لما
واربعين سنة يكلون حكم الجبل الى عائلته . هذا ، والامير الآن
في حلف حيم روالي مصر الذي حضنه في منفاه ولطف به وسخا

وله ضرب من تمكيد الماء للصيد فيه . - الميوب .

عليه . وقد تخلص الأمير من منافسه الشيخ بشير . وكان من
قبل مجبراً على مشاطرته كل ما يبتزّه من الجليليين .
ولعلّ الدروز هم الشعب الوحيد الذي لا يحب الموسيقى غناء
أو عزفاً . فإذا اتفق أن سمعت في أكوأخهم أو حفلاتهم وأعيادهم
أحان القصائد ، أو النشائد القومية ، أو الأناشيد الجبلية ، فقليل
ما يكون ذلك إذا كان . ويعدم الدروز أيضاً نوع من أنواع
الآلات الموسيقية ، فهم يزحفون إلى الحرب دون بوق أو مزمار
أو نشيد .

دير القمر وقصور بيت الدهن

القصر في مقدمة الرسم هو قصر الأمير بشير . أما قصر اولاده
فعلى الضفة في اعلى . وقد اتى اجتماع الواساء وحشد الجنود
المسارعين الى لواء ابراهيم . وأخلت فاعات الأمير من جماعير
الحياة المتلفين وجماعير المشاة . وخيم تحت نسي ، « صحت على فاعات
كونولتين » ، وطلق رأس نيات القرفطان الشوكي ينحني في مهب
الريح ، والقرفطان كأنه يقول : « ده أجل ذهبي ا » كذلك الشبح
سبد القصر ، المربع على ديوانه في الداخل ، وحلته البيضاء تسع
صدره . لا بد له ان يكون شاعراً بان أجل ذهابه أصبح غير
بعيد جداً . فهل هو يستطيع ان يلقى لك الساعة دوناً فلق ،
دوناً لم لا قليلاً ما يبدي الامراء الشرقيون في شيخوختهم صورة
من ذلك الغروب . غروب شمس القلب الذي يكون آخر شعاعه
وخضع بحده عزيزاً جداً مغبوطاً جداً ، يفوس ويتوارى في بظاء ،
تكن لم يلقظ مرة اخرى مع ذلك اليوم الذي لا تلبث بعده !
ان سيرة ملأى بشديس الانفعالات والتصاريف والتبدلات ،
سيرة ممتدة احباً بالمتف والاجرام ، لتعمل المره - اذا كانت
ممتدة - فتنس لها الفون والظفر - ان ينشبت بالحياة ورغم ان

يده القابضة على الصولجان تكون معروفة ذلوبة . ويد الأمير
قائمة بالدم ، يعجز أن يكشف لونها الخارج جلبابه الأبيض الجميل
الذي يغطيه من الرأس إلى القدم وما يلمع في ثيابه من ألماس
منقطع النظير في توقده وإشرافه . لقد قضى على زعماء العشائر
الأقوياء المنافسين له ، قضى عليهم وعلى أطفالهم بين جدران قصره .
وسجل عبون الكثير من الأمراء وصنادير أملاكهم ، فأصبحوا الآن
يعيشون وأسرهم في قرى لبنان المحذوفة الثانية . وهو يبرر هذه
الأفعال بشافع من الضرورة ، ويدعي أن كل حاكم عادل مسلم
مكتوبة له الحبيبة نظراً لاستبداد السلطان الأفاني وتطاحن الولاة
السوريين وتغايرهم وتحاسدهم . لكن مياه لبنان كلها لا تستطيع
أن تنقع ظمأ أمرائه إلى السلطة والمغرم . الدم وحده يقدر على
نقع هذا الظمأ . وإذن فليهرق الدم غزيراً سخياً .

المشاهد حول قصر بيت الدين ملائمة للتأملات القاسية التي لا
رحمة فيها . فإذا بقيت مدة في الضمير خلجة ضعيفة ، فإن هذه
المشاهد تكون ملائمة أيضاً للتدامة والنبكيت . ليس هذا القصر
في موقع يود فيه المرء ، الذي يهوى مناظر هذا العالم العذبة
الناعمة ، أن يجتمع بعدوه الأخير . هنا على كل جانب أجراء
فقيرة ، وجلامد قاحلة ، ومعاير مسنة الانحدار . وفي أسفل تسيطر
المهاوي العابسة ، المنفرة من الشمس ، كاشفة عن أحضانها المستحبة
في سيول غير حبيبة إلى النفس ، كأن لسان جافاً يقول : أيها
الغريب ، هذه هي مطارج لبنان المظلمة القاسية لا إجماده ! وفي
أعلى ، بلدة دير القمر . فهل فيها من جواذب حلوة ؟ تلك منازلها
الصلعاء مصعدة في المراقي الحشنة ، وتكاد سقوف بعضها تنكمي .

على سقوف بعض . ومع ذلك ، ففي اعلى ايضاً ، قمم لا جمال
فيها ولا سموا . لقد امضى الكاتب اثني عشر يوماً في دير القمر
وبيت الدين ، فكانت أشد أيام رحلته إحمالاً وبعداً عن السلوى
والغذاء . ظلت تأتيه زجاجة من شلال طاحون غير بعيد ، على
علو خمسين قدماً ، — زجاجة تطفئ على عجاج سيل الشتاء .
وراحت الشمس ، في فترات متفاوتة جداً ، تطل بإبتسامة منقصة
على القصر ، على الأودية الشبيهة بالحجوس ، وعلى القمم الشرسية .
ذلك مشهد شديد النفاة ، قوي التأويل ، يضرب العين ويعجب
الاول وعلة . على انه سرعان ما ينحول الى منظر قبيح ، باعث
على الضجر ، قابض للصدر . فلشد ما يمتنى المرء ان يشرف على
البحر البعيد الذي كان يطل بهجاً مؤنساً كمجيا صديق في
الصحراء ، يطل من فجوة واسعة بين الغضاب والشمس ، تنكسر
الاشعة على امواجه الزرقاء التي بدت كأن صوتها يقبل من بعيد
ويقول : « نعال ، اقترِب من مشاهد أروع وأحب . » إلا اننا ،
وبالأسف ! لم نكن نستطيع ان نلبي الصوت . فقد عادت
العاصفة ، وكان الفصل شتاء عبطت فيه الغيوم مظلمة ثقيلة على
افانيز الجبال ، وغدت الطريق مستحبة على العبور . ومع أن في
المكان ، هنا وهناك ، طوائف من الشجر موزعة على المنحدرات ،
فإنها تبدو بظهر الغريب ولا توفر إلا مأوى يسيراً وظلاً هزيلًا .
هنا وهناك شجرة النخل والتوت والتين . لكن آه لك يا مغارس
مصر التي بكى زوالها الشعب وارتفع عويل الامة كأنها تنوح
على فقد اول مولود ! شد ما كنت يا مغارس مصر نظرين
بهية مجيدة على هذه المنحدرات !

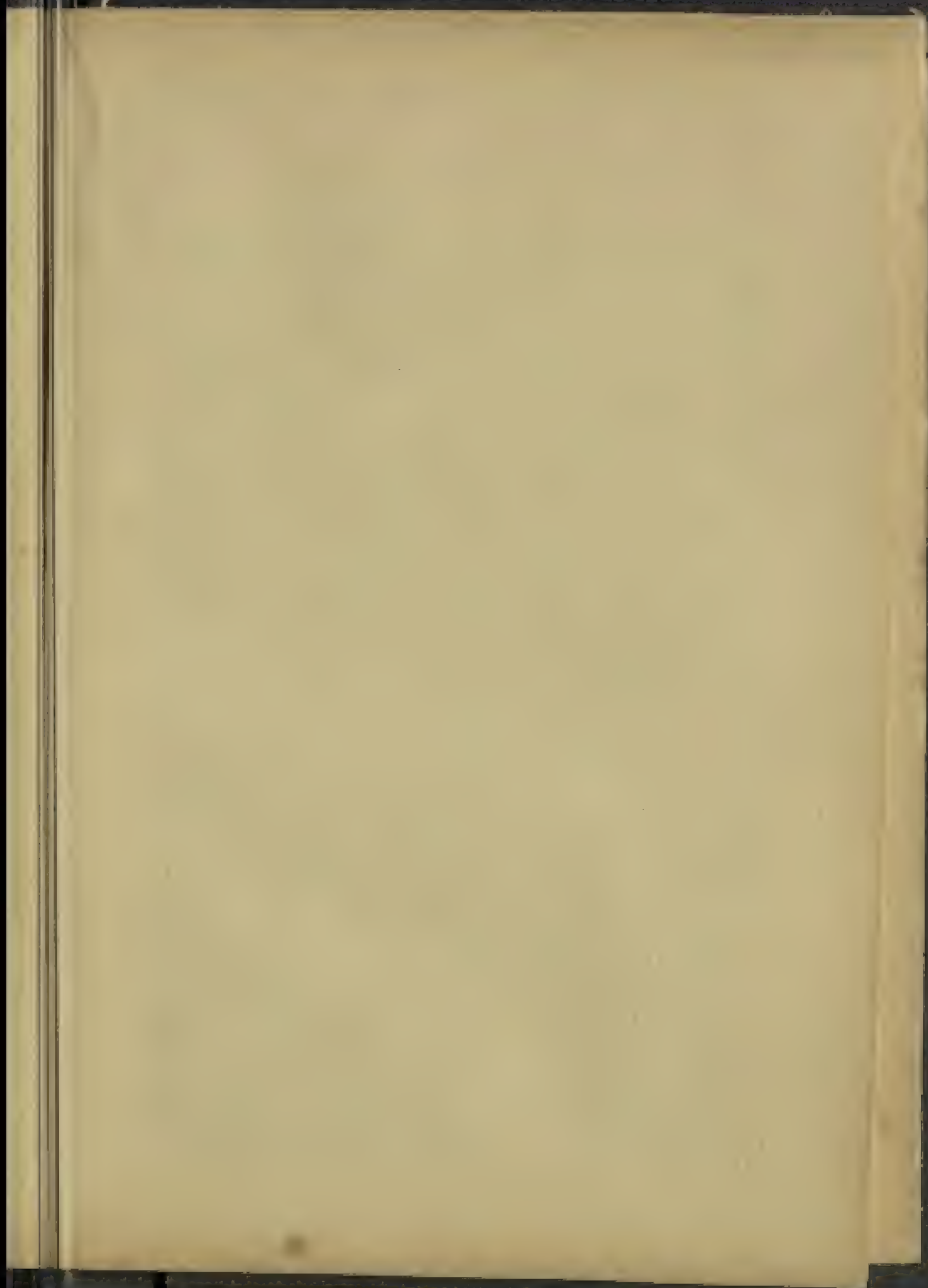
ليس يسوغ ان نفترض ان دير القمر غنية بالجنائن . ولقد كانت سميراميس نجد صعوبة في ان تعلق في هذا الموضع جنائنها الفضائية . اما صبايا البقعة فبن جنس جميل معافى ، بشرتين أمل الى الرقة والاستقرار والازهار ، تطول فامانين بتلك الزينة الفضة التي يرتدينها على قمة الرأس : قرن فضي يبلغ ارتفاعه القدم ، عليه رسوم ونقوش غريبة محفورة فيه . وهو ينصب على الرأس نصيباً ، ومنه يدل الجلباب او العباءة بحيث تسدل انسداداً حلقاً على جانبي الوجه . ولعل هذه العادة القديمة هي التي بشير اليها المرمور في قوله : قلن ينصبوا فرنهم على ارتفاع ، ان قرنهم ليكون مرتفعاً .

هذا ، والاعلون متبدلون يحترمون الغراء . اشخاصهم وملايئهم نظيفة ، وعندامهم البقي . ولا يتسع النساء الا بحظ يسير من النجافة ورشاقة القلب ، على ان ابدانهم قوية لتدفع عافية ، وسياهم سماء الجبلبات الصريحة الوديعه . وقل ان يدخل بيوتهم الترف والرخاء . ويندر ان يدعى المسافر الى اجتياز غنية منازلهم . وهم يحرقون الكرمه حرقاً صالحاً فتنتج شراباً قوياً حلواً ابيض ، يمكن شراء الريعصة منه بشلن . كذلك يمكن الحصول هنا ، كما في معظم الانحاء اللبنانية ، على لحم البقر الممتاز ، المساوي في جودته لحم بقر انكلترا . اما الزراعة فتكون في الجلالتي التي تسورها الجدران حفظاً للتراب من ان يجترفه ماء المطر .

يقول بوكهاردت Burekhardt : وتسحق قبور المسيحيين ان تكون موضع نظر . كل عائلة لها بناء حجري نحو اربعين

نهر النهر ومسوريات الدين





متراً مربعاً ، تدفن فيه العائلة مواتها ، وتبنى على المدخل سداً بعد
 كل دفن . وهذا النحو من الدفن خاص بدير القمر . والأرجح
 انه نشأ نتيجة لصعوبة احتفار القبور في هذه الأرض الصخرية التي
 عليها يقيمون . أما الأسر المسيحية الغنية فتكون على مقابرها
 قبب صغيرة . و يبلغ عدد الأعيان نحواً من أربعة آلاف ،
 موارنة و دروز ، يحوي كل أدوات الالبسة التي يرتديها
 الجليليون . وهم مهرة على نحو خاص في عمل العباءات النفيسة أو
 الجلابيب الحريرية المنسوجة بالذهب والفضة ، وهي لباس الرؤساء
 من مشايخ الدروز . ويسكن هنا عدد يسير من عائلات تركية
 معزولة في هذه العاصمة الجبلية ينظر إلى اختلاف المذهب
 والعادات .^١ واليوم بعد ان كشف سعد ابراهيم سعود سلطانها ،
 فان وضع هذه العائلات التركية اصبح غير مقبول اكثر
 منه بالأمس . أما دير الموارنة فهو على مسافة يسيرة إلى اعلى ،
 وبشرف على البلدة والوادية . وأما خوات الدروز فموزعة في
 الجبل على تفاوت . وهي محبوبة عن عيان المراقبين . ولا
 يؤذنت لغريب ان يطلع على عبادة الدروز السرية الغامضة
 وطقوسهم . إلا ان الغريب ، اذا انجح له الاطلاع ، فليكن
 يكافأ بمعرفة عبادة وطقوس مؤثرة هي بقايا عهود قديمة اشد صفاء
 ونقاء . فديانة الدروز هي في شطر منها بدعة محدبة ، مختلطة
 بطقوس زائدة ، وبمفهومات مستعارة من المسيحية ، ويجوز من
 الغموض والسرية اسبغ على ذلك كله اسياغاً . ويحتفظ اصحاب

١ استغنى هنا عن عبارة لا تزيد في الفن ولا تنقص منه . - الممر .

هذه العقيدة^١ بسر عبدهم احتفاظاً شديداً ، رغم ما لها من
آثريات بعيدة عن ان تعزي النفس - آثريات تستولي مع ذلك
استيلاء شبه سحر على عقولهم^٢ شأنها شأن الفرما سونية وأشياءها
المتشبهين بها .

في قصر بيت الدين كثير من البذخ واللاية . ففي الجناح
الجنوبي العربي يكسو الرخام الارض وتقوم في الوسط نافورة .
اما الجدران فمكسوة بالفساج ، مطلية بالذهب ، مزينة بالنقوش
العربية في حروف مدعمة كبيرة . ومنها جدران قاعة الديوان
الاميري ، ومنها جانب مدخل عليه انفس شالات الكثير فوق
بطانة من الافشة الجلوحية .

يقول لامرتين Lamartine : « ملء القاعات والمناهي تشدد
الجسور السقفية الذهبية الرشقة كجذوع النخل ، وانفوس الاعمدة
المشوفة البيضاء . وغنى دوح رخامي ، مرين بمواجه حديدية
مشبكة على صورة نقوش عربية ، يقود الى مدخل دار الحرم
حيث يقف عبيد زانوج يرتدون الملابس البهيبة وينسلحون
بالمسدسات ذات المقابض الفضية وبالسيوف الدمشقية المرسعة
بالذهب . وحشاية او سجادة من الخيول العربية مربوطة الرؤوس
والقوائم بحبال تقاطع ممدودة في الناحية . وكتاب مضاعف
الجلابيب ينتظرون في ديوان الامير وفي زنايهم محاسن فضيلة
مشكوكة كالحناجر . اما الحمامات فهي خمس قاعات او ست ،
مبطنه بالرخام ، وجدرانها وسقفها مطلية بالجبس ، ملونة

^١ صفة من امين لا يمان . المرن .

بالدهان ، صنعها فنانون من دمشق على نحو يقف ذوقاً
والنقطة ، ثم تقدمنا الى زيارة الساحات والاصطبلات . وان المرء
ليعجز عن تصور الخيول العربية اذا لم يزر خيول دمشق او
خيول الامير بشير . اجل ، على المرء ان يشهد هذه الجياد في
كسوتها البديعة المطرزة بالذهب والؤلؤ ، بينا تقطعي رؤوسها
شباك من الحرير الأزرق او الاحمر منسوجاً باللاك الذهب
والفضة ، وهي تبرز عرافها الطويلة السوداء وتضرب بأذنيها
جوانبها المتقولة حقلاً جميلاً ، بينا تبت عيونها النارية الذكية
المشوقة انفة واباء في وجه الغريب ... وتلبس امرأة الامير ،
الانيرة عنده ، طنطورا على رأسها تبعاً لعادة اللبنانيات . لكن
طنطورها مذهب موضح بالحجارة الكريمة .

أفلبس من أشد الحرارة ان يغادر المرء هذه الاشياء : هذا
القصر الذي وضع تخطيطه وشيده على افريز الجبل ، وهذه
الامبراطورية التي احرزها بجهد نصف قرن وجرائم نصف قرن ،
وهذه السلطة التي تحول الشجوخة الى امر رخيص ؟ أفلبس من
القول ان يقضي المرء كالخشعة ، بينا الجياد تنقلت الى مولاتها ،
والامراء ينطلقون الى مشيرم ، ولبنان يشخص الى سبده عبثاً
وسدى ؟ لنقبل نساؤه الجميلات فيعولن عليه ويقان : « ابن
مجده ؟ والأسفاه ! » ومع ذلك فان هذا الرجل يرغم ما يلقي
من مشقة في استجابة داعي القبر ، سيواجه المنيعة وأبط الجاش ،
هادئاً كجزائر عكا وعلى باشا بلنينا . فلم يكن في موتهما جوفات .
لم يكن فيه تكدير والزعاج .

ان طباع الامير بشير ابنة ، سهلة ، مشغوعة بالوقار . وبشرى

طريفة ملأى بالعايفة . وفي ابنسامة عذوبة . وسباؤه واحاديثه
 هي سماء الشيخ واحاديث الحكيم . لقد بلغ الخامسة والسبعين ،
 لكنه نشيط لا يعيا . يفتق قبل مبرغ الشمس ، مواجهاً ضغط
 اعماله اليومية برأس محنك مرس هادي ، وسواء أكانت هذا
 الضغط عصياناً او ابتزازاً او تجارة او غرداً وخيانة . ثم يطوف
 في ملكته الجبلية على جواد رائع من خيوله العربية . فاذا كان
 المساء فقد ينظر في شؤون وتفاصيل الهدأ وأبسط ، واستقبل
 الرؤساء والغرباء . ما من ساعة ، ما من هنية ، إلا لها فيمنها
 في نظر هذا البشري الحارق . فكأنه يشعر مع سيسل Cecil
 بروعة المستقبل وجهله :

لا في اسمع دائماً ورائي
 عربية الزمن المُنحَنة تقترب مسرعة .
 وفي الاتجاه ، امامي ، أشهد
 صحاري من اللانهاية الرحبة !

ومع هذا ، فلا تنقضي بضع سنوات او بضعة أشهر حتى
 تنطفئ . ويهود في بيت الدين هذه العبقريّة الحبة ، وهذا الفؤاد
 الذي لا يرأف . لكن ، انى اى مشهد ، ترى ، تعبر هذه الروح ؟
 الى قصر آخر كقصر بيت الدين ؟ الى ميساة اخرى للبذخ
 والكبرياء والجمال والرهبة ؟ — ولم تنب هذه الروح عن شيء ولم
 تكفر عن شيء ؟

قرى الباروك

يقطن هذه القرى جبليون من الدروز . وهي فائقة في موقع من اقصر المواقع في لبنان . ويندفع نهر الباروك في الوهدة تحتها ، ونشبح ورائها قمم ارفع منها ، على مسافة ساعة او ساعتين . اما في الشتاء فهي مضرب بارد للعواصف . واما في الصيف فهي ملجأ محبوب هوائها النقي المنعش .

ان لبنان في نظر الراهب والراعي لأغنى بقاع العالم تلويهاً وسحراً . يستطيع الراهب في هذه المنعزلات ، ذات الجمال الرائع والحلاء والبساتين والمفارس ، ان يشرف من جلاله على البحر مغطى بألف شراع . ويستطيع الراعي في كل يوم ان يقتاد قطيعه الى المنحدرات الحصة والوهاد العميقة وافارين الجبال التي تند ظلها على الاغوار . وحتى هذه القرى الباروكية التي تبدو معلقة في السحب ، او على حفاقي المهاوي ، لا تعدم زائراً وقيقاً يحيط بها من شجر الارز والصنوبر وسائر الشجر ، مما يحجب الجلامد الهائلة ويخفف من وحشة المشهد .

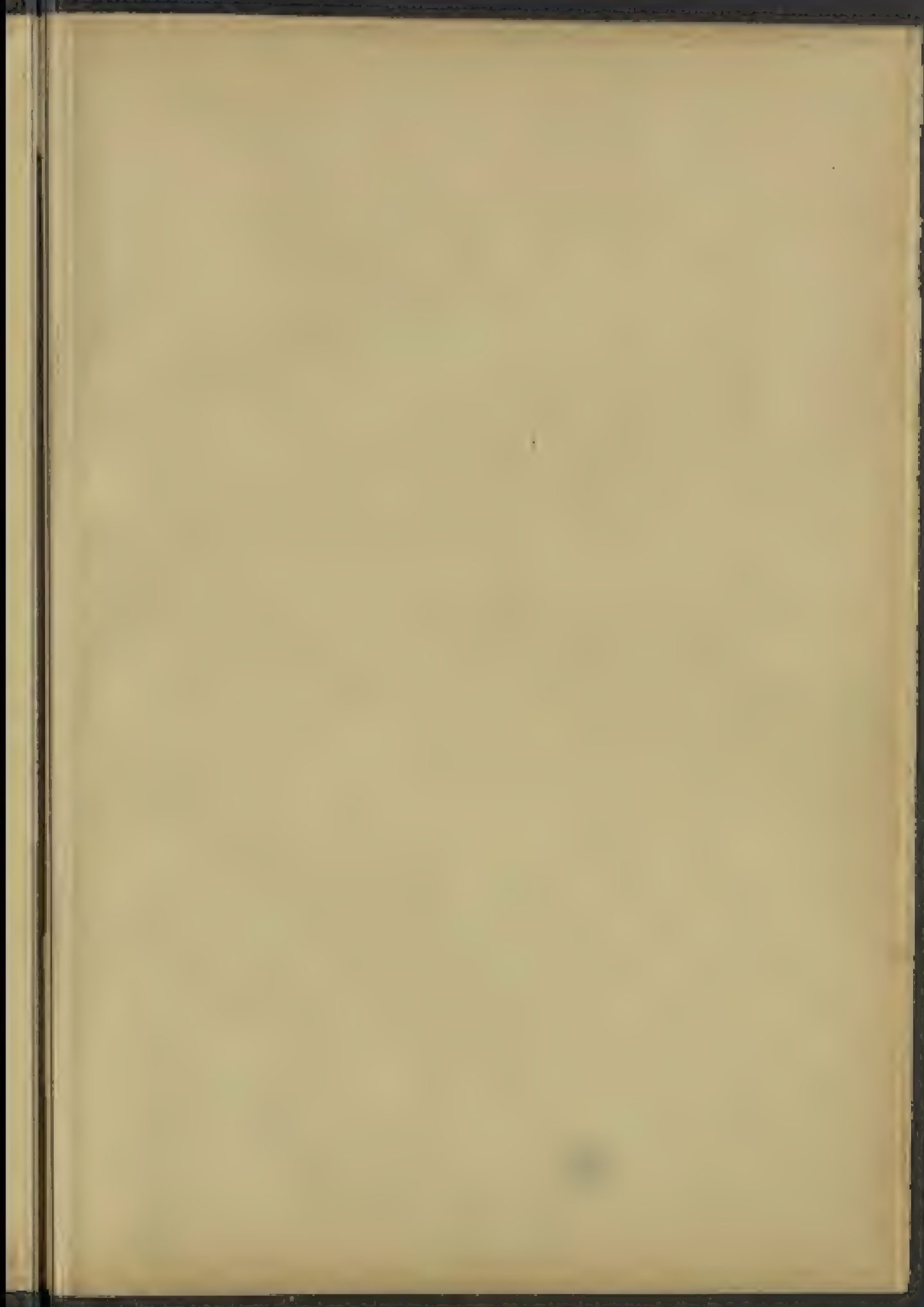
اما الطريق التي تسوق هذه القرى فمسلك يرهق الاعصاب ، يبدو انه نحت نحتاً في اكاداس الحجارة الكلسية التي منها تتألف

تلك الآكام . والمنازل مبنية من الحجر الكلسي ، سطوحها مبسوطة
 بسطاً ، ونوافذها أبداً صغيرة ، والباب قائم في الوسط ، وواجهة
 البيت غير مفسولة بالبياض . ومن هنا كانت سماء المساكن البنائية
 ترتدي - على صورة عامة - طابعاً ثوابياً ارضياً . فإذا كان الجو
 شائياً عاصفاً ، حُبِسَ المسافر وراء الابواب ، وفي ذلك ما فيه
 من الكدر وفقد الراحة لأن الشيايبك لا زجاج فيها . فيضطر
 المسافر ان يتقل المظلة ويدرف الحطب ويقبع في غيمة تشبه الظلة .
 ولقد سألت اهل البيت كيف يتدبرون امرهم في اوقات الشتاء
 الطويلة الموحشة الرديئة الطقس ، فأجابوا انهم يعددون على افعال
 انغرف اطفالاً ضابطاً ويضبطون القناديل في النهار ، حتى اذا كان
 المساء اجتمعت العائلة وبعض زوار من الحيوان فدخلوا لغايات
 النبع وتسامروا وقطعوا الساعات حتى يارزف اجل النوم .
 ينبغي لبيوت هذه القرى ان تكون موحشة كثيفة اذا
 قارب فصل الخريف نهايته فانطلقت فوق هذه البقعة عواصف
 الرعد والبرق والشتاء ، وزحف الضباب الكثيف فحجب الجبال
 طوال ساعات بل ايام . على ان الفقر غريب عن هذه المنازل ،
 فكثير من اهلها اصحاب املاك لا بأس بها . ذلك بان هذه
 القرى إنما هي المسكن الرئيسي لعشيرة البزدكيين^١ ، ويستطيع
 المسافر ان يجد دائماً لدى شيوخها ضيافة وترحباً . وليس في
 البلوحة ، صعبة هذا الفصل ، سوى طائفة من البيوت .
 ان بعض نساء هذه القرى على وسامة وملاحة . تراهن في الحفلات

١ اهل التوائف يقصد البزدكيين . - العرب -



موسى المولى



والاعباد يلبس على ذي عشرين القدم لباساً ترفاً غنياً ، بل
 من يبرز أحياناً في الثياب ذاتها ، والحلي ذاتها ، التي كانت
 ترتديها جداتهن . وإن قضاء بضعة أيام ، في هذا الموقع المنعزل ،
 لينطوي على غبطة متفعلة قوية . فهنا المآكل الوفيرة التي يشارك
 بها المسافر العائلات ، وهنا الاستماع مع المساء الى الغناء الجبلي ،
 وهنا التدخين والسمر مع الشيوخ الشيب . وبعد ان يكون
 المسافر قد جهد شطراً من نهاره ، مشياً في المسالك القائظة ،
 وصعوداً في المراقي المنضية ، تراه يستلقي الراحة على هذه القمم
 الصديقة ، ويستعذب الوقفة قليلاً قبل ان يستأنف سعيه عبر سبل
 أشق وأوعر . وحتى هنا نجد الصبايا لا يزلن يدرجن على الزي
 القديم - ومنى كان للزي ان يتبدل في هذه الخلوات الجبلية ؟
 فمن يلبس على الرأس القرن الفضي العالي ، ويدلين منه الوشاح
 الطويل ، فإذا مشين على المنحدرات بدا من هدام مسرحي انيق
 منسجم . وحبيّ اللباس والهدام في الباروك منتشر كجبه في
 باديس ولندن . لكن ، ألم يكن هذا هو الشأن في فترات
 « بادان - آرام » في عهود أبسط وأوفر حظاً من البدائية ، يوم
 كان لرفقة كنزها من الحلي ويوم فرحت بجواهر اليزر ، مع ان
 رفقة هذه كانت تنتشل الماء من البئر للجمال ولا تعرف من
 الرجال إلا انهم سكان خيام او فقار ؟

وفي هذا الصدد ، يقول احد الرحّالين في ذرى لبنان :
 « لقد صادفت البيلة نموذجاً تاماً من هذا الولع باللباس والهدام ،
 صادفته عند ربة البيت . فلقد اخرجت من خزانها ما لا يقل
 - على ايسر تقدير - عن عشرة جلايب خارجية ويزود ذات

ألوان مطرزة مرصعة بأزهار ذهب وفضة . بعض هذه الثياب
قديم يرقى إلى عهد زواجها ، وبعضها أفخم . وهي لا تلبسها إلا
في الأعياد الكبيرة ، حين تجلس جنتها الرحمة لاستقبال
الأصدقاء ومنازلهم القهوة والشاي للتخمين . لكن من دواعي
الاستغراب التي يعارض المرء بين ثيلها النفيسة البديعة وألوانها
اليومانية البسيطة . فانها ، لدى القيام بواجبات البيت العادية ،
تكتسب المظهر وتغلي القدور الخ... ولا تذول طعامها إلا بعد
أن يفرغ زوجها وأصدقائه من الأكل ، فتعقد أرضاً هي وأولادها
والخدم عند عتبة فاعة الاستقبال . وتلك هي ، على الأغلب ،
حالة النساء في هذه الأحياء . ورأيت لها جدائل كثيرة تدلى
على طول ظهرها ، منبهة بـ « شراب » من نقود ذهبية ، إذا
أضيفت إلى النقود على رأسها ، فربما يبلغ ثمنها بين خمس وعشر
إيرات استرلينية . لكن هذا شأن لا يستطيع أحد أن يجاري فيه
الأخبار والأكبروس أنفسهم ، فانهم يتجلبون في الأعياد الكبيرة
بجلايب باهرة فخمة تكاد تكون انوية . أما ذلك الضرب من
الزينة ، الذي نكتفي به الروح البديعة المسادة ، فظليل ما هو
معروف في هذه الأرض . على أن التزيين في تصفيف الشعر
ولبس الذهب والارتداء الهزئ أمر محروس عليه حرصاً مدروساً .
والشاهد أنني ضجرت من ربة البيت وهي تزين ألبستها خيراً
ظهر عليها منه العجب . »

إلا أن هذا التخرج الذي أبداه هذا الرجل في شأن عادة
عريقة محبوبة - هي عادة الوقع بالتياب الفضة التوفية التي لا
يصادف لبسها إلا مناسبات نادرة مخصوصة - إنما هو تخرج

يوشك ان لا يكون له موضع . ذلك بان هذا الولع بالنياب
الفضية ليس مبعثه الشغف بالزينة ولا الاسراف في النفقة والشهوة
الى التبديل والتغيير . صحيح ان حب المظهر الفخم في الثياب ،
عند رجال الكهنوت ، ينطوي على مناقضة وميل مؤذ . اما فيما
يعلق بذلك السيدة المستوحشة فان ملامتها على اهتمامها بثلث
النياب امر لا يكاد ينطوي على كرم نفس او رقة . فما اقل ما
يرافق حياة هذه السيدة من مباح ، وما اكثر ما يعرض لها
من ذل ! فاذا هي حرمت فوق ذلك ايام النبرج والزينة ، وهي
الايام الوحيدة التي تجلس فيها جلسة السيدة في بيتها ، فنها تحرم
لذاذة من نذائنها الرئيسية .

هذا ، وقد حصل لي يوم غادرت قري الباروك وصعدت الى
الذرى المجاورة التي هي اعلى علواً ، ان عبطت عن هذه القمم
والبلبل يوحني دون ان يباح لي بلوغ بيت مأهول . فوقفنا عند
خربة من كوخ مهجور ذهب سقفه . فلم يكن ميسوراً لي ان
اوي اليه ، فاضطرت الى التماس المأوى في كهف صغير يتدلى
من سقفه دكام مخيف من حجرة ، نزعنا منها ما يمكن لزع
واخرجناه من الكهف . وبسطت السجادة ارضاً . ففرحت بان
اربع غلبي مفاصلي التعب . وكان العشاء نزراً بغير تناولته من
بقية الزاد . ثم انتقلت ، في هذا البيت الفقري ، الى نوم عميق عمق
نومي فيما لو كانت الفرش الواسعة في غربي وراء الالفنيك
حاضرة لدي .

معبر في غاب الارز

فوق الباروك

يقع هذا المعبر في الطريق بين دمشق ودير القمر ، على بعد نحو ثلاث ساعات من دير القمر . الوقت لا يزال غدوة ، والنسيم الجبلي منعش في غدوبته ، وحبنا به ترحيباً على اثر مبيتنا الليلة السابقة في كوخ سوري لم تصادف فيه راحة . والتلج على اشجار الارز وقتي الجبال يخفف ما في طبيعة المشهد من وحشة وجفوة ، وقسم لبنان تنجلي امامنا اسبه بأمواج البحر ينقلب بعضها على بعض . وتعرض لنا صخور عن بين الطريق تحيم على ممشانا ، وتطل من بين شقوقها - هنا وهناك - شجرة مستنة ترعى عندها قطعان من ماعز يبدو انها تحس المكان إرتناً لها منذ الفطرة .

انها لمعارضة قوية بين هذا المعبر القفري والذات والمباهج التي عرفناها في دمشق خلال ايام عدة قضيناها فيها . لكن أليست أخصب عواطفنا وأطيب منعا هي ، في الغالب ، نتيجة مثل هذه المعارضة القوية ؟ فمن الجنة الى الصحراء ، ومن الرمل المحروق الى الشبوع ، ومن دمدمة العالم المتهلك ، حتى عالم الجبال ، الى اندفاع السيل الجبلي وزعقة النسر وضراوة الجبال !.. وكانت غاية الارز والبلوط التي اوشك المسافر ان يدخل فيها ، هي الغابة الوحيدة الماثلة للعيان . شد ما كانت نوحى بشعور

الصداقة ، حتى ظلامها نفسه كان شيئاً جميلاً . وقدام هذه الغابة
 وخلفها وعن جانبيها ، كانت سلسلة من المرتفعات ، مسننة عارية ،
 او ذات طابع كطابع الحديد ، قائمة على شكل ابراج ما زالت
 عواصف لبنان الشرسة تلطمها لأجيال وأجيال . واجباناً تحترق
 هذه المنحدرات تغرات هابطة ، صعبة على النزول ، منهوثة
 الجوف لشدة ما جرف منها ، مثمة الحطافي مقلصة ، يلوح انها
 تنتظر في وجوم ووحشة ساعة الانبيار ، فقد تعبت من امتداد
 الاجل . على ان الانحدار الى الغابة كان احلى جداً وادعى الى
 البهجة . فالمرحنا مكسو الجانبين بالاعاشيب والازهار البرية ،
 يهبط برفق ولطف صوب قلب الغابة وبضئ ملتوياً خلال ظلالها
 ومنفرجاتها ، ليعضي من ثم الى اعماقها الخافتة الغارقة في الصمت ،
 لا يرتفع فيها إلا رنين جليل الجمال بصوت غريب كئيب .
 ذلك موضع لم يكن ليجوز تركه على استعجال . فالصخور
 السوري لم يقدم لنا ما ينعمنا ساعة الرحيل . ورأى المسافر ان
 جذع واحدة من هذه الاشجار الشريفة - اشجار الارز -
 يكون موضعاً طيباً للراحة وتناول طعام الافطار . فما أسرع
 ما أوفدت النار وحيث القهوة ، وبدأت تلك البقعة المعشبة ،
 المظلة كالسرادق ، أبعث على النشوة من اتوف قصر عثماني في
 دمشق . ولم تكن في اخرج البعيد القريب رقابة ما تدفع
 السامة والملل . كانت جادانه ومسالكه غر فوق منحدراته رأساً ،
 او ثلث حوقاً التقافاً ، او هي تشد طرفها على صكتل من
 الصخر القديم مبسوطة او مقببة ، تبدو كأنها اسرى ضاغطة
 نأسرها هذه الغابة الازلية ذات البأس والعزم .

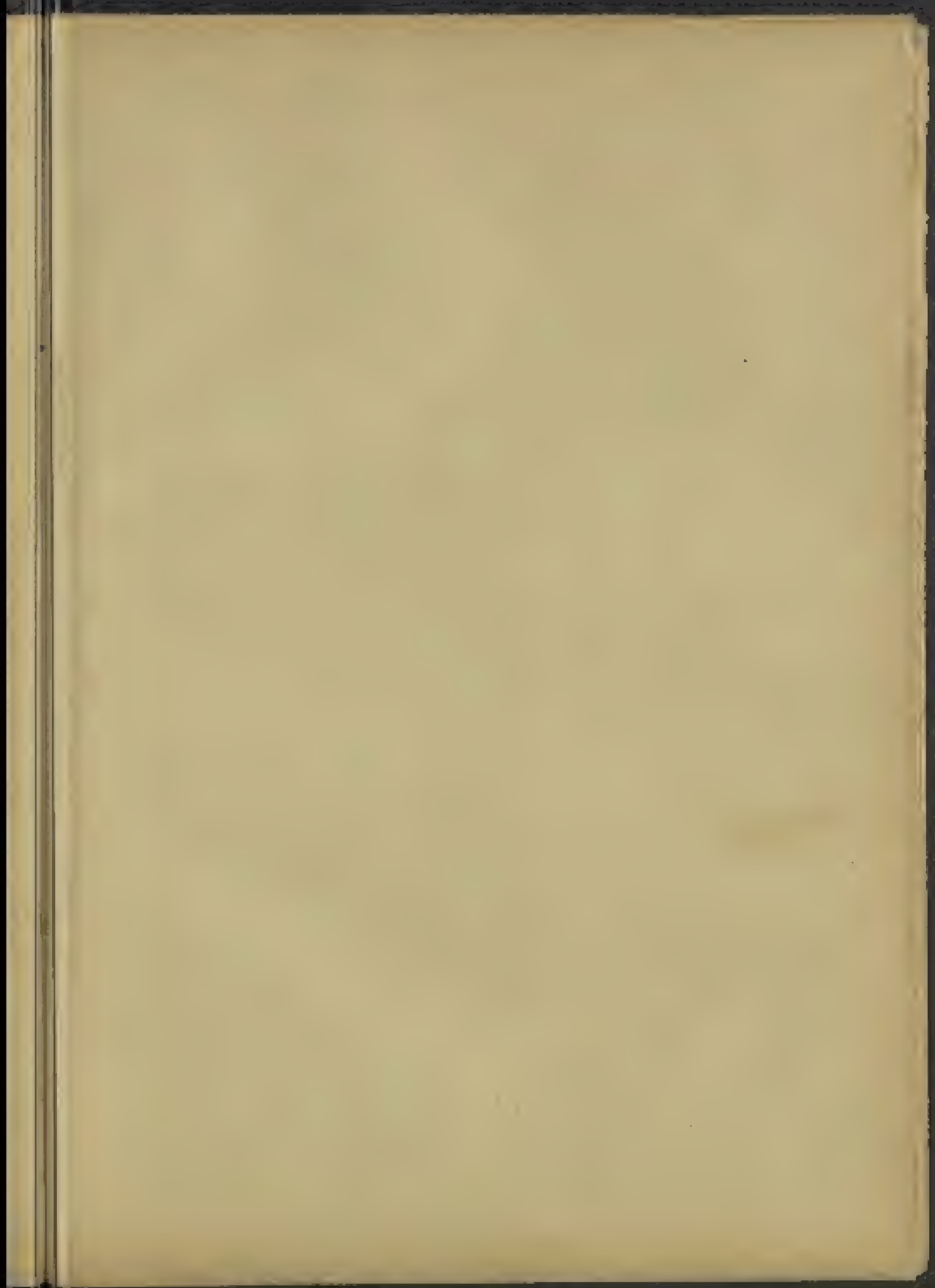
أما مكان هذا المعبر ففوق الباروك : قرية درزية كبيرة
 واقعة على الضفاف الطليقة - ضفاف نهر الباروك . وقد أجرى
 الشيخ بشير فرعاً من هذا النهر الى قصره الجبلي في الحجاز^١ .
 وكان مصير هذا الرجل الوجيه الذي نفس الامير بشير في
 بيت الدين ، اجلاً طويلاً ، على النفوذ والشهرة ، مصيراً محزوناً
 ومدمجاً على التقريب . كان الشيخ بشير غنياً فطناً ، فارس
 حرب يبرز الامير نفسه . وكثيراً ما كان يتولى قيادة القوات
 المشتركة بينهما . ومن هنا لم يكن الامير يستطيع عمل شيء ذي
 أهمية إلا بموافقة الشيخ ومساعدته . ومن هنا ، ايضاً ، كانت
 الامير يضطر الى مقاسمته ما يدفعه الجلبون او ما يبتزونه منهم .
 ولقد كان الشيخ بشير درزي المذهب ، يحبه اتباع هذا
 المذهب جميعاً^٢ . وعلى هذا كان يلوح ان الزعيمين
 منسوبةين في الوجاعة والنفوذ . إلا ان الامير كان في الحقيقة
 اوفر قوة واكثر حكمة . ومضت سنوات حافلة ظهر فيها الرجلان
 على احسن علاقة . فكان الشيخ ، في كل اسبوع على التقريب ،
 يأتي من قصره في الحجاز ليجوز الامير في بيت الدين ومعه
 مركب صغير من الخيالة . اما الامير فكان يستقبله دائماً بأعظم
 تحارب . والمشهور عن هذا الشيخ انه كان امراً سخياً شجاعاً .
 وقد شاعده الكاتب في زيارة من زيارته الى قصر بيت الدين ،
 فرأى فيه رجلاً مديداً ، معافى ، مستدير الوجه ، زهري

١ كذا في الاصل : Mochtar . والمقصود : الحجاز . - المغرب .

٢ استغنيا عن عبارة لا توجد في الموضوع ولا تنقص منه . - المغرب .



1870. 10. 10. 10. 10.



البشرة ، له عين زرقاء سريعة الومض ، ولباس بسيط على الطراز
الدوزي ، وملاصيح اعبر عن القوة والطيبة وشيء من شراسة
الجبليين .

فلما فر الامير الى مصر ، ولبت فيها شريداً منقياً ، دخل
الشيخ بشير هذا في محالفة وشقيق الامير ، بغية الاستيلاء على
امارة لبنان . على ان الباب العالي ما عظم ان اعاد الامير الى
امارته بشدخل من والي مصر . فلما رجع الامير بشير الى
بيت الدين ، حتى بات شيخ الخنارة عرضة للانتقامه . فطلب منه
الف كبس عوضاً من خسائره ومن نفقاته في المنفى . فأبى شيخ
الخنارة ان يدفع ، وانسحب من قصره ، ودخل للمرة الثانية في
محالفة وشقيق الامير ، واستدريج الى الشركة في هذه المؤامرة
ثلاثة آخرين من صغار اخوة الامير^١ ، وكان هؤلاء قد لبثوا
في اقليةهم دوناً لاختلاط بالمكاييد التي تحاك ضد شقيقهم الاكبر
صاحب البأس والنفوذ . وكان محتملاً ان تؤدي هذه المؤامرة الى
القضاء على الامير ، لولا النجدة التي تلقاها من صديقه عبدالله باشا
والي عكا . وطورد الشيخ بشير واعتقل في سجون دمشق ومعه
حرس من مائتين من اتباعه . وكان بوسعهم ان ينجو بنفسه في
سهولة ، إلا انه وثق بما قطع له الضابط التركي من تأكيدات
باسم باشا دمشق ، فاستسلم واقتيد الى تلك المدينة ، حتى اذا بلغها
جبرّد من ثيابه وشدت احدى يديه الى امام كما شددت يده

^١ لم يكن للامير بشير اخوة اصغر منه . بل كان له شقيق واحد
اسمه حسن . ومن المؤسف ان المؤلف يشير الى بعض ابناء الامير ينير ممن
اشتركوا في المؤامرة ضده ، فحط بهم وشردهم . - المغرب .

الأخرى الى وراء ، ودفع به الى السجن ، فسكت فيه شهيراً .
 ثم حوكم في استيول وحكم عليه بالموت . لم يطأوا ايضاً توب
 على سيجانه ساعة أدنى منه حبل المشقة . لقد واجه مصيره بجأش
 رابط . والنف الحبل على عنقه فضقه . ثم فصل رأسه عن جسده
 الذي قطع إرباً ورمي للكلاب . أما أخوة الأمير الثلاثة الصغار
 فاعتقلوا عندئذ ، وقطعت ألسنتهم ، وسمات أعينهم ، ثم نفي كل
 واحد منهم مع أسرته الى قرية خاضعة بعيدة عن الأخرى .
 ومنذ ذاك العهد ، أصبح الحدود يخشم على ليلسان بصورة
 ليلية . فلبس الأمير ملابس الآن . وقد غرر شرفه وثبتها في
 أمارته ليلياً أوفر منه في السابق . وكانت حذافه عندئذ بلش .
 واني عكا ، حصناً وأقيلاً له الى انت فبر ابواهم وجيشه المجهز

١ لم يؤخذ الشيخ بشير جيلاط الى الأستانة . ولم يكن مصروفه فيها . وإنما كان في
 عكا . أما تفصيل الأمر فهو ان الأمراء والمناجيج الذين ترفعوا على الأمير بشير في عكا
 الختارة المشهورة ، انصرفوا بعد الخفاق حركتهم الى يبروا الى قري الحذور هربوا
 غربة نوا . فلما بينوا حتى تمام العسكر الذي أرسله وزير دمشق في ملكه . وسمع
 قائد العسكر الشيخ بشير عندهم هذا به . فمهد الى دمشق وجلس في قلعها . وبعد
 حتى طلع عبد الله باشا والي عكا من وزير دمشق ، فأخبره بما . فلما سمع الشيخ
 جيلاط في عكا ، كتب الأمير بشير الى عبد الله باشا يسأله ان يقيه . فوافقه عبد الله جيلاط
 في الأمر . فكتب الأمير بشير الى محمد علي باشا عازم مصر يسأله التأييد في حق والي عكا
 على قبل الشيخ بشير . وكانت غفلة علي باشا . فمد على عبد الله باشا . فو الذي انقضى من
 غضب السطاح وإعانه الى ولايته بعد عزله عنها . فلما قدم رسول محمد علي علي والي عكا
 طالب منه قبل الشيخ بشير . فزولا على رغبة الأمير بشير . حتى أخرج هذا في ليلة طلع .
 فقتل الشيخ بشير خنقاً . وطرح جسده ثلاثة أيام أمام باب عكا . من تاريخ الأمير
 الشافعي ، طبعة نوح القصب : من ١١١٣ ، ١١١٥ . (العرب .

عبد الله هذا . واليوم يتوقف بقاء الامير بشير على دوام حكم
ابراهيم في سوريا . فالامير قد واطأ الفاتح المصري مواعظا ذهب
فيها الى حد بعيد ، بحيث يتعذر عليه ان يفوز بعد اليوم بوض
الباب العالي . على ان يوسع له ان يتقرب ، آمناً في قصره
الجليل ، نجم السلطان الذي يشع نوراً شعوباً سريعاً كما تدل
الاحتمالات كلها . ويوسع أيضاً ان يتحدى الاقدار نفسها ان
تستطيع تنقيص سنواته القليلة الباقية نبأ من المشقة او من
خلع السلطان له في اصطبله .

وترى في اسفل الرسم ، صفة هذا الفصل ، اعالي وادي
الدوز . لا تبعد عنه قاعدة بيت الدين إلا مسافة ثلاث ساعات .
كذلك على مسافة ثلاث ساعات من هذا المكان ، يقع على جانب
الجلل قصر الخزانة الذي خلا الآن من سيده . وهو قصر يقوم
وسط عشيرة الدوز اليزدكيين^١ وواجه شيوخهم . وكان منتظراً
من هؤلاء ، بما يذلونه في الوقت المناسب من ولاء وشجاعة ، ان
ياخذوا رئيسهم الكبير من مصيره القبيح المفجع .

١ للثلاث بقصد اليزدكيين . العرب .

جبل الشيخ وحرمون

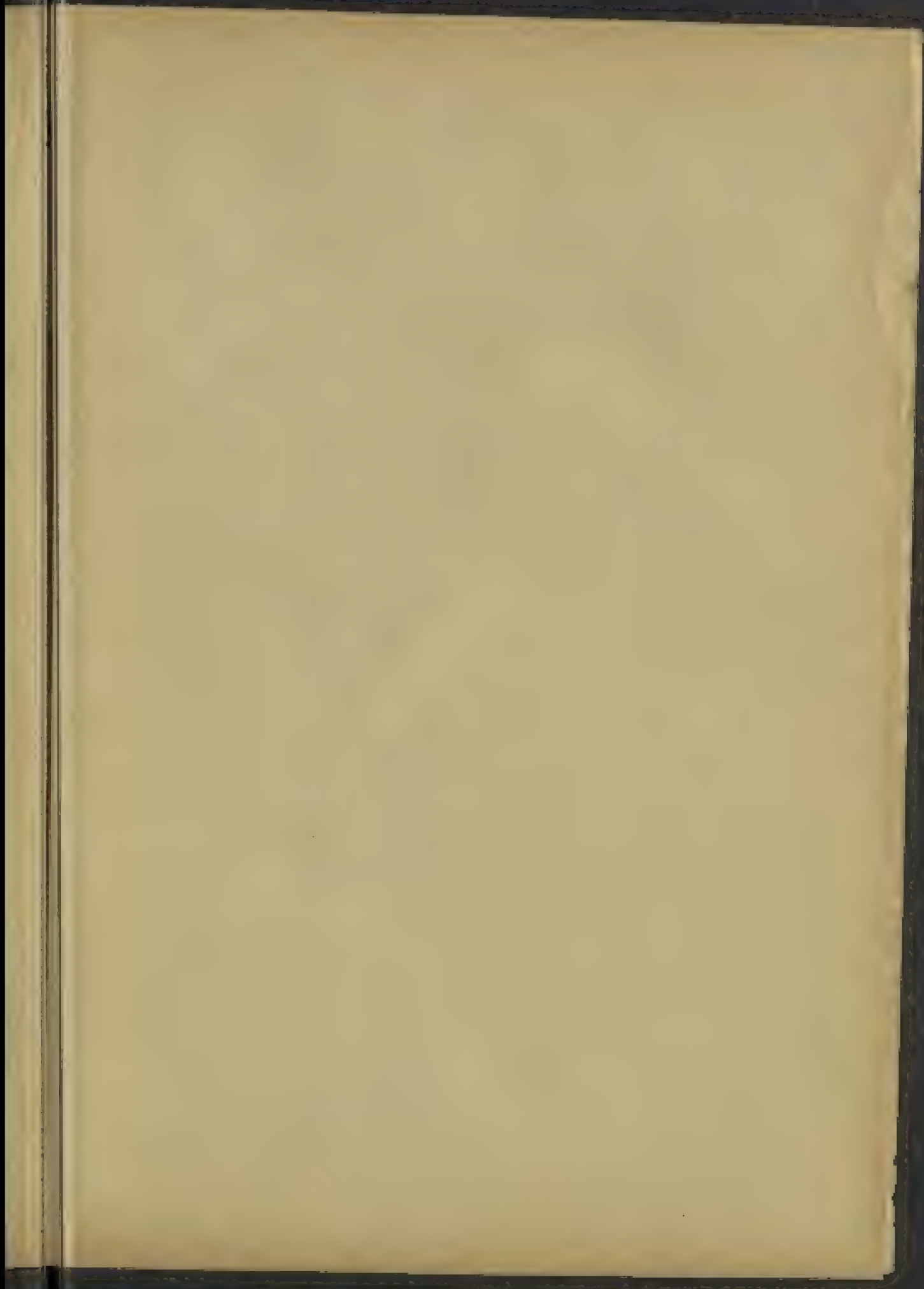
من على رأس لبنان

يتراءى هذا المشهد البديع من على رأس الممر الذي يمتد من قرية الباروك الكبيرة الى قرية جب جنين ، على الطريق من دير القمر الى دمشق . ورأس الممر هذا نقطة تشرف على مدى سهل البقاع وبعليك ، لتفسح من ثم في مرمى للنظر الى فلسطين - الى بعيد . حقا ان هذا المشهد شرقي على النمام ، مطبوع بسياح كآبة ، وفقرى بري لم يعالج - او لم يكبد يعالج - بحراة ، لكنه يوحى بالجد والجلال . اما الجبل في مقدمة الرسم فجبل الشيخ ، مغطى القمم بالثلج ، عاوه اعظم علو في سوريا . وهو يندمج بسلسلة جبل حرمون الطويلة ، السلسلة التي تمتد الى فلسطين .

يكاد لبنان هنا ان يكون مكشوقاً ، تبدو منحدراته موزعة عليها الجلامد الضخمة . اما الحس الذي ينمو في نفس من يجتاز هذا الممر فحس الكآبة ، حس يستوي على المسافر بينا هو يدرج على مهل في طريقه تحت غمرة من ضوء القمر . وتزيد في رهبة المشهد عبوسة الليل وسكينته ، فيبدو كل شيء خلافاً موحشاً . وتنامل العين ، في شوق ولهفة ، سهل آسيا ، وتنامل عن



Mount St. Helens, Washington



مديتها ودماكرها ومواضعها المأهولة ، فلا تبصر إلا جبالاً مخاسية
عارية مخيفة ، وإلا سهولاً يسدو أن حلق فوقها ملك القناء .
ولست بعلمك البعيدة سوى حفن بقعة خضراء ترواي منعكسة
على الآكام الكلسية .

ومع ذلك ، فالمسافر لا يملك أن يتأمل ويتأمل ، برغم صعوبة
الطريق ووعورها ، ويكاد يعجز أن يسلم بصره عن هذا المشهد
الذي يسري أثر مهابة وكتابة سريعة سريعاً إلى أفكار المسافر
وتصوراته . ولاحظ لنا في البعد بحيرة تلالاً بين الجبال . كانت
تلك على الأرجح مياه ميروم (Metom) . لكن الدليل قال
إنها طيرة . على أن تقديره كان مستحيلاً .

في الشتاء ، لا تجتاز هذا المر الوعر الوحشي إلا قوافل
صغيرة . ومن عادة المكارين ، في مثل هذه النقاط الصعبة ، أن
يسطروا أمام بغالهم سجاجيد تنع حوافرها ، إذ قر ، من أن تسوخ
سوخاً عميقاً في الثلج . يقول بركهاردت Burckhardt : « لقد
عبوت هذا المر في آذار . كانت القمة يومئذ متوجة بالثلج ،
وعليها ضباب كثيف . وكانت قد مضت علينا ساعة ونصف
الساعة ونحن نصعد صعوداً من قرية الباروك القائمة على الضفة
الطليقة - ضفة نهر الباروك التجاج . ولو لم يكن قد سبقنا
ببضع ساعات رجلٌ من المكان ، فخلف آثار خطاه ، لتعذر علينا
أن نبتدي سبيلنا . مراراً غرقنا إلى الخواصر في الثلج ، حتى
إذا بقنا القمة أضعا آثار خطى الرجل . على أني اكتشفت نهراً

أعلاه الخوة . - المغرب .

يجري تحت الناج ، فالتحذت من مجراه وتبلاً . ورغم ان صاحبي
الدرزي استولى عليه القنوط والحب بالرجوح ، فقد استأنفت
الزحف ، أفع مراراً وأقوم ، حتى أفضيت الى سهل القناع ،
على مسافة ساعتين من القمة .

التج لا يرم عن قمة جبل الشيخ على مدار العام . ويرى
هذا الجبل رؤية حسنة من صور . ومنظره مسن سهل مدينة
دمشق ، في الصيف والحريف ، منظر جبل مريح لأولئك العين .
وشد ما يظيب البصر ، بعد ان يكون قد شبع من المزارع
والعرائش والبساتين ، ان يروح متكسلاً على رفاه تلجج البقرة .
وكثيراً ما استهينا - ونحن نجوس خلال المواقع الضيقة الحارة -
ان نتطلع الى قمة الباردة الباردة . كأن مشهد هذه القمم
بالذات يدي من فلق الوهم وينطف من حدة الحرارة والظلمة .

مشهد عام لبعلبك ولبنان الشرقي

كانت جمع من خيالة ابراهيم باشا قد توقفوا عند الخرائب لبضعة ايام ، يستغرقون في كل يوم بضع ساعات في تمارينهم العسكرية ، ويدل مظهرهم على النشاط والصحة وهم فوق خيولهم العربية ، وبينهم عدد من الخيالة اللبنانيين الذين امد بهم الامير بشير خليفة ، ومما من هؤلاء الا من هو مسلح برمح وسيف وبعضهم مسلح ببندقيات علقوها بالاكثاف وراء الظهر .

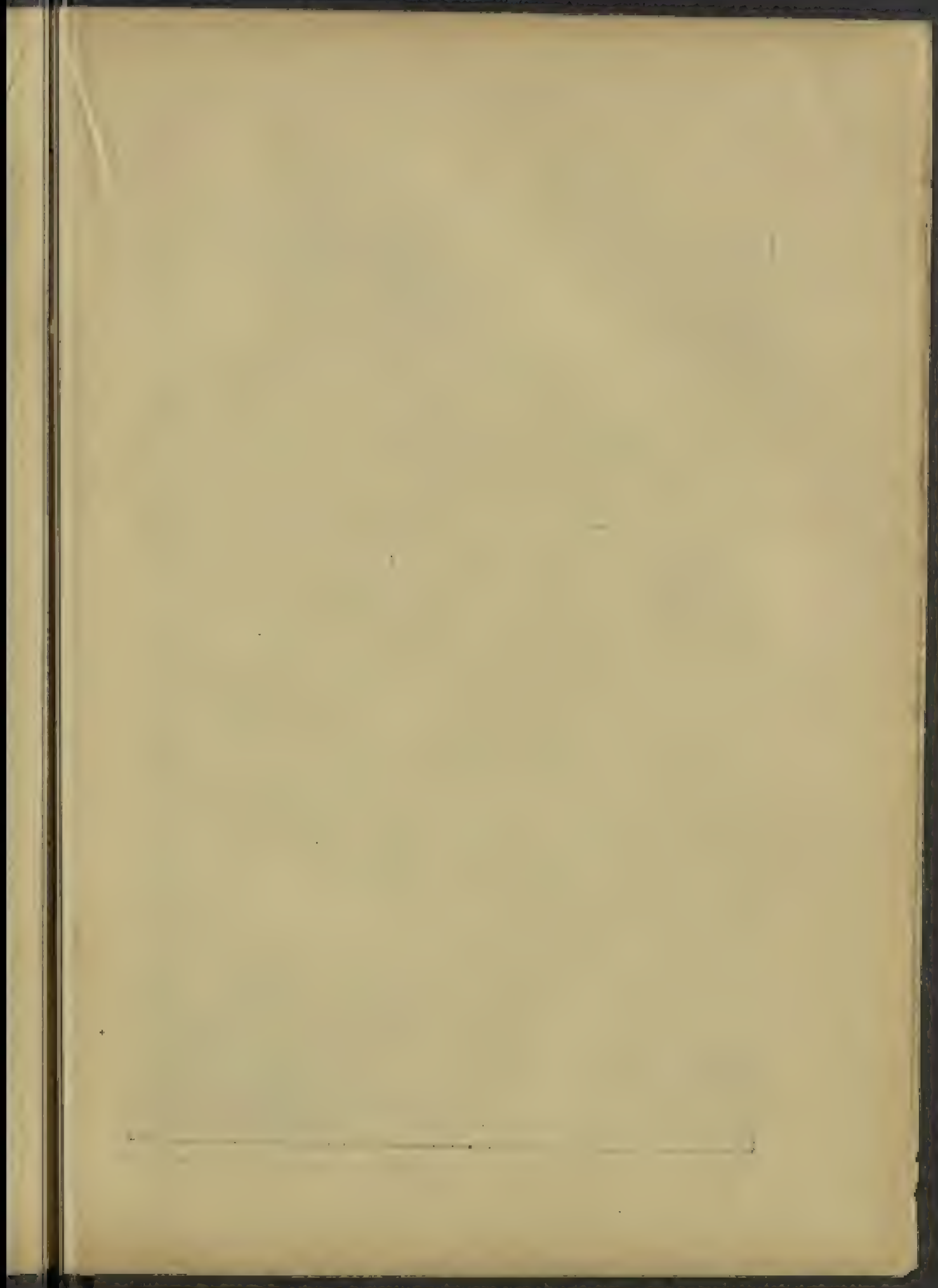
كانوا يقومون بتأديتهم في السهل عند سفح جدران الهيكل العظيمة . وكان مشهدهم بين الخرائب ، وهم في ملابسهم الملونة فتوتاً خفيفاً ، مغرباً جداً بالتصوير والتأمل . وكانت حركاتهم رشيقاً ، يندفعون احياناً اندفاع الريح بزاء الاعمدة والجدران ، ويترقبون سكون المكان بصباحاتهم العالية . اما خيامهم البيضاء ، وراهم ، فكانت تغطي على السهل خيالة . وكانت السلحهم المركومة ، وخيولهم المربوطة الى جانب ، واشكالهم البرورية المتحركة تحت الاشجار او المستندة الى حجارة الهيكل المتداعي ، تبدو جميعها في معارضة قوية مع الهيكل وروعته وجلاله العجوس القمطوب .

ينقل هذا الرسم منظراً بجملاً ليعطيك . ويتراءى هنا ، على وجه
خاص ، الجدار الخارجي العظيم المصنوع تصديماً شديداً ، ومعه
جزء من باب الهيكل الكبير يبدو بنصف المحنة وحسب ، فائدة
ان هذه الناحية ، وقد مال احد هذه الاعمدة ولم يزل متصدعاً
بتأجه على جداره الأم ، يبدأ يستقيم اسفل في البركة الصافية تحته .
وفي وراء ، فكل الاعمدة الستة المنفردة المستوحشة الكتبية ، وهي
مشرقة بعلاقتها على الخراب كلها ، ومعلقة في روعة جملة .
ويحيط بهيكل العظيم جدول من اللباني يعكس على صفحة
مياه الاعمدة النيرة ويغمر ويصل حول الانقاض المسهورة .
ومن حسن حظ يعطيك ان ابراهيم باشا لم يكن له ذوق في
التخريب كمن سبقه من الفاتحين الذين نزلوا المكان : الا انك مثلاً ،
وفخر الدين الامير الدرزي الشير ، عدا الزلازل الارضية . وان
من العجب ان يكون قد بقي هذا المتدار من هذا الزكام الجليل
المريب . مراراً حول هذا البناء الى حصن حربي ، فاستعملت
مراده الاثرية لتشييد الابراج ومعافل الدفاع . ومع ان زحواً
من قوات ابراهيم قد عبرت مراراً بهذا الموضع وتوقفت فيه ،
ومع ان موقع الحرب قريب من يعطيك - الامر الذي يعرض
لمخطر سلامة هذه الآثار النفيسة - فانها قد ظلت بأمن ومنجى .
ولا بعد حصن - المدينة التي دارت فيها رحى اول معركة
كبيرة - سوى يوم ونصف يوم من يعطيك .

... الى الطرف الاقصى ، من عن يمين ، ينجلي الهيكل الصغير
المستدير الشكر ، هيكل منفصل عن سائر الخراب مسافة ستين
ذراعاً انكليزية تقريباً ، بسيط في جماله وله طابع انري مريح



مشهد عام لعمك ولان الشرق



مؤنس بعد عظمة الهياكل الاخرى الصغيرة وسعة انفساعها .
 ويشيد هذا الهيكل سائر الهياكل المجاورة في انه مبني بالحجر
 الكسبي المرحوم ، حجر يقبل الضل النساء ويحكي الممر
 المبرغ ، ويوجد على مقربة من الخلة ، يسكون ابيض عند اول
 انقطاعه فاذا تعرض للطقس اشج بسجة حذراء او حراء . وقد
 سبق لهذا الهيكل في زمن ما ان كثر من العبادة المسيحية .
 فان شكك غير العسادي وزخرفته ليجعلانه موافقاً لايمان اعدا
 وانى منه فيكل وتني . ويرقى الى هذا الهيكل بسلسلة من
 ادراج بيئة تقود الى عتبة قسيحة مزينة ترتيباً سطحياً بالافانيز
 نعلوم فبطرة بديعة الصنع . ويقدر باطن هذا الهيكل باربعين
 قدماً طويلاً وعرضاً . اما خارجها فيبدي ستة اعمدة كورنتية
 الطراز ، مصفوفة على ترتيب خاص . ومفصولة عن الخائط ، يوكز
 على كل واحد منها في حالة الاكتمال صفيح فاني مزركش ، مما
 يسبق على ظاهر الهيكل عن بعد حياء مضلع سداسي الاضلاع .
 وبين كل عمود وآخر منصب لنصب الخليل . وشدة ما هي جملة
 هذه الاعمدة الحقيقية المشوقة التي لم يبق منها على حالة مرضية
 سوى اربعة . اما السقف فقد عبط . واما مادة بناء هذا الصرح
 فيجبل لرائبها اول الامر انها مرمر . وكثيراً ما اخطيء في
 تقديرها على هذه الصورة .

والوسائل الواحة المسافر في بعلبك وديشة . والدير
 الارثوذكسي فيها ، اذا استحق مثل هذا الاسم ، حقير قدر ،

١ ليس في علمنا ان في بعلبك ديراً ارثوذكسياً . - العرب .

نقوم في باحته الصغيرة بضع خبثات موحشة هي مكان النزول
المعد للاوروبيين . وقد كان نصيبنا واحدة منها . على ان الاقية
الفسحة المعتمة ، تحت القباكل ، كانت تكون لنا ملجأ انظف
وادعى الى التأثير .

ولا نقبل في بعلبك إلا بضع عائلات مسيحية يخدمها كاهن
فقر . وسائر السكان جميعهم محمديون .

خرائب بعلبك

الطريق من دمشق الى خرائب بعلبك ملائ بالطراف والمنازل .
ترامنا فقريّة صخرية في مواضع ، ثم تنقلب هجسة مؤنسة تحاذي
بقاعاً محرونة حرثاً طيباً . وعلى مداها فرى فسائنة المواقف
تعرضها أصوات ومشاهد باعثة على النشاط ، هي أصوات الجداول
ومشاهدنا في انصبابها السريع . اما تدمر ، فان الساعي إليها
لينطلق عبر ارض حارة عطشى ، لا تنخلها واحة تدعو المسافر
الى الترويح او تدعو خياله النائر الى الوقوف عندها . لكن مع
ذلك ، فقد يكون ان الحرمسان الذي يستوحشه بلوغ تلك
الخرائب ، وقد يكون ان هذا العياء الشديد ، كلاهما يزيد في
قيمة هذه الخرائب في رأي العين .

ان زيارة بعلبك لأقرب الى ان تكون غزوة بديعة ، ينخلها
- هنا وهناك - من البقاع الفقريّة الوحشية ما يسبق عليها
طابعاً من التنوع الرائع المدهش . ويزيد موقع هذه الخرائب
في شدة تأثيرها في النفس . فالسهل الذي تقوم عليه الخرائب
يكاد يكون خلواً من مرأى الاشجار . لكن على جانب الهيكل
ينجلي بستان صغير من شجر الجوز والصفصاف والجوز والدردار ،

بينما ترتفع ، على كذب ، السلسلة الطويلة : سلسلة جبال لبنان
الشرقية . اما مدينة بعلبك الصغيرة ، فمرصرتها على نهر من
الارض بمجاور ملاحظ ، يتعاضد مشهد مآذنها البيضاء الرفيعة
نعارضا فذاً ومشهد كتلة الخرائب السوداء . والحق انها دنيا
كاملة من الخرائب ، دنيا منعزلة مقدسة ، لا يحل فيها العربي
الصحراوي شأنه في تدمر ، ولا تدنسها يد الاجنبي شأنها في مصر .
والناس المقيسون حوزها شعب رعائي مسلم . ويبدو ان الشمس ،
التي شتيد انبعاثها على اسمها ، لا تزال متوينة في المكان تشرق
بمجد انفس وأشمس ، ترسل اشعتها القرمزية ، الاولى والاخيرة ،
على الخرائب الباكية الكئيبة : خرائب كالتقويم العربية المعزولة
في البوادي لن تفتح احشائها عن تطوي عليهم ، او تطأطي،
رؤوسها ، حتى ينفخ في البوق الاخير .

تتقضي ايام واسابيع كثيرة قبل ان تشع من بعلبك شهوة
الاطلاع ، او تضعف السعة والمدة بها . لكن لفرض انك عييت
بالسقاء ، هذه الجحطان المرمية ، والتقاطر المزينة ترتيباً غنياً
سخياً ، والابواب المرمية ذات اجوانب الضخمة العظيمة ،
والحجارة الصوالية المنزلة في الجدران الخارجية : تلك الحجارة
التي استغرق تنزيلها في مواضعها جهد امه بأسرها على التقريب ،
اذن فاجلس على هذا العمود الاسطواني الهاوي ، او على هذا
الناج الحجري الذي كان يكلل رأس احد الالهة : ها هو المساء
يقبل . وها هو العربي يخرج فصبته (للتدخين) . ثم ها هو
الفسق - الفسق الشرقي البديع الرائع الضلال - يستوق الخطى
جواساً خلال الانقاض . بالها من عنيات جملة تعلق الذكريات :

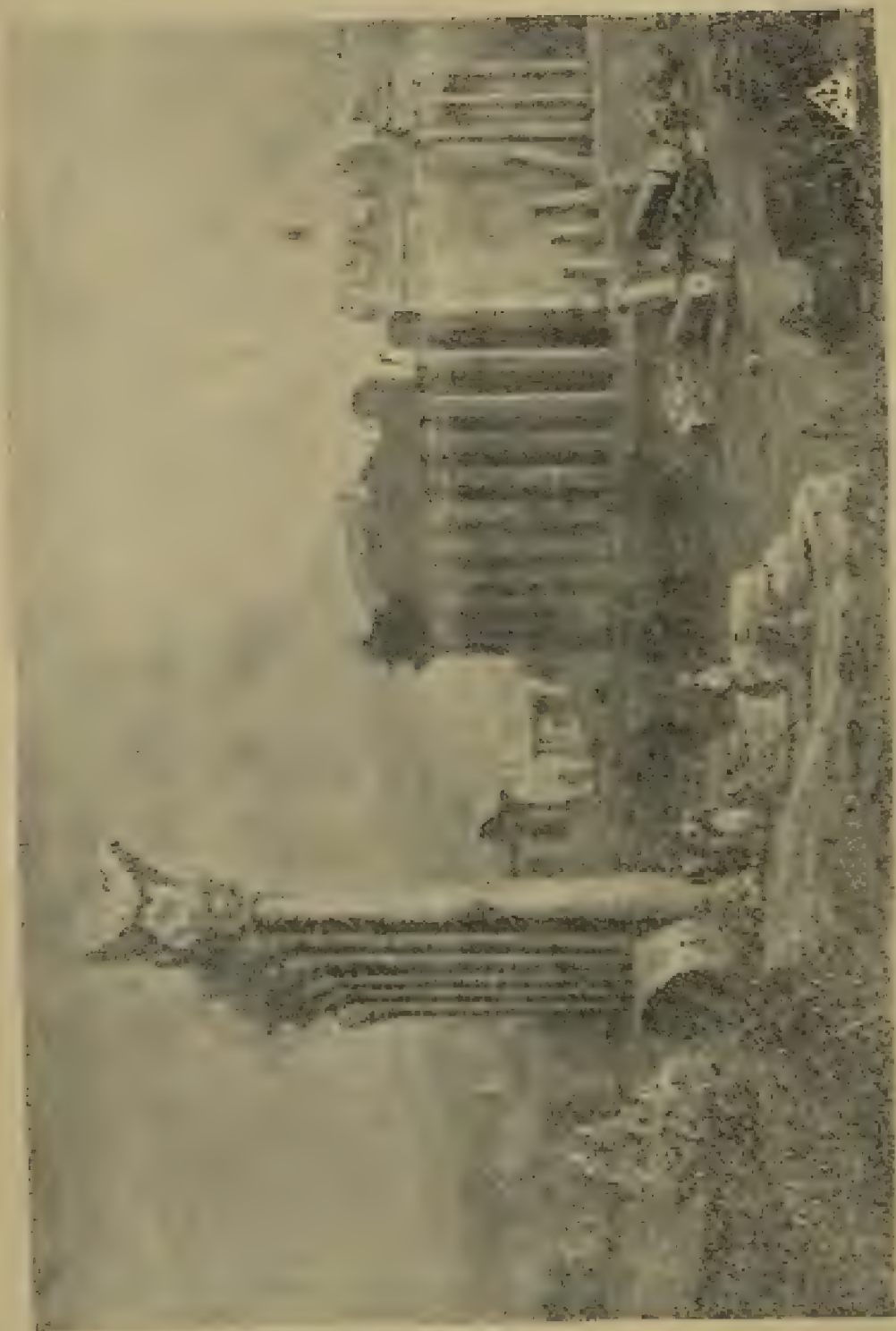
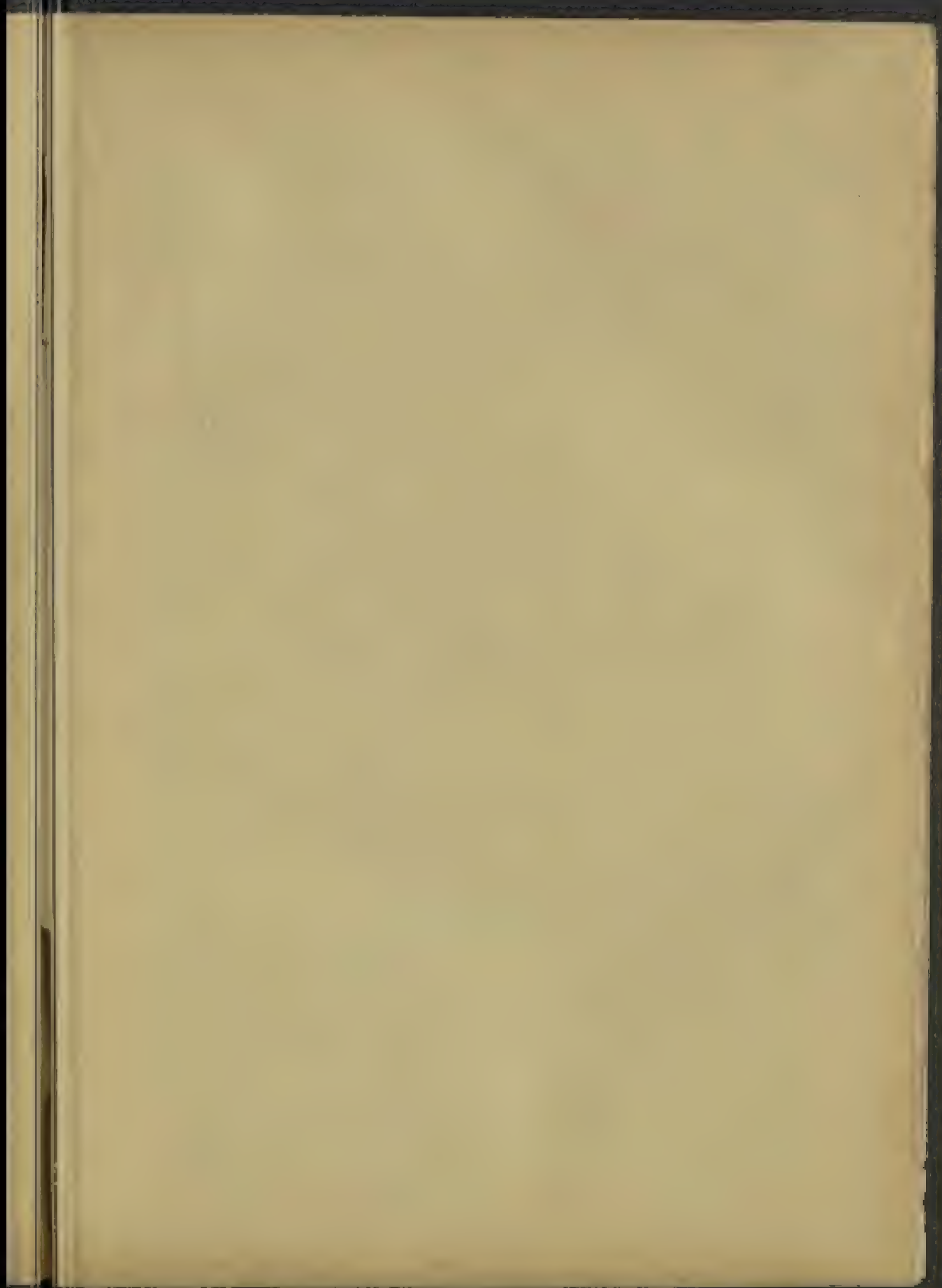


Figure 1



هتافات لا يطفو فيها صوت على الانقراض الدهينة والافاري ،
إلا صوت مسيل الماء بموج زبد الأبيض وتغور ببحراته الصغيرة ،
في القوه السري الغامض . الذي يتلاشى ويحى سريعاً عن
أحواب الميية . فبايها الزمان ! نداء هذه الخرائب نداءك وجلالها
جلالك . ولن يستطيع انلاك ، الذي سيحط قدماً في الشاطئ .
وقدماً في البحر ، انت ينطق برسالة ادعى الى رعدة الغبطة
وخشعة المهابة مما تنطق به هذه الخرائب عن الامم التي كدحت
هذا كدحها في سبيل الخلود . عنا بذل الهنود والمصريون
والعبرانيون واليونان والرومان قواهم ومواهبهم بذلاً سخياً .
كل امة منهم فجدت هنا ، ثم غاصت منساخطة بدورها . وكل امة
هنا انتفعت بجهود التي سبقتها . فمن الحجارة هنا ما هو منحوت
ومشغول تماماً كالحجارة في اعمدة القدس تحت الارض . حقاً ان
النشأة في الصنعة ليستوعبي الانتباه بقوة ، حتى ليرد الرائي عمل
هذه الحجارة الى شعب واحد وعصر واحد . فاذا هي فورنت
بأجزاء اخرى كثيرة من البناء . وهي اجزاء لا شك في انها
رومانية - انضج انها على الأرجح ترقى الى ما قبل ثمانية
وعشرين سنة ، الى العهد البعيد ، عهد سليمان ملك يهوذا واسرائيل
باني حمة وتدمر في الصحراء . ولقد شيد اللاجئون الذين استركوا
في إقامة هذا الأثر الضخم بناءهم على اساس من سبقهم . نحتوا
للحجارة القديمة وجوهاً جديدة كما يبدو ان العمل كله ينتمي
الى عصر واحد ، وكما تمثل العصور المختلفة التي اجتازها هذا
الأثر بضرب واحد من الحجارة الجارية .

ويتوارى الفسق في الليل . على انه ليل لا حضارس فيه .

نجومه شاحبة على صدر الجبل ، واشد شعوبها فوق الهيكل الذي
تعجز أضوائها عن بلوغ العمافه ومحاذيه . فما شابهك الساعة ان
تدلف بلسان الخافي الموحش . لقد انصرف البدوي الى راحته .
والملك تارة الحارسه تضطرم تحت الجدار لظراماً ضئيلاً . وعيانه
البيضاء تغطي النائم تحنها كالكنز . فما عسى ان تعني له الجدار
المصور الضخمة او الاجيال التي كدحت هذا وفيت . ولو ان
هذه الالوف من الاجيال اتبع لها ان للتم من حديق المصور
ودائر الامم فذهب من راحتها تحت انقاض اعمالها الجبارة ، لمساعد
غروبها المتأرجح فكان احفل بالكتابة والبراعة من الصراخ المائى
الذي يطلعه هذا البدوي فوق ضريح الصعراوي : ضريح من
الجباه .

انا ما يبدو في الرسم ، صخرة هذا القدر ، وهو الهيكل العظيم
على شكل مربع غير منتظم ، وموقعه الى المعنى اليسار . ثم يظهر
الى اليمين ، ذلك البناء المرمي الضخم على شكل مضارع ، ثانياً
الاضلاع ، بالعمدة على الطراز القورني . بحيث الاعمدة الستة البيضا
السياء في مقدمة الرسم ، وقد مناداه ووصفناها تزيلاً ووصفاً أدق في
هذه ورسم مسطليين . وفي مقدمة اللوحة أيضاً بناء اتم واكمل .
فما يعرف بالهيكل الثاني .

الهيكمل العظيم في بعليتك

خلال السنوات القليلة ، الأخيرة ، ازداد حظ السفر في الشرق
ازدياداً عظيماً من السهولة والراحة . واصبحت الاماكن لقضاء الليل
غير نادرة ولا باعثة على الاشتراك شأنها في الماضي . واصبح
المسافرون - وكانوا من قبل فلائل مفرقين - يقدون كل سنة
موفوري العدد . كذلك بات المسكاريون واضراهم يرون في
مصلحتهم ان يكونوا ارشق حركة ، وبات شبوخ القرى يحدون
لزاماً ان يكونوا اكثر مساهمة وبجاعة ، واسخى بدلاً في تلبية
الحاجات . وفيما كان قطع المسافة من بيروت الى بعليتك يستغرق
يومين ، اصبح الامر الآن لا يستوجب ازيد من يوم واحد
طويل المدى . فاذا غدا المسافر غدوة على السفر من الشاطيء ،
استطاع ان يبلغ الخرائب في الليل . وقد اتفق يوم انت زار
الكاتب هذا المقام ، ان كان هو الزائر الوحيد ومن معه من
جماعة قليلة . وليس هذا بالخط اليسير .

اصبح السائح يستطيع اليوم - لدى زيارة بعليتك - ان يدخل
في حبابه لقاء المواطنين من جميع اصقاع العالم المتمدن :
الاميركي من ماستشوسنس او نيويورك ، - وربما جاء في فئة

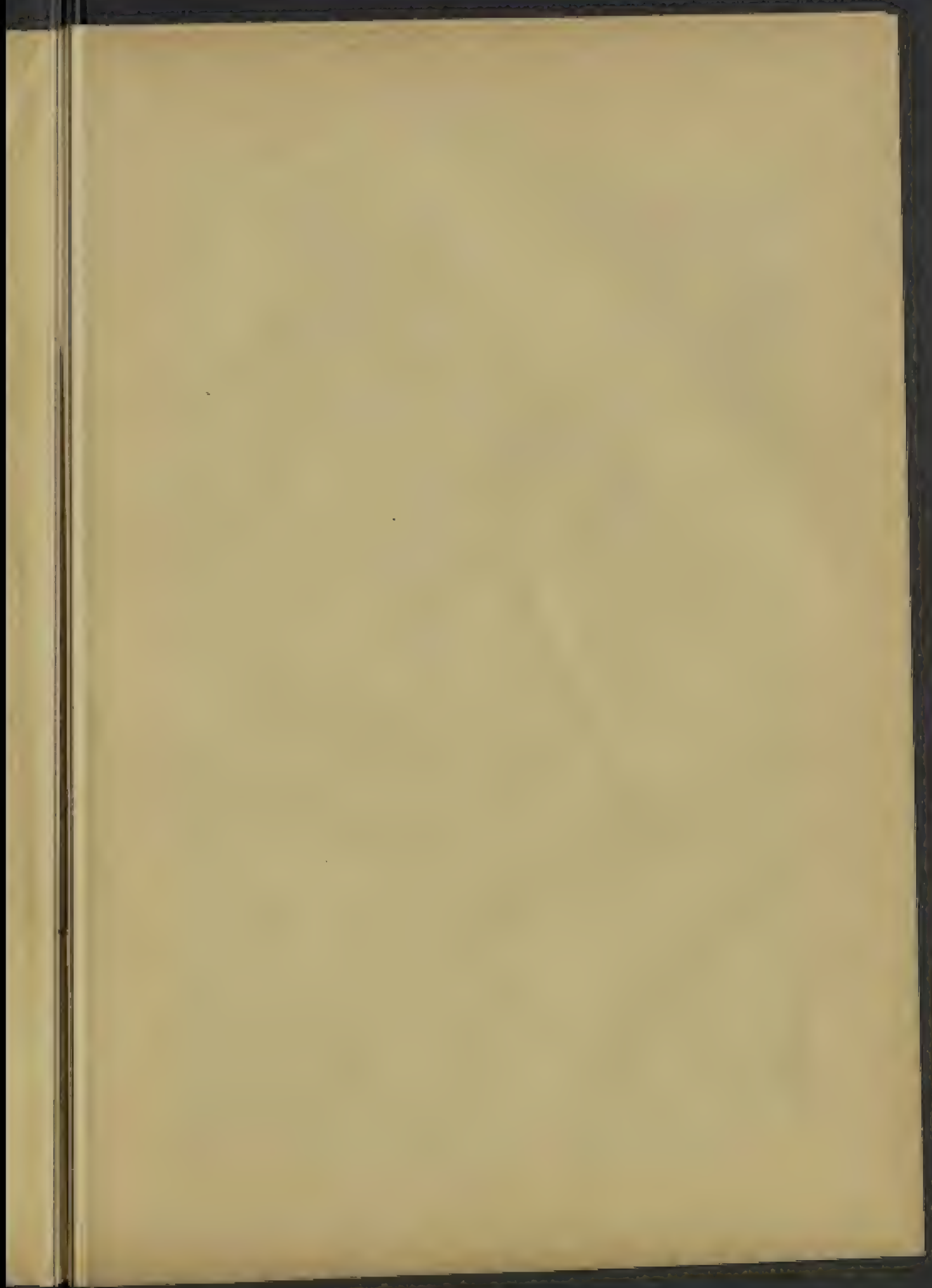
من اهل : زوجته واولاده - والروسي من بلاده الباردة ،
والاساني والبولوني واليوناني . فاذا لم ينح للسائح ان يشاهد
بعليك في جلال عزائها الصحراوية ، اتيح له ان يجتمع فيها
بالناس والخيم والنيوان المشعة والاصوات المخلطة والمشارب
والمذاهب المتنوعة ينعارض بعضها ازاء بعض في قوة وبروز .

وفي الوقت نفسه ، انخفضت نفقات الرحلة . واعتادت في عهد
ابراهيم باشا الضرائب التي كان يبتزها الزعماء والحكام الصغار ،
وقلت الضرورة للبدايا التي كان لا بد من تقديمها اليهم ، بل اني
هذا الامر في بعض الاماكن الغاء بالاً . وحتى لو فذر للسائح
ان لا يحمل توصيات الى القناصل في المدن ، فانه مع ذلك
يستطيع ان يعثر على منازل معسلة النفقة يتوقفون فيها في بيروت
وطرابلس والشام . اما الاديرة التي كثيراً ما يضطر المسافر الى
اللجوء اليها فانها رخيصة . وارخص منها الخانات التي قد يضطر
السائح الى اللبث فيها اياماً عدة لرداءة الطقس او لموافقتها الشاذة .
لكن من المؤسف ان اشهر مقامين الآثار في الشرق - اعني قديم
وبعلبك - قلما يلقى الغريب فيها سوى الارعاج وفقدان الباقة .
على ان الممول ان يأتي زمان يقام فيه فندق صغير خلال موسم
الزيارات في بعليك اذا استمرت مواكب السائحين . غير ان توقع
مثل هذه المحاولة في تدمير شيء عبت ، لان اعراب البدو لن
يأذنوا بن يبنى حجر على حجر . أنهم يحتكرون السائحين احتكاراً
تاماً لا يطاق ، وليس منه مناص .

واية كانت الآفة التي شبت على اسمائها هياكل مدينة الشمس
هذه ، وايه كانت الحطب التي شبت فيها ، فانها لنشيد بما كانت



三ツツツ



عليه المدينة التي تزدان بها من ازدهار وثروة . وبالطبع ، غير
ممقول ان يكون هذا الازدهار والثروة من مصدر سوى التجارة .
فموقعها البديع في هذا المركز الوسط مكنها تمكينا كبيرا من
ان تساهم في ذلك التبادل الفشط الرابع الذي اضطر زمناً
طويلاً بين الهند والمدن العظيمة على هذا الساحل المتوسطي .
امتد خضوع هذه البقعة لسلطان الرومان في البلدان المجاورة
لها . فكانت بعلبك ايام القيصر اوجسطس تكتف لاجدى الحاميات .
اما بعد عهد الامبراطور قسطنطين ، فالمرجع ان هذه المباني
الفخمة قدّر لها ان تكون نصيب الاهمال والانحطاط ، إلا ان
تكون كرسى للعبادات المسيحية ، كما يدل حقاً مشهد ما بقي
من هذه المباني على اكمل حال .

ويصور المؤرخون الشرقيون بعلبك مدينة عظيمة الامة في
اوائل الفتح العربي . يصفونها بأنها كانت من ابدع المدن الشامية ،
غنية بالقصور الفخمة ، مزينة بالآثار العريقة ، حافلة بالاشجار
ونوافير الماء وكل ما يزيد في المتع الترفية . ويوم زحف
المسلمون ، انبى الامبراطور هرقل بان المدينة تحميها قلعة عظيمة
بقوة فادرة ان تصمد على حصار طويل . حتى اذا سقطت دمشق ،
اعرضت بعلبك للهجمات المتواصلة . على انها كانت زاخرة بالسكان ،
مزودة تزويداً وافياً بالمؤن والمستودعات العسكرية ، فدافعت
دفاعاً بأسلاً . إلا انها استسلمت آخر الامر . ومما يدل على اهميتها
التجارية المستمرة ، ان الجيش المحاصر لها استولى انشاء الحصار
على فافة فيها اربعمائة حمل من حرير ، والقب صدر من دمشق ،
وسائر البضائع النفيسة . ثم فرضت عليها بعد الاستسلام غرامة

بمقدار ألفي أوقية من ذهب، وأربعة آلاف أوقية من فضة، وألفي
صدار من حرير، وألف سيف عدا سلاح الحامية. وكانوا يريد
تعويضاً عليها من هذه الخسائر، فأصبحت فيما بعد سوقاً لتداول الغنائم
النفيسة المنقومة من سوريا. إلا أن ازدهارها هذا لم يكن إلا
شبهاً طارئاً عابراً. ففي السنة ٧٤٨ م، أباحها خليفة دمشق للجنود،
فأعملوا السيف في معظم سكانها.

وجاء عهد الصليبيين فإذا بالمدينة عاجزة عن المقاومة. فأتت
أن تخضع بسلام لشية الأفوي.

وفي العام ١٤٠٠ نهبها تيسور التتري، وهو في زحفه على
دمشق بعد احتلال حلب.

ثم ملكها عشيرة المناولة^١، العشيرة التي كاد يفتيها الجزائر
باشا يوم أخضع الأقليم كله أخضاعاً دائماً لسيطرة الترك.

ليس في بعلبك بقية ما من مقبرة قديمة، وليس ثمة كهوف
ولا أضرحة في الصخور والآكام حيث يحفل أن يكون القدماء
اتخذوا لهم مرافد. ويخلو السهل من كل دكام أثري. لقد اندثر،
فيما يبدو، كل أثر قديم من عظمة سكان المدينة وثروتهم. وهذا
نهر اللباني، في مجراه الهاديء خلال السهل وبين انقاض الهياكل
نفسها، يمر فلا يغسل أبداً قبر موحش متروك قد ذريت عظامه المنقونة
منذ أجل بعيد، وبقي لها صدى يتوجع في غمامم النهر. أولئك
حكماء المدينة وأعيانها وقادتها هلكوا جميعاً دون أن يبقى لهم
تذكارة على يد المؤرخ أو النحات. ولشد ما هي خشيعة بكرة

١ حذفنا هنا كلمتين غير لائقيين - العرب.

معرفتنا ببعثك القديمة ، حتى ليبدو أنها مدينة من مدن الحكايات
العربية ، لا مدينة كانت لأجيال عدة مباءة ثروة حقيقية ونفوذ
ومتارف . ولعل ذلك هو الأفضل ، أو لعل المقدر أن لا يدوم
هذه المدينة إلا خرائبها العظيمة تروي قصتها . واية قصة باستطاعتها
أن تكون أشد فعلاً في النفس ؟ واي تذكّر للموتى باستطاعته
أن يكون أشد شجواً ؟ لكن ، أليس جميلاً رائعاً ، في زحمة
الأجيال المتسارعة وانهار الأشياء المقدسة العظيمة المصنوعة على
اسم الخلود ، أن يستطيع الإنسان الكلاء على واحد من هذه
الاعمدة ليفكر في أن القرون ليس شأنها دائماً شأن حكاية نحكي ،
وليدرك أن الحياة ليست أبداً عبثاً عقيم بل هي قدوة على
توريث مثل هذه الآثار !

فتن تعبر هذه أهياكل عبورها إلى الفناء ؟ مني تغوص
نفسها ؟

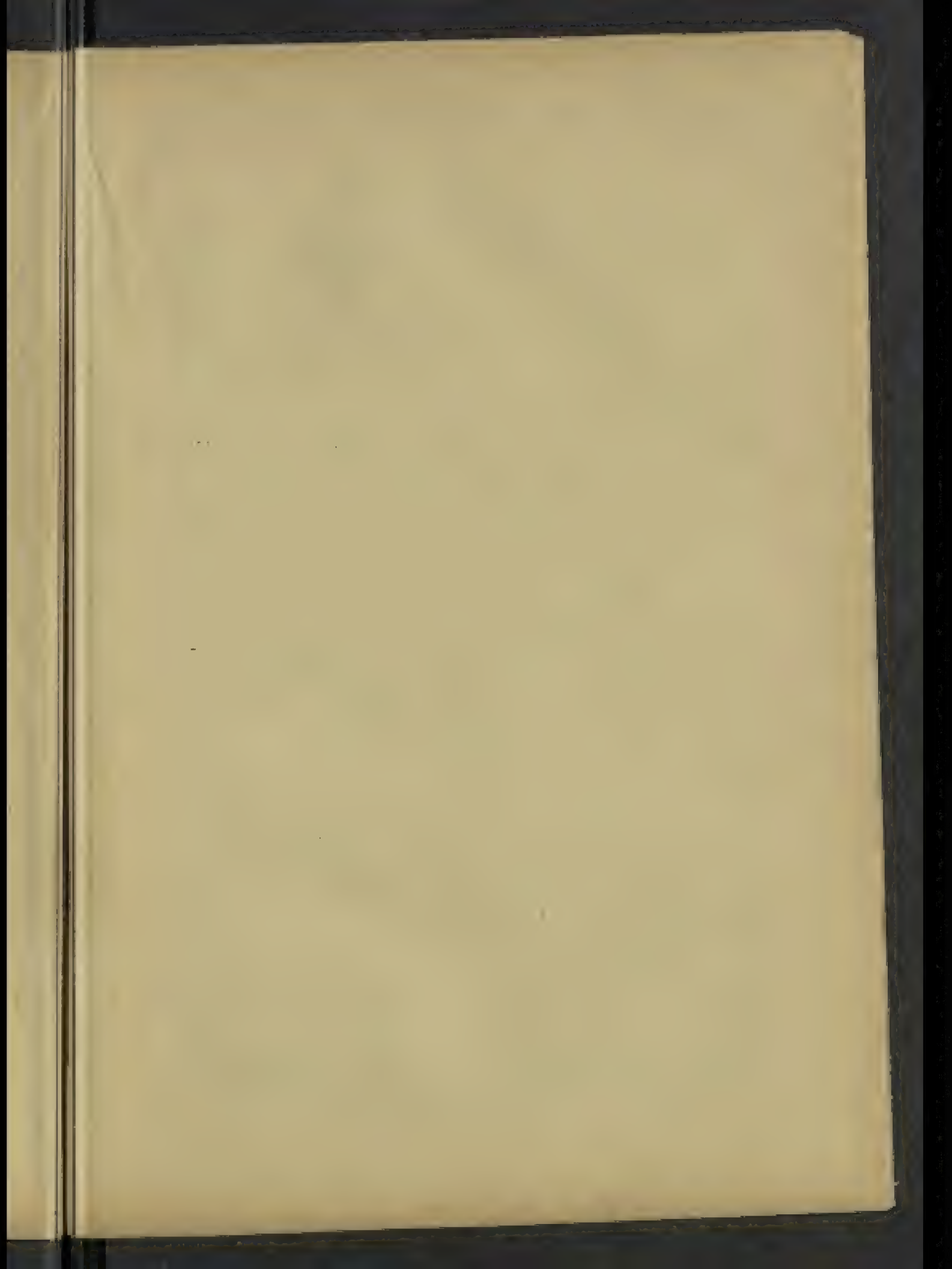
في داخل الهيكل العظيم

وجدنا حالة بعلبك حسنة جداً ، وهوامها صحياً نقياً . ونحيط
بهذه المدينة ارض واسعة تروىها الأنهار رياً وافياً : ارض
تفست على مساحة اثنتي عشرة ساعة في سهل البقاع ، ومسافة
اربعة عشرة ساعة من مدينة حص ، حيث تنتهي سلسلة جبال
لبنان الشرقية ... ما من قرية في هذا الاقليم إلا لها ينبوعها
وتربتها المتعذبة خصباً . ولثلاثين سنة خلت ، كان السهل وقسم
الجبيل الذي يقع على بعد فرسخ ونصف الفرسخ حول المدينة ،
مكتسوتين بعرائش الكرم . لكن ظلم الحكام واعوانهم ادى الى
تلف هذه الكروم ، واصبح أهل بعلبك اليوم محنرين على
اجتلاب الغنم من زحمة ، بدل ان يأكلوا عنهم المشهور بنكهة
طعمه الفائقة .

حقاً ان العين ، ساعة تشاوف تدمر لأول مرة ، فتعانق بعصرها
جميع انقاض المدينة تعطي الصحراء ، لتجد ان تلك الآثار اعظم
روعة بما لا يقاس من آثار بعلبك او من ايما اثر آخر في
الدنيا . ان فصور تدمر لتلوح كأنها رؤيا من مجد غير ، وآصال
المرو في المنام ... فيها هي اوتال الاممدة الرشيدة المشوقة لتجلى



برج
مجلس
مجلس



شجيرة غريبة جميلة مهيبة بمقدار عظيم ، في هذا القصر الرملي ،
فكانها لم تولد هنا ، او كأنها انظرت موعدا حتى انتقلت الى
هذا المقام . على ان في هيكل بعليك ضخامة وفيخامة تعوزات
الحوائط الندمية . هيكل عظيم يرتفع في قاعدته عن مستوى
الارض حوله نحواً من ثلثي عشرة قدماً او عشرين . فلا بد ،
اذاً ، ان يكون في الاصل قد جهز برفاة بديعة من الادراج
تؤدي الى واجهة مدخله الكبير . على ان هذه الرفاة لم يبق
منها اثر . هنالك ممشى الى الباب ، مسدود بعض الشيء ، يؤدي
الى اول بهو في الداخل : بهو عظيم الجوانب ، يتلووه منطيل
منطلق مفتوح اعظم منه حجماً . وعلى مدار هذا المنطيل
صوامع متعاقبة ، صومعة منها مربعة الشكل ثم صومعة مستديرة ،
وعكذا بالتتابع . ويظهر ان هذه الحجرات انما قصد بها ان
تكون محاريب ، مستقل بعضها عن بعض ، كل محراب منها مزين
بترازين عندسبة ملائمة موقورة ، ومزخرف بزخارف غنية ، شأنه
في ذلك شأن سائر اجزاء البناء وما فيه من تجاويف جميلة في
الجدران مطلعة القشرة . وينشأ فوق البناء كله طائف بارز قوي
يسبق على مجموع البناء سماء بديعة التأثير .

في مثل هذا الوكام العظيم ، وهذه الدقائق والتفاصيل التي لا
نهاية لها ، نوشك ان تكون المبالغة في الترف الفني مستحيلة .
ومع ذلك فيقول واحد من كبار السائحين : ان الحجر ليس
انما تحت ثقل باهظ من المغلاة في ترف الصنعة . المعابد كلها
والتجاويف في الجدران والافادير والاطراف تشتم جميعاً عن
أدق صنعة وانماها . صنعة تشتم على الارجح ، الى عصر نهود في

الفن يميزه ذلك الإفراط الذي اتصف به عهد المخطاط الفني
عند الاغريق والرومان . على ان هذا الشعور لا يمكن ان يحسه
إلا الذين مرت عبورهم ، من قبل ، في تأمل الآثار الصافية في
اثنينا وروما . كل بصر آخر لا بد ان تخلبه اية القالب وقام
الصنعة في ذخارف بعلبك .

بقي ، الى اقصى الجهة اليسرى من هذه البقعة ، ممشي الى الباب
فسيح مزين ترتيباً عظيماً . فهل كان هذا الممشى يقود الى جناح
آخر من البناء نهتم اليوم ، ام ان هذا الممشى كان مدخلاً آخر
ثانوياً الى الهيكل ؟ لسنا نستطيع الجواب . فان اعتراض السور
الخارجي يحول دون البت في هذه المسألة .

درجت قرون عدة وهذا الهيكل عادم السقف ، مجرداً في
داخله تجريداً تاماً . فلشد ما كان الدهر رفيقاً به رحباً اذ عفا
منه عن مثل هذا المقدار . غير ان التآكل الكبيرة قد تلفت كل
فلم تبقى منها شظية . وطبيعي في مثل هذا المناخ الجاف ، والجو
النقي ، ان يكون عمل الحرائب بطيئاً جداً . تشهد بذلك الاقنية
الروحية تحت هذا الهيكل ، وهي اقنية منحل بعضها ببعض ، مبنية
بقدد الصخر الضخمة المائلة . ولا تزال حتى الساعة بركة من كل
وطوبة ، تستعمل اعراض القمع .

الاعمدة السبعة المنفصلة

من هيكل بعلبك

في مثل هذه الرقعة الواسعة من الخرائب والانقاض ، كثيراً ما ينصرف اعين الزائر الى مشهد محجب أو موقع مفضل ، توجه اليه خطاه دون سواء من المشاهد والمواقع . هنا ، مثلاً ، النهر الذي تتراعى الانقاض المارة في فراجه الضافي . وهناك الهيكل الصغير في السهل الى وراء . ثم اشياء اخرى موفورة . لكن ما من قطعة منعزلة من هذه الآثار تنتهي في جملتها تنتهي الاعمدة الستة التي تقف على حدة ، منفردة ، منعزلة . ياله من جو شجي كليب يحيط بهذه الاعمدة : جو جذاب تسهّل العبارة عنه ، يطالع المطالع فيشعر كأنه يتم بانقموذ على اقدام الاعمدة ليجهش بالبكاء والعويل !

اعمدة اعلى علواً وانحب واشد هيفاً ورشاقة من سائر افرانين في المكان . يبدو ان الشمس تحسارهن لتضفي عليهن اشعتها الاولى . ثم يبدو انها تنل كما مساء قبل ان تخرج عنهن آخر اشعتها .

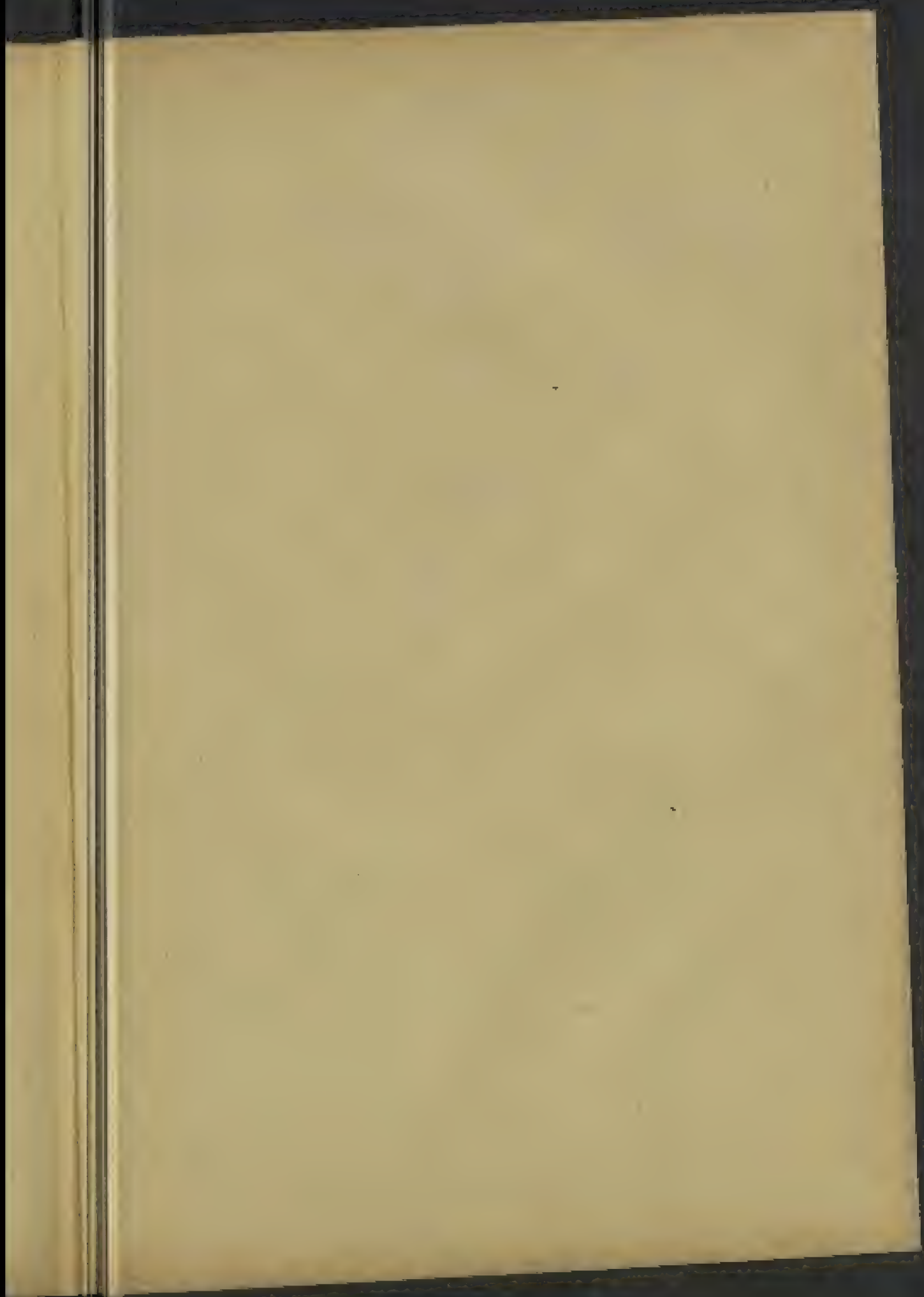
وتشيخ هذه الاعمدة على مستوى من الارض اسمى ارتفاعاً من قاعدة الهيكل الكبير الذي يبعد عنها حين قدماً . وهي لا

تزال في تحتها وحليتها ونيجاتها زنة او كانتامة . ويظهر انها
البقية الوحيدة التي بقيت من صرح من الصروح الفخمة الجليلة .
على ان قيامها في الظل يحول دون رسم دقائق الصنعة في
تيجانها رسماً وافياً . . . ها هو ضوء القمر واقعاً على الهيكل .
وقد نوات الحاتم ذوات الريش الملون ، وكن يهالوا بطرب
ويجسمن على الانقاض . وانبرت الحفائش ترفرف بسكاتها القبيحة .
وتكاثفت الظلمة على القطع الضخمة : قطع الجدران والاعمدة
الهامية . وبدت ، على بعض البعد ، كدسة جدارية تلمخ في وجه
الفضاء ، وتجاوط كل شيء بسعة نطاقها القاتق . ذلك هو الدور
الخارجي ، شامق وحياث ، لو اتيج منه ليابل القديمة لجماها .
سور مليء سجاله فطوب وعسوس ودووعة . حتى اشباح الظلمة
تستقر ثقيبة عليه . فتعبط العين ان تنحول عنه الى الاعمدة
والعمائد والدواود والقناطر ، وقد جعلها القمر فضضتين كفيئتين
رقيقاً كل صدع في الافاريز الجليلة ، والتجاويف النافذة وفي كل
منها قتال . ان هذا النور وهذا الظل ليلتان مشهد الاعمدة السنة
المستتبة وجماها العجيب ووحشتها التي لا توصف . فلو ان
ورد زورث انيج له ان يجلي ساعة على هذه الانقياض لكان
لذلك العبقرية ، التي اعطت « يارو » ، الشجرة المسنة ، صوتاً ناطقاً
ان تفسر بسحر البلاغة هذه الاعمدة البديعة فتوقظها ، وان تسوقد
نورا من على مذبح الهيكل الذي بلغ وحده .

١ - شاعر الكازي من جماعة الرومنطيين الانكليز المعروفين بشعره
البحري . - العرب .

العمارة القديمة في مصر





أما مادة هذه الأعمدة فمن الحجر الأصفر الخفيف . ولا تزيد
قطرها التي تتألف منها على ثلاث ، ملحوم بعضها ببعض طمة دقيقة
يحيث لا يبين فيها اثر خطوط فاصلة . ويبلغ قطر العمود سبع
أقدام ، وعرضه بين خمسين وستين قدماً ، عدا الركيزة التي يبلغ
عرضها عشرين قدماً وتتكون من قدد ضخمة من الصخر مبنية في
طبقتين ، كل طبقة عشر أقدام . والعمود في مجموعه مزخرف
زخرفة معقدة الصنعة ، ويحلى بحلية منحوتة نحتاً متوقفاً على أشكال
منوعة .

ويعلق احد السائحين ، على مشهد رآه من هذه الأعمدة ، تعليقاً
طريفاً فيقول : كانت تلك الأعمدة تنهض فوق افق الخرائب
كأنها منارات ، تلحق فوق تيجانها طيور كبيرة مثل النسور بنت
أوكارها في تلك التيجان . وقد دعرها وفع خطايا فاندفعت
مرفقة ، ثم غادت فيحسب فوق نواحي الأفاريز تضربها بناقيورها
واصلق بأجنحتها ، كأنها زينة حية أحقت بجمال هذه العجايب .

نصهم في رأس العين

يقع هذا الشهد القفري في سهل بعلبك ، على مسافة ميلين من انقاض الفيكل . وتبدو في المقدمة سلسلة جبال لبنان الشرقية . اما الجدران المتداعية التي ينعكس عليها غب النار ، فهي آثار كنيسة مسيحية . واما الحميم فهو مضرب جماعه من الانكليز استشفوا ببلابهم ومحامهم وحام كما يظهروا بظهر المؤمنين الصادقين بالقرآن ، ويؤثروا بهذا الهندام حتى في ابناء جلدتهم . ان ليلة كهذه الليلة ومشهداً كهذا المشهد لا يندران في رحلة شرقية . والحق انها مبعث متعة وسرور . فلا الضادع المربحة المبهجة ، ولا الحداثق او نوافير الماء ، تشتمل في نظر القبة على نصف الترف الذي تشتمل عليه مثل هذه الليلة في سهل بعلبك . فهناك الفيكل العظيمة تشيخ مرتسة على بعض البعد اونساماً ضعيفاً خبيلاً ، إلا انه مهيب جليل . وهناك الراعي وقطيعه على الضفة المقابلة يوشحها ضوء القمر ، هي والنهر الذي يغسلها ، يوشح شفاف رقيق .

وكان المسافر قد تزود من القنصل برسائل الى الجماعة الخبية في رأس العين . فاستأنف الطريق الى هذا الحميم وهو مغتبط

ان يغادر بعلبك ويؤونها التي ترك قدم كبير منها للخراب كما
ترك مسجد المدينة . وقد وجدت البيوت ، التي تبدو مأهولة ،
قليلة جداً حتى في شوارع المدينة الرئيسية .

اجل ، سرعان ما خلفت بعلبك ورائي ، ودخلت في السهل
الطلق الذي تحده عن كنب جبال لبنان الشرقية . كانت الليلة
طريئة ملأى بالانعام ، والرياح تهب متحدرة على من الجبل .
ويبدو لي مجرى اللبطيني بارداً منعشاً كالجداول في حضبات وطني
المحبوب . والجو حولي عبق بشذا الاعاشيب الهربة وانفاس
البساتين . وعلى صفحة النهر اخواه تلعب منعكسة من بعض
اكواخ قريبة . فما رحت اسمي في طلب هذه الاكواخ حتى
انتهيت الى المشهد الذي نشأه اللوحة صحبة هذا الفصل .

شد ما كانت هذه النقطة مدعاة حبور وبهجة . ذلك بان منزل
الكاهن الكاثوليكي الذي نزلت فيه كان قدراً يلبق بالخلق
الحرفي الذي نصفه بشر ونصفه مأخر او حصان . والمدينة التي
غادرتها ، فنيية سلفت ، كانت كلها فقراً موحشاً ، لا يرى فيها
شيء إلا شوارع متقلية ، وبيوت مصدعة مهجورة . فلقد ساء حظ
هذه المدينة ، في هذه البقعة التي وهبت لها الطبيعة هبات سخية
وزينها الفن في وقت مضى تزييناً غنياً . فتأذنت بعلبك مراراً في
غمرة المطاحات التي تثيرها المصالح المتعارضة بين الزعماء المتجاورين .
وتفككت عرى عادات الحياة البيئية ، واضمحلت الخوافز على
الصناعات ، ورحل السكان شيئاً فشيئاً الى منازل اخرى ...
وكان الكاهن يتوقع من ضيفه ان يعود الى صومعته . إلا ان
رأس العين كانت بقعة اقوى سحراً وجاذبية من ان يستطيع

الذخلى عنها . فعهدت بحضاني الى عناية واحد من الخدم ،
ودخلت الخيم ، فوجدت الجماعة متكئين في راحة عظيمة ، على
نحو الاسلوب التركي . وقد استقبلوني بترحيب حار .

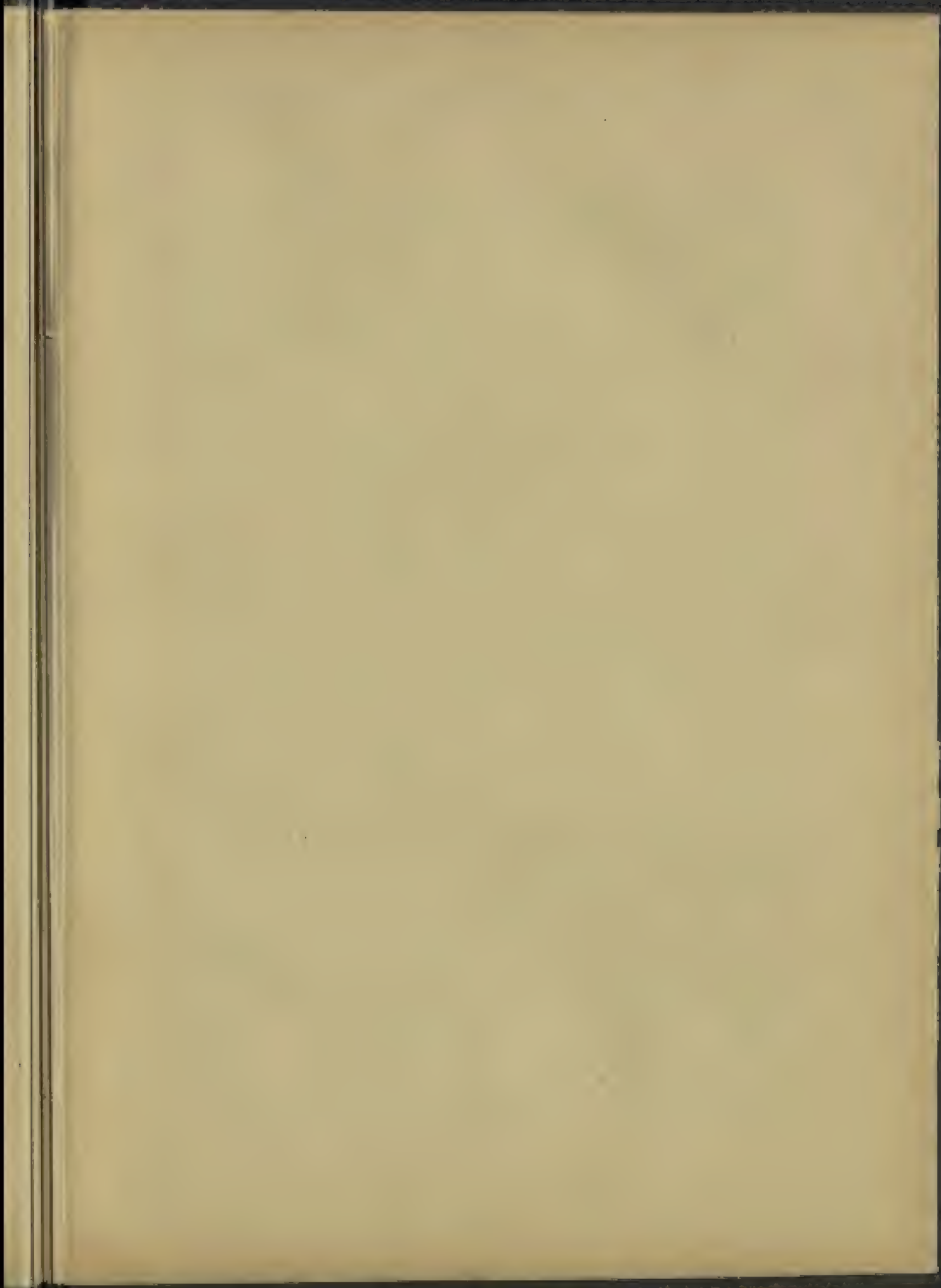
ما اسرع ما يتألف الناس في بقعة منعزلة هذه البقعة !
ما اسرع ما يشعر بعضهم لزاء بعض كأنهم أهل بيت واحد !
حتى ذلك الانغلاق والانطواء الذي يعرف به الاسكابين - وهم
احرص شيء عليه في المدن والصالونات - يذوب عنا وينلاش
كالذاج عن الجبل . فمن كان دأبه في بلاده ان يكون جافيا
باردا محتوسا في محاطاته ، يجده في الصحراء فسيح شوال في بدء
الامر الى رجل صريح مستوفى . ثم الى صاحب محاض محب .

كانت سيدة انكليزية شابة ، هي السيدة ... ، متعلقة على
طنافس تركية ، تلبس كزوجها الذي كان رئيس الجماعة لباسا
على الزي التركي رادها حسن مظهر . ومعهم فتاة مشهورة طال
الزمان على اقامتها في مصر وسائر انحاء الشرق . فاديوت علينا
مرطبات ذكرتنا طيبعتها ووفرة انواعها بموائد انكليزية . وانه
لامر غريب في مثل هذا العراء . ومنه كان مضيفون أهل نضج
واطلاع ، سبق لهم ان سافروا اسفاراً واسعة ، فقد دارت بيننا
مسايرات بمتعة مفعمة حياة ، وانقضت الليلة على غبطة وحبور .

وهل كان هذه البقعة ان تبدو في الذهن والخيال والتقدير
سوى واحة في صحراء ؟ لقد دخلت هذا الخيم على حين فجأة ،
وان خارج من فقر ينيره القمر ابرة رقيقة ضعيفة ، بعد ان
أضطرت لعبور النهر . ثم اذا في اصداف المجلس النادر : مجلس
اللطيف والتهذيب الانثوي ، بدل ما كنت تعودت من طاعة



جبل في ديار مصر



الراغب المستهجنة وفضاظة اوراق المدينة . وما اطول ما كانت
الوقت الذي مرّ عليّ دون ان اصادف سيدة ، حتى اذا لافيتها ،
وانا لا اتوقع مثل هذا اللقاء ، في هذا القفر ، بدت لي احاديثها
ونبراتها الانكليزية ضرباً من الموسيقى .

ثم خرجنا من الحيام لتقف الى جانب النمار الكبيرة التي
اخرمها الحدم . فرأينا مشهداً رائعاً . رأينا الحدم - وقد تسلحوا -
يمتدين في حلقة حول الشعلة المتأججة . ورأينا وهج اللهب ينعكس
على الفماش الابيض الذي صنعت منه الحيام ، كما ينعكس على
جدران الكنيسة المكندة . ولاحظ لنا ، على مقربة ، عبوت
النهر التي تسمى « البناييع الحلوة » - بناييع تفيض وتجتمع
مياهها في بركة كبيرة بلورية الصفعة كثيراً ما ياروي اليها الرعيان
يقطعونهم . فاما النجوى الذي ينطلق ، من ثم ، غداً شفافاً فوق
نبات الخلفاء الاخضر ، فقد وجدته ، على اثر اجتياز سهل بعليك
الحار ، مشهداً يستغرق النفس استغراقاً . فما اصدق الصور
النورانية الطبيعية والشعور عندما تشبه الغبطة والفلاح « يعين
ماء في موضع فعل ، او يجداول بارد ينساب على تربة عطشى . »
هذا ، وكانت البقعة الصغيرة المعشبة ، التي نصب فيها الحميم ،
مظلة بجدران الكنيسة القديمة وبشجرة عتيقة ينهل علينا ، خلال
اغصانها ، ضوء القمر .

ثم قدم القنصل الانكليزي من بيروت بعد بضعة ايام . فاقبست
له خبزة اخرى رفع عليها العلم الانكليزي . ودبت في الحميم حياة
خامدة . وشدة ما كانت وفعات طعامنا انسيبة مريحة . اما المؤن
فكنا نستجلبها ، دونما صعوبة ، من النواحي المجاورة لنا . والحق

ان الحُبز والزبدة الطازجة وأباريق الماء من السافية - كل تلك كانت توفراً عظيماً . وكان أمير بعلبك يقبل كل يوم بعد الظهر ، فيجلس هو وبطالته واصدقاؤه في فيء الشجرة على ضفة النهر المتقابلة ، يشرب القهوة ويمنع نفسه . وكان جماعته كثير ي الصخب . حتى الشيوخ البيض اللحي كانوا لعابين كلاميذ المدارس ، يسابق بعضهم بعضاً ، ويتراشقون بتواصيهم . وقد اتفق الامير ان دعا جماعتنا كلها لشرب القهوة معه . إلا اننا امتنعنا ، لان القتل لم يكن يرى في هذا الامير إلا رجلاً قساً ، او كائنص ، نصبه ابراهيم باشا مدة ما من الزمن .^١

ثم اذف موعد التفرق وتقويض الخيم . فشعرنا جميعاً بالاسى والوحشة ، ساعة راح الخدم يقتلعون الخيام ويضعون الامتعة في الحفائب . وقد لبثت اعين رحيل الرفاق حتى نواروا عني . وبقيت رأس العين هي رأس العين جمالاً ولطفاً . غير انها خلت من كل حركة للحياة ، وعادت مياة للكتابة : الكتابة الخلوقة العذبة . وبهذه الكتابة تقترن بعض ذكرياتي لرأس العين . ذلك بان الفصل حديقي ، ورفيقي السابق ، لم يلبث ان لقي حنفة في اعدن بعد بضعة ايام ، وكان قد اخذ بشعر بوعكة في رأس العين . ثم مرخت انا فنقلت الى حربة الكنيسة القديمة ، وهي الملجأ الاوحد هناك . لعل شراً ما ، لعل عاملاً من العوامل المؤذية ، كان كامناً ، يضطرب ، تحت تلك السعادة وذلك الجمال في رأس العين !

١ لا يغرب عن بال القارىء ان موقف انكثرا الرسمي من محمد علي باشا وحركته كان موقف قلق ومماوضة . - المغرب .

صيدا ومرخلها من جهة بيروت

... كثيراً ما^١ اناوت هذه المدينة في العصر القديم حسب
صدد. ذلك بان صيدا كانت مدينة تجارية غنية ، يرجع الفضل في
تجارتها وغناها الى مينائها البديع الملائم ، وهو ميناء اصبح بما
بذلك فيه من جهد ومهارة فن يتسع لعدد كبير من السفن .
فقد استولوا على مدينة صيدا سنة ١١١١ ، ثم استولوا عليها من
« السرازان »^٢ واعاد الملك ، القديس لويس ، ترميمها سنة ١٢٥٠ .
غير ان « السرازان » استولوا عليها مرة اخرى سنة ١٢٨٩ .
ثم كان عهد فخر الدين ، امير الدروز ، فدمر القسم الاكبر من
مينائها ليبقي اعداءه الاتراك على بعد منه .
ان الركوب من بيروت الى صيدا ، مدي سبع ساعات ،
للزعة بعثة على السرور . إلا ان الانتقال من جوار بيروت ،

١ استغنيا في مثل هذا الفصل عن عبارة لا علاقة لها مباشرة بالموضوع .
- العرب

٢ Saracens : لفظ لغة الافرنج من كلمة : « شرقين » ، ليعتوا به
حتى العرب التي قاومت الغزو الصليبي . ويترجم بعضهم كلمة « سرازان » بالعرب ،
وليس هذا بصواب . - العرب .

الجميل الموع في جماله ، الى جوار صيدا وشدة رفاته امر لا
يكون البتة في مصلحة المسافر . فيبروت في نظر الانكليزي هي
المكان الوحيد الذي تمكن سكناه في سوريا .

على بعد ساعتين قبل الوصول الى صيدا ، خان فقير جداً
يقوم منزلاً على مقربة من بقعة رملية تجاذها الطريق الى
المدينة . ويستجبل الفوز في هذا الخان بمنتجات القهوة المرغوب
فيه . فالعربي البائس المعدم لا يقف بباب هذا الخان يدفع
بالفنجان الى شفتي المسافر او الحاج ، كما يفعل على باب الفندق
الموحش بين صيدا وصور .

وكان الوقت مساء ساعة دخلنا ابواب صيدا . وكان الطقس
جميلاً . لكن لم تكن تهب نسمة ما حتى من جهة البحر . اما محطة
القوافل - اذا صحّت نسبتها بهذا الاسم - فكانت موضعاً
موحشاً . وقد اضطررنا ان نتخذ من احدى غرفها الحربة مبيتاً
نا . ولم نتمكن ان تفكر في كيف القلب حظنا دفعة ، فصرنا
الى هذا الملجأ الموحش في صيدا . بعد ان كنا في ضيافة احد
الاصدقاء ومنزله الرحب وادراجة الرخامية وغرفة المريحة وعشرة
اهل الطيبين . ولم تكن مزودين ببطافة توصية الى الاغنياء والمتنفذين ،
كما كان دأبنا . شد ما كان الموضع حولنا مدعاة حزن . فعنى
سلة الفهم - وما اكثر ما كنا نشتهيها ساعتئذ ! - لم يكن لها
وجرد . واخذت نسبات الليل تهب باردة من قبل البحر وتنفذ
الينا خلال المعابر الطويلة وزجاج الشبائيك المحطم .

قمنا في هذه الليلة بزيارة اسرة من اسر التجسار في صيدا .
فكان الاختلاف بارزاً قوياً وباعثاً على الفرح والبهجة . فقمنا على

سجادات وثيرة ، وانكأنا الى مساند ناعمة ، وقدمت لنا القهوة
والقصبات للتدخين . دعينا الى تناول شيء من طعام شرقي خفيف
ونبيذ ممتاز . وتوأست المائدة سيدة البيت ، وهي امرأة جميلة متقنة
اللباس . وامتد بيننا حديث سهل طلي باللغة الفرنسية التي تحسن
التكلم بها هذه الامة من المسيحيين السريان . واكدت لنا
السيدة انها أعدت بيدها واحداً او اثنين من هذه الصحن
الطيبة .

وكان من نتيجة اختباري هذه الليلة ان عزمتم - حينما ذهبت
في المستقبل - على ان التمس بيوت الاهلين ، فقراء كانوا او
اغنياء ، مؤثراً جدران هذه البيوت على جدران الحانات ، وحتى
الاديرة بعض الاحيان . واتيح لي في القدس ان استيقن من
صحة هذا العزم الذي عزمتم عليه . فقد اقيمت في منزل احد
الاهلين على مقربة من باب بيت لحم . وكانت نواقذ غرفتي تفتح
على ابراج السور القوي القديم ، فأراه يرتفع قبالي غير بعيد من
برج النبي داود . واعناد اهل البيت ان يقدموا لي الطعام كل
يوم على مائدة علوها قدم ونصف القدم ، يوضع عليها لوفعة الصباح
زبدة طازجة وعسل وخبز وقهوة . اما لوفعة الظهر فنكون
معهام خمر القدس التي اشاد بطيب طعمها سائوبوبان . فاذا كان
المساء ، اجتمعت الاسرة فأنشدت بعض افشيد بلدية على عزف القيثارة .
غير ان رهبان الفرنسيسكان ، في دير القديس سلفادور ، استدرجوني
الى دخول ديرهم حيث رفع من نصبي ان اقيم في حجرة بائسة
مبلطة بالحجر ، يقتصر اثاثها على كرسى وطاولة وفراش خثير
حشي بالصوف كما يكون في حالة الجز . يضاف الى ذلك كله

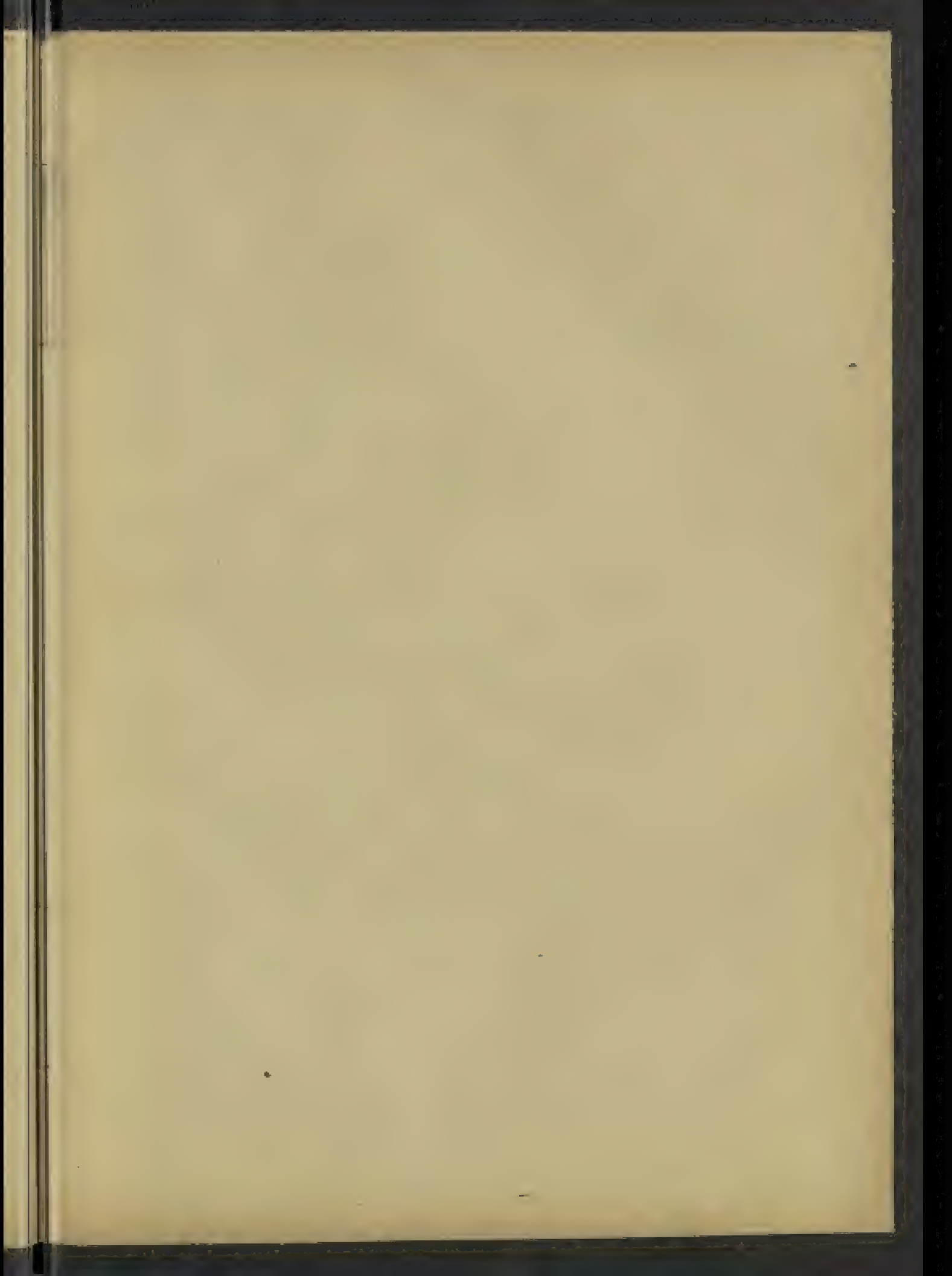
هواء فارس وجو معتم لا يتخلله إلا ضوء ضئيل ينفذ بجهد خلال الكوة المنخفضة المشبكة بالحديد . وكان الدبر يقفل ابوابه دائماً لدى غروب الشمس . فأجذني اسيراً في هذا القبر انطلق الى الجبل والجدول بشوق لا يقل عن شوقي واذا سائح ، ادرج في الماشي والقاعات المعتمية ، اأمل خرائب المدينة وامكنتها الأثرية واغبط بالظواف في الجو المسائي الرقيق المبهج .

دخلنا مقهى من مقاهي صيدا ، وكان مليئاً بأتراك حسني القباس والهندام ، يجلسون صكالي على المقاعد الوثيرة ، وكثير منهم يجاورون النوافذ المفتوحة المطلّة على البحر وأمولجه الزاحفة الى الشاطئ ، وحفاً بصوت يفتو الأعصاب . وإذا لم يكن معي تبغ ، فقد تطوع جاري - وهو تركي وسيم الهيئة - فقدم لي كيس تبغ الحريزي الصغير لأملأ منه غليوني . وما من تركي يحترم نفسه إلا يحمل معه كيس تبغ ، شأنه شأن الاسكندراني الذي يراظب على حمل ساعته .

وعلى هذا النحو ، ينفق هذا الشعب المتواخي اللامبالي معظم النهار ، يبدأ يمزق القهوة ، يبدأ يردد الأقوال الحكيمية المؤثرة ، ويمسح بالبد ، على اللحي ، وينزع العمام والطرايش ليحك الرؤوس الصلعاء . وربما دخل أحياناً - وعلى فجأة - « حكواتي » فتوسط الجمهور ، وشرع يقص قصته متدفقاً بالكلام تدفعاً سريعاً ، ملوحاً بذراعيه تويجاً غنياً . ومن عادة التركي ان يصفي بصغاء استغراق عميق ، ثم ينفجر في فبهات غالبة ، ترنج معها خاصرته البديتان ، ونهر ثيابه الفضفاضة ، وهو ماض مع المرح والغبطة

صيدا ومدخلها من جهة بيروت





الى حد يمتع بتعرف النكتة وروعتها .

على ان المنازل والبساتين ، خارج السور ، تكشف عن مشهد اعظم طرافة وأملاً بالحياة : مشهد من الازدهار والكبد الهادي . ذلك بان كل فلاح في هذا الاقليم يستع بثمار جهده ويقيم في ظل كرمته وتينته . وقد وجدنا هؤلاء الفلاحين محبي الاشخاص ، حسني الخدام ، يلبسون الثياب المثلثة^١ والطرابيش ذات الشراريب فتجلبو للعيان فامانهم الوشيقة اللطيفة . وكثير من الصبايا يعلقن بشعر الرأس حلي من عقود ذهبية تتدلى عن جانبي الوجه حتى التهادين . وبعضهن يجدن الشعر الى وراء ، ويرسنه على الظهر خلفا طويلا . اما في اقدامهن فيلبس « الصنادل » .

وتبدو صيدا لمن يزورها فادما من بيروت اقل جمالا منها لمن يأتيها مقبلا من صور . ومع ذلك ، فحوض الميناء القديم والجدار الصخري المقابل وحركة المراكب كلها تشاهد من جهة بيروت مشاهدة افضل . وقد دمر الامير فخر الدين حوض الميناء فعطل مرسى بديعا للسفن . ولو ان الالبيدي استير استهبوب اختارت لها منزلا على بعد ميل او ميلين من صيدا ، على سفح الخضاب ، فشجرت البقعة واصبحتها بذوق كذوقها في تشجير « ماريلوس »^٢ واصلاحها ، لثم لها بيت ظليل بديع متوف : مقر كمقر « ارميدا »^٣ ، ليس هو واحة صغيرة أنتزعت من

١ جمع منيات . وهو لباس المعروف في القرى . - المغرب .

٢ يعني مقر الالبيدي استير استهبوب في قرية جون . - المغرب .

٣ له يشير الى الفتاة التي ذكرها الشاعر تاسو في ملحمة : « اورشليم المنقذة » . - المغرب .

جبهة الجبل ، واحدة يمكن القول ان ليس من وافي يقبها ما دامت
 في بركة موحشة تجول فيها العواصف وتصول . حقاً إن رفيقاً او
 حديقاً يصادفه المسافر ، من بني جنسه ، ليعادل في هذه البقعة
 كنزاً ثميناً . لكن ليس هذا ما يشعر به السائح في ملجأ ماريلبوس
 مع من فيه من خدم وحشم جميعهم اجانب . اما الآنسة « و »
 التي آفامت مع اللايدي اسثير جملة اعوام وأفادت من خدمتها
 إفادة شريفة - على انها مربية - فقد افترقت منذ اجل بفتي لبناني
 من بيروت كان ترجمان اللايدي . ولهذا صرقت الآنسة « و » من
 الخدمة ، اذ فحسرت ان تقع في حب الفتى اللبناني . وكانت
 العاطفة بينهما متبادلة . إلا ان عائناً من العوائق المؤنة حال امداً
 طويلاً دون تحقيقها . وشرب الحبيبان من ماء الغيرة والريسة ،
 ذلك بان انقر الاسكتلندي كالالبحاني^١ لا يطيق ان يصبح واحد
 من البطالة او الحشم عبداً للحب . غير ان الازمنة انقضت ،
 وانتصرت المشاعر الاوفر حظاً من الحنان والمساهة . فصدر الاذن
 بالزواج بعد كل تلك المأطاة القسبة . ونخلصت الفتاة الانكليزية
 من قبضة ماريلبوس - تلك القبضة التي دخل حديدتها الى روحها -
 وانتقلت الى عهدة زوجها الذي أفساد هو الآخر من مولائمه
 السابقة .

فأن هو اليوم جلال الشرق ؟ لو ان ما يعنلج في قلب اللايدي
 من اسرار امكن اليوم كشفه لوجدنا على الارجح انهما
 تسنى العودة الى انكلاوا لتتبي ايامها . ومع ذلك فانها لن تعود .

١ نية الى البطالات ، ملكة الكثرة المشهورة . - العرب .

ان كبريائها وخوفها من الخزء والسخرية ، وانفها المصطنعة من
الذوق الاوروبي والعادات الاوروبية - كل ذلك مضافاً الى
الحبازها نحو النزعات الشرقية الحبارة يمكن القول انه مناضل في
ايمانها ، لا يد ان يدفع بها الى نزول القبر دوناً حديق او
حبيب يعول عليها ويقول : « واسفاه مجدها ! » اما قوى اللايدي
العقلية ومسامراتها فلا تزال كمدها ناشطة مفعمة حياة . على ان
حبها الاصفى وعيكلها المتواخي اصبحا ينشآن عن ضعف متزايد .
ولعلها في احيان ينشأها التفكير برارة الدنو من القبر في ارض
غريبة بعيدة عن جميع الافران ، عن جميع الذكريات والمشاعر
التي ترافق بكرة العمر وشطره الافضل .

لكن ينظر ان يقل نفوذ اللايدي استير على حكام البلاد
بعد استيلاء ابراهيم باشا على سوريا . وكان عبد الله ، باشا عكا ،
مفتوح الصدر دائماً لتدخلنا ، متساهلاً ازاء مطالبها . كذلك لم
تكن شفاعتها لتغيب إلا في السادر لدى والي دمشق ، سواء
اكانت هذه الشفاعة في سبيل قاجر او سائح او احد الرعايا
المظلومين ، او في سبيل ترفها وهنائها الشخصي . إلا ان ابراهيم
حائكم مطلق قوي جداً ، وبعيد جداً ، بحيث لا يتأثر بنفوذ
« السيدة العظيمة » ولا يلين لاهوائها . وقد انقضى زمن
« الملكة الشرقية » التي اقامتها هذه السيدة ثقلت من يدها ،
حتى ان نفوذها المحلي في البقعة الجاورة يتضاءل يوماً بعد يوم .
بل ما زالت السيدة ، لبضع سنوات ممرت ، تؤدي اخدايا -
واحياناً المقادير المالية الكبيرة - الى المؤسسات الدينية التركية ،
او باخرى الى اوجه المساجد والهيكل ، تأمينا لعطف الكهنة

والشايع وانبايعهم .

وليدو الارض حوالى حيدا غنية جدا ، لو حُرثت لتجلى القسم
الاكبر منها ، مرة اخرى ، بحقة « بستان القرب » .
ثم ان هذا الشاطئ كله مهيأ تربيا حسنا للنجارة . ومختل
في ظل اوراقه بانما ان يستعيد ما فيه كماءة للنشاط التجاري
والصناعة والثروة . ولا تزال التربة نشبه ما كانت عليه في الزمن
القديم ، يوم جعل يعقوب بركته الأخيرة على يديه . . .

مقبرة تركية في ضاحية صيدا

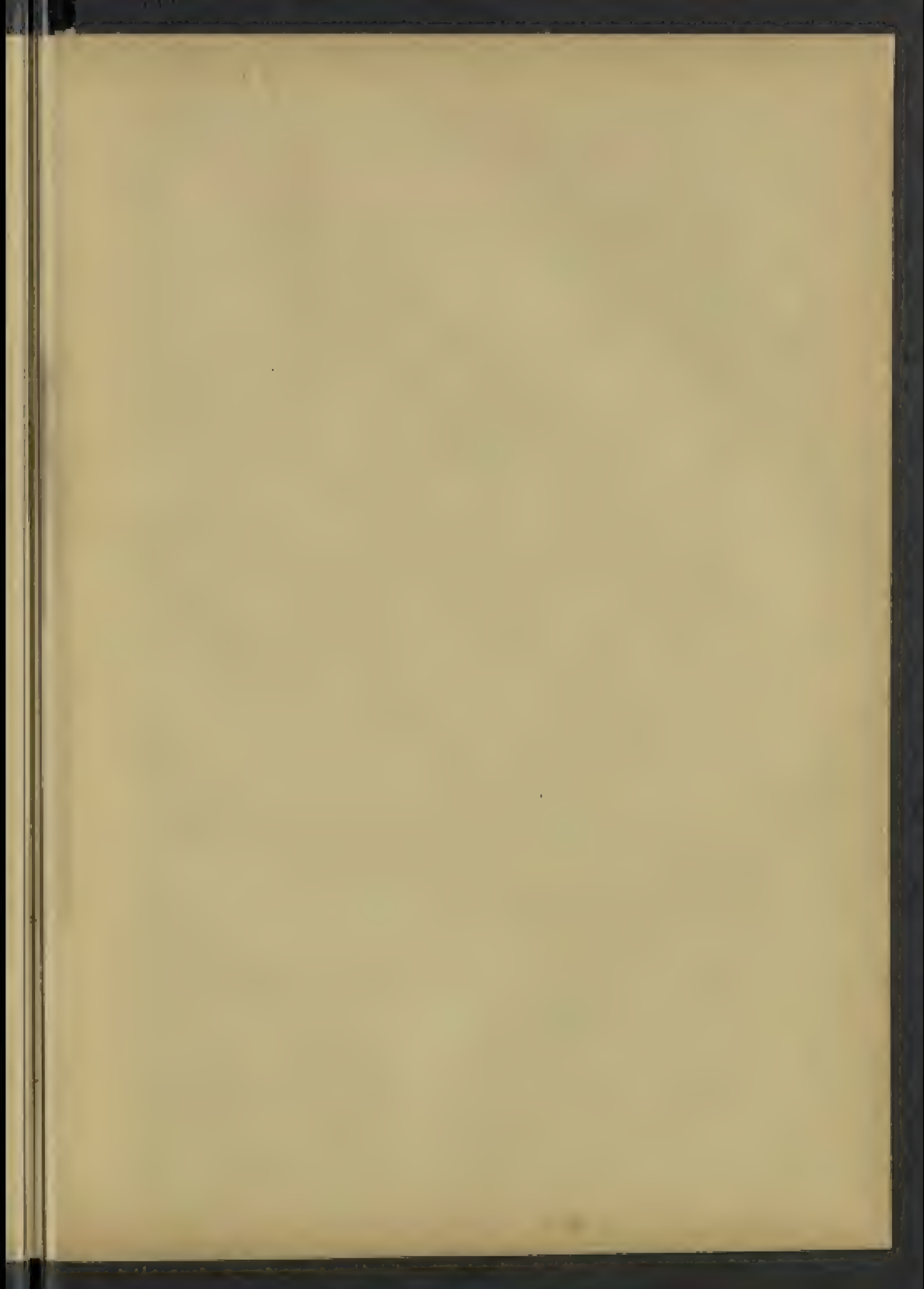
اصبدا الحديثة مطلع بديع من بعيد . توناج عين المسافر ،
القادم من جهة صور ، الى اسوارها الجبلية وكثفة الاشجار
والبساتين المحيطة بها ، لا سيما بعد اذ يكون المسافر قد اجتاز
السهل على مدى ساعات والبحر عن شماله وسلسلة الجبال المنخفضة
عن يمينه . وقد سبق هذه الشواطىء عند صور وصيدا - الشواطىء
التي حملت اليها بشارة الانجيل ووطئتها اقدام المختصين - ان
كانت في القديم مأهولة جداً (كما تشهد الآبار الحربة) وما بين
صور وصيدا من بقايا انقاض كثيرة مسواة بالارض . فلا بد
هذا الشاطئ ، اذن ، ان يكون عرف في عصور الازدهار
جملة من مدن صغيرة بهجة انشئت للمرح والتجارة والزراعة .
ومشهد صيدا وخليجها ، من على المرتفعات المؤدية الى مقر
اللايدي استير استموب ، انما هو مشهد غني بالصور الدقيقة .
ولم نمالك ان نشعر ، ساعة اشرقنا على هذا المشهد من فوق ،
اننا انما نودع عالم الجبال والحطب لننقل الى ما وراءه من بقاع
مقفرة . وصيدا هي اقرب مدينة الى مقر اللايدي استير .
وكثيراً ما يهبط خدامها المدينة ليشتروا المؤن لأهل البيت

ويعودوا بأنحر انباء الجوار الى سيدتهم ، وهي كسائر السيدات
المعزولات تشتهي ان تطلع على ما يدور بين جيرانها من حوادث
واعمال وافعال صغيرة . وقد ان يخرج رسل ، هؤلاء فارغى
الايدي من اسعاف للغير ، او علاج للمرض ، او يعود للمصابين
المذكورين .

وشد ما يطيب الهواء ، في وقت السحر البارد ، ان يخرج
من الشوارع المتجهة الى الجنائن خارج الاسوار . ففي مثل هذه
الساعة يأخذ الناس بالانشاء في المقام والحوائط . غير ان
الجنائن تكون خالدة . وانه هذه الجنائن الى بعض مسافة
حول المدينة وتنتج مقدار من الشر ، يصدر معظمها ، كالزمان
والشمس والليل والليل والليل والليل والليل والليل .
ويكون التوت : هذا الشجر الذي اعيش على ورده مقدار كبيرة من
دود الخرب ، كما يكون الآس والصفوف والدردار والورد والنخل
والجوز ، وشي اصناف من نبات مزهرة وحضر او فروع نفعاً .
وما هي الريح التي تهب من قبل البر - ومثل هذه الريح في
الشاطئ اللبناني يغلب هبوبها ليلاً - ساءت لتجني المكان الذي
تهب من قبل البحر أثناء النهار . ويكون للريح هذه شدة عطر
حلو كأريج الازهار والنار . ويقوى إحساس الناشئ بطيب هذه
الرائحة غيب روائح المدينة ، لان ذلك الشرق ليست مواضع
زكية شديدة . وفي وسط هذه الجنائن تقوم اكواخ الفلاحين .
ولست هي تلك الاكواخ البديعة التي نشاهد عادة في انكلترا وعلى
جدرانها عرائش الورد والياسمين ، وفي داخلها النظافة والمودة
التي تدعو للغريب الى التعرّيج . والواقع ان وسائل الراحة

مقبرة تركمان في مانتا، صيف





مفقودة في الشرق ، إلا في بعض القرى المارونية في لبنان .
وهنا كانت الشمس قد اشتدت حرارتها ، فرجعنا إلى منزلنا
البائس ، العاري الأرض والجدران ، للتناول القهوة المنازرة . على
أن السائح قل أن يعتبه بؤس مسكنه وندرة الراحة ، ما دام
كل يوم يسوق إليه مباحج جديدة ومشاهد فائقة المتعة .
ولست حريداً بالمكان الذي ينجلي فيه الترف والذوق . وآثارها
ضئيلة القبة . فليس فيها إلا القلعة القديمة : قلعة فخر الدين الشهيد
وطريقها ، وبقياء قلعة لويس الحادي عشر . فأما أية المدينة الأصلية
فقد ذهب منها كل ظل .

إن قلعة الأمير فخر الدين ، هذا البناء الممتد إلى البحر ،
لأجل شيء في المدينة الحديثة . وقد استهل الأمير فخر الدين حياته ،
في القرن السابع عشر ، بأن عين حاكماً على الدروز . فمارسيرة
سياسة قوية مكنته من توسيع إمارة الدروز على حساب
الأتراك ، حتى أصبح في العام ١٦١٣ سيد الساحل كله من
بيروت إلى عجلون . فلم يلبث الباب العالي أن خشى أمره ،
وشرع في إعداد حملة لسحقه . فمزق الأمير ، عندئذ ، على الذهاب
بنفسه إلى إيطاليا ، بغية عقد المحادثات ، وخصم المساعدة من
أصدقائه الكثر أصحاب النفوذ والوجاهة في مدينته البندقية .
وأحدث وصوله إلى إيطاليا اهتماماً عظيماً لما كان يتحلى به من
لطف سلوك وقوة فطنة . وطالت إقامة فخر الدين في بلاط
فلورنسا تسع سنوات^١ ألف فيها حضارة المدينة وإنافتها واكتسب

١ في مؤلف الأب يوليس مزال : « فخر الدين المعني الثاني » (طبع حلب) .

معرفة بالتصوير والنحت وهندسة البناء .

واستطاع ابنه علي ، مدة غيابه ، أن يصد هجوم الأتراك ويحافظ على النظام في الإمارة . فلم يبق ، إذن ، إلا أمير فخر الدين بعد عودته إلا أن يستخدم ما أفاد من خبرة في سبيل إنشاء شعبه . غير أنه ، بدلاً أن يصرّف همه إلى واجبات الحكم ، استسلم تلك الفنون العظيمة النفقة التي ابتهج لها في إيطاليا ، وهي فنون لم يكن تمّ لها استعداد شعبه . بنى في كل ناحية منازل ريفية ، وحمام وحدايق وفينها خلافاً لمشارب الشعب بالصور والتماثيل التي حرّم استعمالها القرآن . واستساء الدروز الذين اسلموا على دفع الضريبة نفسها التي كانوا يدفعونها في الحرب . وبدأ الحزب اليمني - وهم فئة معارضة - يتملكون للانتفاض . وكثر التذمر العلني من أعمال الأمير الباهظة النفقة . وأوقدت فخفة الأمير الحسد في صدور الباشوات . وعلى هذا ، استأنفت المداونات سيوتها الأولى . إلا أن فخر الدين أفلح في قهر أعدائه . فحاول هؤلاء عندئذ أن يوغروا عليه صدر السلطان ويجعلوه في نظره موضع الحسد والريبة . فعزم السلطان على محقّه . وأمر بآسا دمشق بالرحيل على بيروت ، وكانت هي في العادة مقر فخر الدين . وقد هوجمت المدينة براً وبحراً . لكن الأمير ، بما ألف في السابق من حسن الحظ ، وبما استمد من حلفائه الطليان ، واجه

سنة ١٩٢٧ (الصفحة ١٥) يقول الأب : أن الأمير فخر الدين وصل إلى ليفورنو ، مساء تمّكنا ، في ٣ تشرين الثاني عام ١٦١٣ : وغاد منها إلى لبنان في أيلول عام ١٦١٨ . فكانت أمّته قد استقرت سنة أعوام الأتوريين ... العرب .

العاصفة مواجهة ثبات ومحمود . وانتصر في معركتين . إلا أنه أصيب بضريرة في ثالث معركة فقتل والده وشنت جيشه . وخائنه فطنت هذه الضربة القاسية ، فتقدم بطلب السلم ، فرفض طلبه ، فهرب والأتراك يلاحقونه حتى اغتصم بقلعة نيجا . فحاصروه فيها مدة سنة عتياً ، ثم اقلعوا . لكن لم يطل به الأمر حتى خائنه بعض أصحابه وأسلموه الى الأتراك . فاستيق الى الاستبانة . وكان السلطان أعجبه ان يرى مثل هذا الأمير الشير جانياً عند قدميه ، فعامله أول الأمر معاملة حلم وأناة ، غير انه سرعان ما أمر بخنقه في السنة ١٦٣١ .

وقد سبق لهذا الأمير ان اوقع الناف بيناه صيدا القديم ، وردم قسماً منه ، ليعول دون اقتراب الأتراك .

وهواء صيدا صحي جداً ، شأنه شأن عواء اغلب المدن على هذا الشاطئ . وضروريات الحياة فيها حتى بعض الكماليات رخيصة . وادخلت شيء اللحم وان لم تكن له سوق نظامية مخصوصة به . والثمار موفرة متنوعة ممتازة . والخمور اللبنانية تباع هنا بأسعار معتدلة . ومثلها خمور ساموس وفبرص ، وبعضها من صنف جيد وطعم طيب . ان تكاليف المعيشة في صيدا اذني منها في بيروت . على ان صيدا فارغة فراغاً تاماً من شيء تستمتع به بيروت - أعني الحياة الاجتماعية . ولكن حوائث التبغ فيها تظهر بظهور جميل متنوع ، فتقرأ في القطرميزات الزجاجية ، المخلاة بالارهار الذهبية ، ملأى بالتبغ من شتى الألوان : تبغ بغداد

القوي الذي يسكر الغريب ببعض مجات منه كالوسكي ، وتبع
اللاذقية المطيف المعتدل الذي يستطيع الغريب ان يدخل منه
جملة غلايين في اليوم دونما كدر .

أما سكان صيدا فيقال ان عددهم بين ثمانية آلاف وتسعة
آلاف . وتفتح أسواقها المتعرجة الطويلة عن احتياطي لا بأس
به من البضائع ، وعن زوار يلبسون الالبسة اللائقة . وحاصلات
صيدا عبارة عن القطن المغزول والحرير والقمح وأخشاب الدردار
والزيت الخ . ومستورداتها عبارة عن الأقمشة والبهارات والحديد
والاصبغة .

بقيت هذه المقبرة التي تنجلي في اللوحة الى جانب قلعة أثونة
يفرض انها قلعة لويس الحادي عشر . تقع المقبرة هذه خارج
المدينة . وفيها اشجار مديدة باسقة تطرح ظلالها على الاضرحة .
بعضها مهدم خرب ، وبعضها جديد البياض مطلي بالاصفر الذهبي ،
نقشت عليه عبارات بالحرف التركي ^١ وافبست فوقه أنصاب هي
في العادة قواعد من حجر وعليها عمامة . وانفق يوم زونا المقبرة
ان كانت جماعة من النساء قد اقبلن ييكن على قبور السباكين ،
ويرندن الحجب والجلابيب البيضاء التي تغطيهن من رأس الى
قدم . رأيتهن ييكن في حمت ، إجابات على ادراج الاضرحة
او بين الزهور النامية صفوفاً على الأرض . والوقت ساعتها اول
شق الفجر . فزود الصباح يقمع شيئاً على القبور فيضيئها وعلى

^١ يقصد ، بالطبع ، الحرف العربي ، لأن التركية ليس لها رسم معروف
مخصوص بها . - المغرب .

أبراج القلعة المحيطة . لكن الشطر الأعظم من المقبرة المكنظة
بكثرة السكان ، كانت لا يزال ملتقى بالعملة التي يشغف بها
الشرقيون . فهم لا يحبون أن يقدروا على القبور في رابعة النهار ، بل
يؤثرون مثل هذه الزبارة بكرة الصباح أو العشية ، ولا سيما العشية .
وتعد هذه المقبرة في صيدا من أروع المنابر في شواطئ
سوريا . وكان انقاض قلعة لويس تقول كالمقبر في جوارها :
أن أمانى هذه الحياة وغرورها إنما هي كـ « الحكاية التي نحكي » .
وعندما يسقط شعاع القمر على أبراج القلعة والأشجار والقبور
نحتها ، والشخوص البيضاء الداهية الآيلة في بطن ، يبدو المشهد
مهيئاً يرسخ في الذاكرة فلا يعتريه نسيان .

جون^١

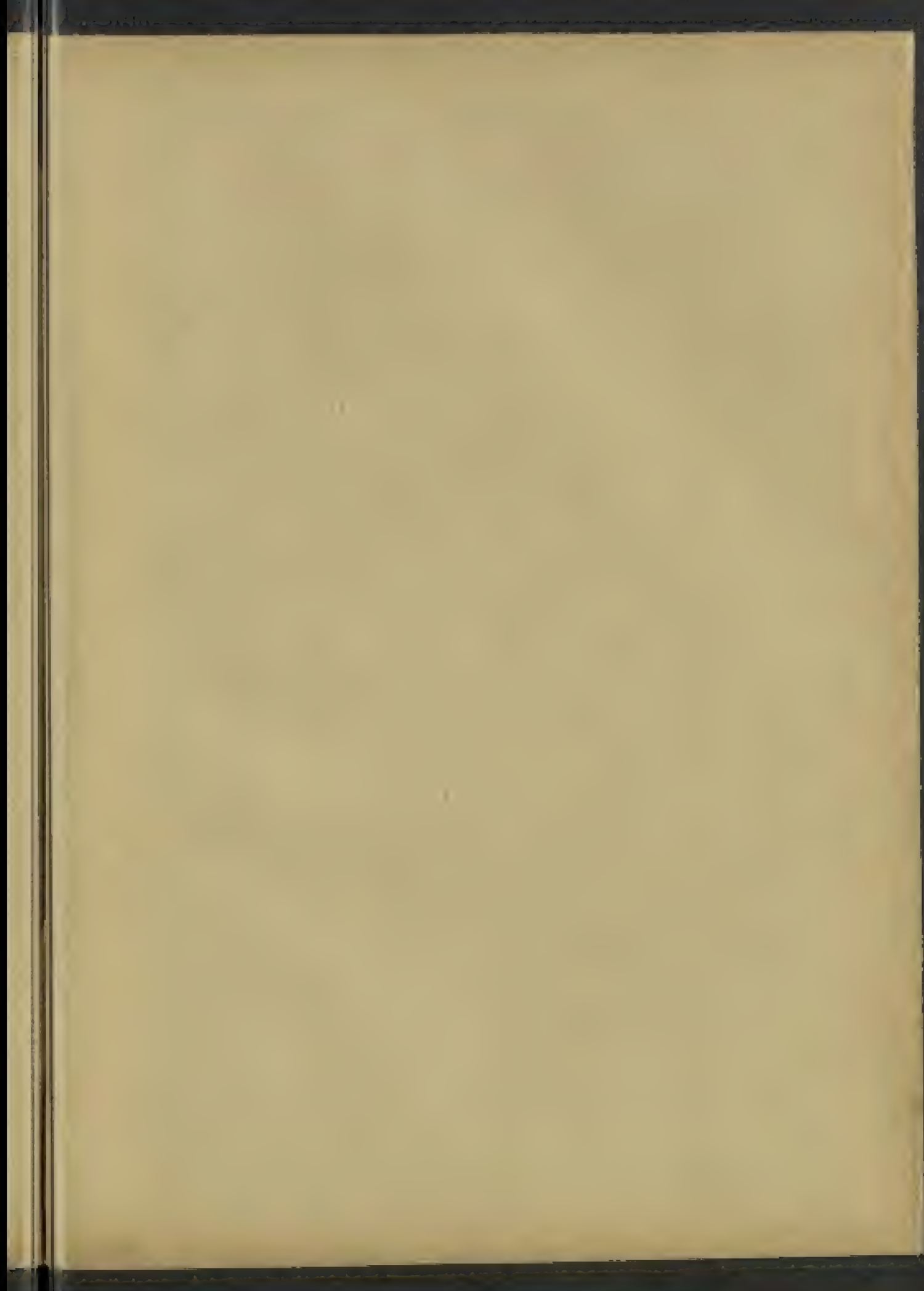
مقر اللايدي اسير المنيون

أقلت صورة مشهد هذا المقر ، الذي نزل فيه السيدة الشهيرة ،
من مدخل صيدا ... بل ساء هذه البقعة ، لما ينجلي فيها من
تعتيد ووعورة وتضاريس ، للشبه كثيراً من البقاع في جبال
الآبين . ونبدو الطريق الى مقر اللايدي في مقدمة الصورة ؛
طريق صاعدة منعرجة تسير في التواءاتها حتى تنتهي عند الفجر
نفسه . خطأ إنها النوع من طريق تعترض الرقبة للكسر . فكان
اللايدي ضمت من كل من يجمع الى مقرها ان يجهد قبل ان يصل
الى مباهجه ويتسلل « ويتكبد المشقة » شأنه شأن « كريستين »^٢
وهو ينسحق « آفة المضارب » . خطأ ان ديانا هذه تترقى
ببؤادر من غريبة الاطوار والشذوذ . لكن يستحيل ان توجد
بادرة ادلة على غرابة الطور والشذوذ من اخبار اللايدي مثل هذا
الموقع مقرها . ان المكان وجواره ليحفل بشاهد الجمال والغنى ،
وبالأودية والمضبات المظلة التي تحجبها هضبات اعلى علواً ، وفيها

١ نهجتها في الاصل عنه المؤلف : جوني Djouni . وهو خطأ . - المغرب .

٢ « كريستين » Christian على رواية « سباحة المسيح » التي كتبها في
السنن الاديب الانكليزي يوحنا بنان . - المغرب .

卷之四



الماء الموفور . وغني عن القول ان لبنان يشتمل على مئات الجمالي
الطبيعة ذات المشهد البديع والبحر الحلاب . لكن هذه السيدة
- وهي اشد شغفاً بوعر الاشياء ومهيبة منها بنواعم الاشياء في
هذا العالم - آتت إلا ان تقيم وتكررها النسي على قمة جلودية
تكسبها الرياح من كل حوب . والله الغياض الكثيفة العميقة
اللون ، التي تبدو في الصورة فوق جدران القصر ، إنما هي الحدائق
التي اوجدتها بيدها : حدائق رائعة الحسن والاحضار . ويحلو الشرق
كله من حدائق مثلها يستطيع المرء فيها ان يطالع هذا
الجمال كله والتنوع كله على مثل هذا التسق المناس من سرادقات ،
ومماضي تظلمها العرائش ، ومربجات المشاب ومغارس اشجار . وقد
اتبع للرسم شرف الاجتماع بحضرة اللايدي ، في احد سرادقاتها ،
مدة ساعات انس فيها بحديتها . حتى اذا اقبل الليل حلق بالقرية
التي الى بين الصورة قبات فيها في الهواء الطلق . وبين هذه القرية
وجون وهذه خيطة وعرة مستنة الانحدار منعنة من ان يواصل
المسير الى جون في حلك الظلام . وتشمخ على كتب من المكان
سلسلة جبال لبنان الوسطى ، الشائعة ، المغطاة ثلجاً ، فتغلق على
النظر مداه . ولا يعدو مشهد هذه السلسلة من الجبال ان يكون
في هذا الموقع ايضاً مشهداً رئيساً مملاً لا جلال فيه ولا فتنة .
وهناك ، على القمة من هذه السلسلة ، قر الطريق بين بيت الدين
ودمشق : طريق يستطيع المسافر عليها ان يتناول بصره مدى
رحيباً جهة البحر ، ومدى رحيباً جهة الداخل حتى مياه ميروم ،
او بحيرة طبرية .

اما الزي الذي تبدو به النساء في مقدمة الرسم فهو الزي

الشائع في لبنان .

ولا يحسدن السبدة المقيمة في جون شتاء ، أحد من سائر
سكان الارض المتواضعين ، او من سائر سكان صوامع الاديرة
التي تملأ منحدرات لبنان . فاذا صح ان البال الهادي والابن
المعزي هما اهم جوهر في السعادة في هذا العالم ، فان كاس اللايدي
قل ان يتزوج فيه عذبان الجوهران . وتقد أصبحت الاحلام
وتكهنات الفلكيين هي الشغل المحبب الذي يشغل اللايدي في
اعوامها الاخيرة . ولولا هذه الاحلام ولولا هذه التكهنات لكان
هذا المساء - مساء حياتها - شقاء عظيماً عليها ، وان كان شأنها شأن
نورا ، المتألمة بالغبوبة ، لما تاب اليها وعيا احست بان
قدوتها على العناصر انما كانت وهمساً في وهم . وليست آراء
اللايدي في رؤيا المسيح بأقل شططاً وتهوساً من بعض تنبؤاتها .
وفي حلة هذه التنبؤات ان المسيح سيعود ، وان البطية عودته .
ولذلك تحفظ اللايدي هذا الجواز العربي الجميل ، الأبيض بياض
الثلج ، فتأمر بالقيام على خدمته في اصطبلات جون وتنفق عليه
إنفاق ترف لا يفوقه إلا إنفاق كومودس على جواده . فاللايدي
قد أعدت هذا الجواز للسيد المسيح يدخل عليه القديس دخول
الظافر ، وتكون هي وراءه في المركب تنظي فرساً سوداء
رائعة الجمال . ويوم ان زار لبنان القس ل . و (لا اقصد
وولف) ، هرع اليه مشايخ العرب جماعات جماعات يتدحونه ،
ويقدمون له سلاحهم وخدماتهم اذا كانت ينوي - على ما
يقال - ان يقيم نوعاً من ولاية جديدة . وبالطبع ، ان ما غر
هؤلاء المشايخ لم يكن سوى ما سمعوه من انباء ثروة القس

ونفوذه .

إلا أن الشطر الأفضل من مدار كرسه تغلب على الشطر
الأسوأ . وأعانه على هذا التعقل مرض طال أمره . فلم يذهب
مع تيار هذا الاغواء ... قضى القس ثلاثة أيام في جون بدعوة
من سيدة القصر ، ورغبة منها في أن يعنى طبيبه بخادم لها وجد
عندما حظوة . وهكذا اجتمع ، تحت سقف واحد ، بشريان من
اعظم متبوسي هذا العصر ، يتافض واحدهما الآخر مناقضة عنيدة
في العاطفة والغاية . فواحد ، هو القس ، يكرس ماله ووقته
وذكائه لنبيشير اليهود ، بالخلاص لا ينضب وغيرة لا تخمد .
يحتار كل أرض وكل مدينة ، ويدخل قصور الملوك ، في سبيل
استنقاذ شعب اسرائيل الضال . يبذل الف ثروة ، لا يرى في
الامر غلاء نفقة ، لينقذ يهودياً واحداً . ويقطع الف ميل ، لا
يرى في الامر بعد مفاقة ، ليورد الى الخطيرة عبرانياً واحداً .
أما اللايدي استير فكانت تنظر الى هذه الشؤون كلها نظرة مقت
لا يوصف . على أنها كانت تحب سيرة خيبتها ، فعاملته معاملة
لباقة غريبة . لكن لم يلبث الامر ان انكشف عند انتهاء مدة
الزيارة . وقد تم هذا الانكشاف بصورة ذات دلالة خاصة ...
كان الضيف يرغب في انتهاء فرصة مناسبة يحول فيها افكار
السيدة نحوياً جدياً شطر الديانة . لا ان مثل هذه الفرصة كانت
نادرة في جون . ومع ذلك ، فقد حدث مرة ، قبيل اوان الرحيل ،
ان جلستا يتحدثان ، فأغرقت اللايدي في بعض خطرانيها التي لا
يضبطها ضابط . فاذا بالضيف يبذل لهجته قبلبس حديثه طابع
الجنة . فأصغت اليه في هدوء ، وعلى صورة تحبب معها انها متحمسة

لحديثه حماسة فامية . ثم عقب ذلك صحت امند بضع دقائق . فهل
يكون ذلك القلب المنكسر تآثر ولان ؟ أجل ، لقد تآثر ، ولكن
بما منه من الدعشة والغضب . وارتسمت على شفهي اللابدي ابتسامة
هاذئة ، مرة ، صعبة ، لا تطاق . ثم قالت له : « اعقدت التي اؤوى
تحت شفهي رجلاً مهذباً ، لكن هذا الصنف الذي انا آريت
مبشراً متعصباً ! »

يقال ان المستفيين العظام انما هم هؤلاء الذين يتلون دورهم بقوة
نفسها ، وسواء اكان دور امير او فلاح . ان هذا الاطراء
ليطبق على حضرة اللابدي التي مثلت شخصيتها بقوة وانفتحت
دورها ، على كل ما يمكن ان يكون الشمل عليه هذا الدور من
الختلاف والغير . ففي السنوات الاولى التي اقامتها في سوريا ،
كثيراً ما وقع ان اجتازت الصحاري ومثلت دور ملكة لبدو ،
على حراز نسوة الامازون ، غطيت جوارداً عربياً بديماً وفي يدها
الرمح . تزور الامراء والباشوات فتعطي . في الاعم الغلب ،
باعجاب العظماء وبدهشة من هم ادنى مرتبة ، يحلقونها ايجلاً ويوقرونها
توقيراً . فقد كانت في سلوكها عيبة وجسارة هادئة ، وكانت في
حديثها قوة وطلاوة ، وذلك ما لم يتعوده هؤلاء في النساء البنية .
ثم انتهى الفصل الاول من الرواية . اخذت قوة هذه النفس
الفرارة وهذا البدن النضر تضعف شيئاً . فاقبل الفصل التالي من
الرواية : فصل التنجيم . ومكثت جبالها الجميلة كسلى في الاصطبلات .
وقلقت جسارتها على اجتياز الصحاري وبجارية المخاطر . ونحوالت
ملكة تدمر الى امرأة معتزلة ، غارقة في حياة بينية عصبية . وبات
المشايع والامراء لا يرون مواكب السيدة العظيمة ، نخب خيلاً

الى ابوابهم . لكن جملة كعاسها وغيرة كغيرتها انقلب بها
شطر التصورات الخرافية . إنها تعيش الآن عيشة جيد تستمد
الغذاء من رؤى المستقبل . وقد افقر حاضرها إلا من مباحج
قلبية جداً . أصبحت صحنها على انبهار ، وعوى بها نجم العمر ،
وفارقتها الرغبة في بذل النشاط ، حتى باتت لا تفارق اسوار جيون
وحدائقها نهاراً او ساعة من نهار .

بقي الفصل الثالث من الرواية لم يثل . ولأن تكون الخاتمة
مفجعة جداً ، ومؤكدة أنها لن تكون خاتمة سعادة او حظ .
أية امرأة باستطاعتها ان تشهد « الاوراق الصفراء » تنساقط حولها
في ابرام ، ثم تنقش مع ذلك تلك الالهوال في فاعات جيون وهي
رابطة الجأش برغم فقد الاصدف ، وانعدام الايمان وشدة الوحشة
المحيطة بها ؟ أجل ، أية امرأة تطيق مثل هذا المصير إلا اللابدي
استير المستبوب ؟

في طبيعة عقل هذه السيدة نقص تم يتجلى في خلوعها من
البساطة . فهي تبدو دائماً بظهور الخلق المسرحي الذي يتل دوراً
مسا ، يقصد به الى اثار الدهشة في الاهلين او في الضيوف
الزائرين . وفي اللقاء الذي تم بينها وبين لامرئين ، نرى ايام
المرأة النجمة يتعارض تعارضاً بديعاً وكبيراً الشاعر وغروره .
على انني سأورد هنا وصف اللقاء الطريف بينها وبين السيد الذي
رسم صورة هذا المشهد الجون . ولم يسبق لسائح زارها حتى اليوم
ان اطرى مفاتيح الشخصية مثل هذا الاطراء ، قال :

« وجدنا بالباب جماعات من الالبان والانكشارية الشرسين .
على ان حاجباً من مقدمي الحجاب ، متناهي في اللطف ، فادع الى

الحجرة المبياة لنا : حجرة انكليزية ، شرفية الطراز ، بين بين .
فما انقضت دقائق حتى بعثت حضرة اللايدي في طلبها لتفترج
بحدائقها . وكنت اتوقع ان ارى امرأة مسنة مغطنة متفطنة .
لكن فوجئت مفاجأة جدية بطالعة خيقتنا العربية وسماها
النبيلة اللطيفة . لاشك انها كانت في صياها فائقة الحسن . فهذه
فلمات حياها ناعمة دقيقة معجبة ، تجمع بين الميابة والحلاوة جمعاً
ياسر اللب . كان زينا على شيء من الغرابة ، لكنه شديد التأثير .
وكان لباس رأسها من موسلين شاحب اللون يغطل جبهتها الرفيعة
للشاحبة . وقد آتست في طالعها - ولا ريب - بكرة ضئيلة من
بواذر افسنيريا التي تعترها نوبات نوبات . لكن سيماها ، مع هذا ،
تبدو بصورة عامة ، سياء امرأة موفنة يقيناً هادئاً بصدق مبادئ
اطمأنت اليها اطمئنان رضى محقق ... سارت بنا الى قنطرة ، في
الحدائق ، انكليزية المظهر . فما رددت ذلك حتى اجابني : « لا تقل
هذا القول ، فاني اكبره كل شيء انكليزي . » ثم اومأت برأسها
جهة صاحبي ، وكان امير كياً ، فقالت : « ان نجمه نجم سعيد - سعيد
جداً ! » وعادت فوجهت الي الخطاب : « ان مزاجك مرح ، ترى
كل شيء زاهياً بلون الورد . انت ممن يحسنون عبور الحياة .
وسترفع حوالى اواسط العمر . ولك ميل الى ان تغضب احبائاً
غضباً عنيفاً . وبامتطاعتي ان ازيدك كشفاً عن ذاتك . » ثم رحنا
نطوف بالحدائق وكلمها من صنعها ، فعبينا حضرتها وحسن نسقها .
ودعينا بعد ذلك الى تناول طعام الظهير ، وكانت اللايدي قد
نبغت بطعامها الخفيف من قبل . واشهد ان الغداء كان محيياً
للروح . وكان لا يزال في سخط عالى من ليلة امس ، فدفت

البقية الباقية من سقطي في صحن من مشمش منقطع النظير .
 حتى اذا ازف المساء بعثت في طلبنا مرة اخرى . فوجدناها في
 سرادق في الحديقة ، منكئة على مقعد ، وبين الاملها نويج طويل
 مطرز ، مقعدها مزوي في زاوية . فما رأينا مقبلين حتى ظلمات
 عينيهما بكفها ، فجعلت من مكانها لتأمل قسما في صمت كأننا
 تريد ان نسهم او تثبت معرفتها بطباعنا على نحو ما خيل لها .
 وأنتنا بذبة نوبية بالقهوة ، فشربتا على حديث . فذكرت
 خلال كلامهما ان الجن الصالح سيظهر في اجل قريب ، وان
 الارض يحلها الآن الجن الشرير منهمكاً في الدسائس ، وهي
 تعرف موضعه . فاذا ظهر الجن الصالح اسرع الناس الى لوائه ،
 مخلفين النساء والاولاد ، فقع معركة عظيمة حامية تنتهي بفوز
 الجن الصالح . وعلى الاثر ينقلب عالمنا ، هذا المسكين ، الى عالم
 نظام . فتجرات انت اسفاً : ومن ابن منشأ هذا العلم العتيق
 بالمقبل ؟ فتوددت اللابدي بعض الشيء ، ثم اجابت : « من القراءة
 بالدرجة الاولى . » فحفظت وجهاً للشبه بين هذه الآراء وآراء
 إرفن Irving التي بناها على بعض آيات من الكتاب المقدس .
 وذكرت لها ذلك ، فقالت : « لا بد ان يكون إرفن على حق . »
 وجعلت بين الحين والحين تقلب صفحات الكتاب المقدس زيادة
 في التأكد .

على ان اللابدي اذ تنزل من سبجات الغيوم الى المواضيع
 الارضية المألوفة ، تصدر في كلامها عن فطنة عظيمة ونفاذ دقيق ،
 وتستمد من ذخير غزير من التوارد وسحر قوي في الاسلوب .
 وقد اسبق هذا كله على مقابلتنا الانيسة الطويلة بهجة كاملة تامة .

ثم لا ننس لطفها الشخصي ، فانها نصحت لي ان لا اعرض
بحياني للخطر فأزور المناطق المضطربة . وظهرت استعدادها لفتح
باب الصباقة لي على مصراعيه ، اذا كنت عازماً على مدّ اجل
اقامتي في الجبال .

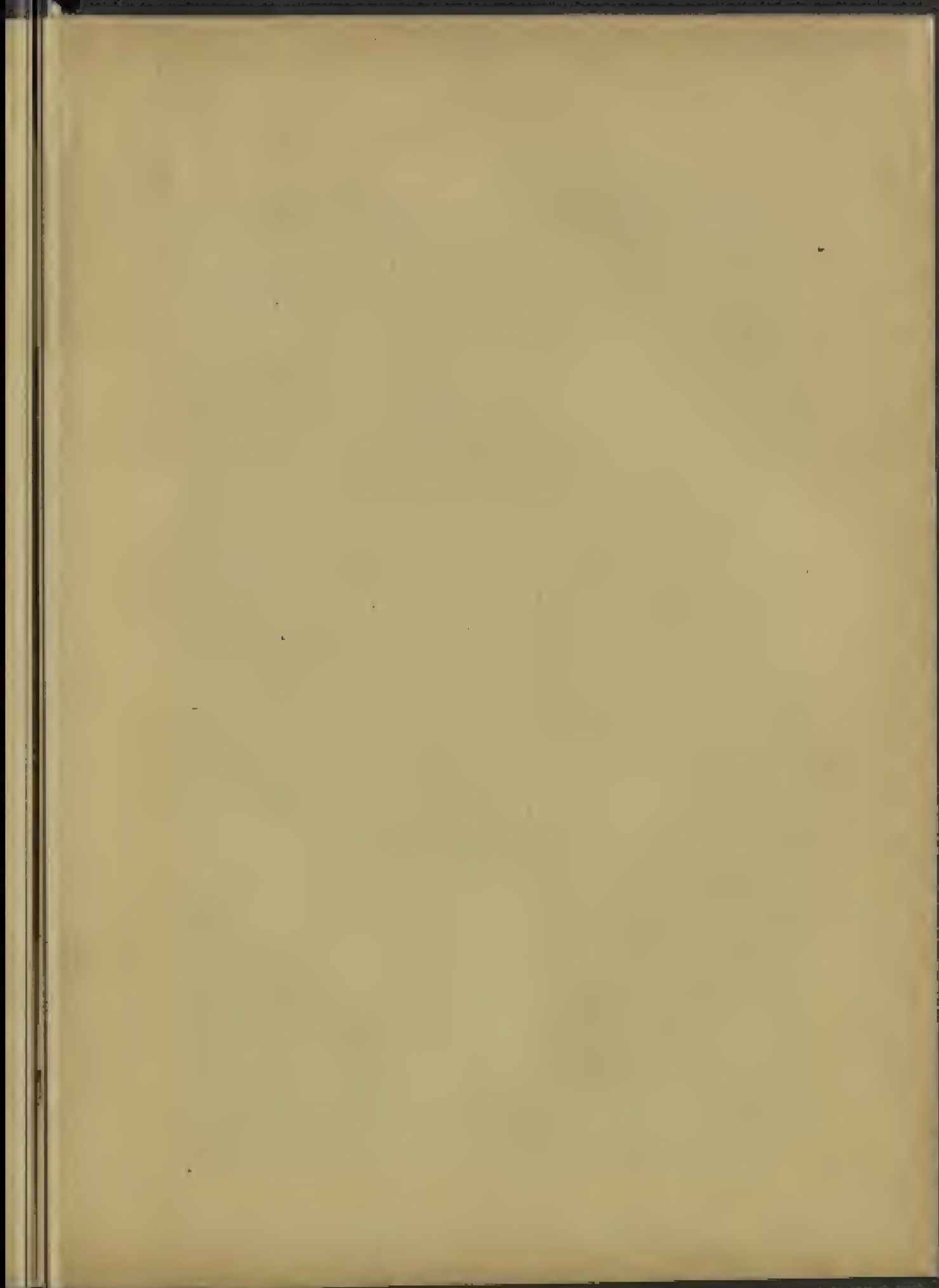
مشهد صور من المباشرة

أخذ هذا الرسم من على مضبة عالية ، تبعد من صور ميلين في السهل ، وتتوجها قرية ذات مسجد . وفي سفح المضبة خرائب كثيرة من اقنية ماء تنح في الظاهر شطر مدينة صور وجزيرتها ، ومنها ما ينصرف شطر بشر سليمان في رأس العين . أما في النوحات الأخرى التي نقذناها عن صور ، فتتواهى هذه المضبة والمسجد في مؤخرة الصورة ... حقاً ان المشهد الذي تشرف عليه هذه المضبة ومسجدها رائع الاثر في النفس . إلا انه جد موحش . كانت الساعة وقتئذ صباحة مبكرة ، فالشمس قد برغت ولما نوثك ، وانفواء ما يزال نقياً طريئاً ، والبحر عاذاً ، تتحدر اشعة الشمس على احضائه الخدواً بديعاً ، والزوارق الشراعية تكاد لا تصادف نسمة . وكانت اسوار صور وبرجها القديم وخرائبها لا تزال في ظل العتمة . شد ما هو صغير بالنسبة لهذا الموضع ، على نحو ما يبدو الآن قائماً في وهن فوق هذه التليلات من الرمل ! ومع ذلك فهو موضع سلف له في زمن اب كان هو المدينة التي ملكت البحار وسادت أمماً كثيرة حسبتها جميعاً مجدها . « فهل صحيح ان مثل هذا الحدث وقع حقاً في التاريخ ؟ » انه سؤال

كثيراً ما يعرض للذهن في هذا الموضع وامثاله . فلا يلبث الايمان
ان ينهري لتجدتنا . ولولا الايمان ، ترى كيف تثبت حماسة
السائح ؟ ما اجدر الحماسة احياناً ان نجتوح العجائب ! وذلك امر
مثال في شخص رجل انكليزي كان زاده من المال زهيداً جداً ،
اقل كثيراً من مقدار النفقة ، التي تستوجبها رحلة في سوريا
وفلسطين . ومع انه كان على علم بهذه الحقيقة ، فلم تتزعزع
عزمته على القيام بالرحلة . ليلقى الفقر او الاسر او المنيعة نفسها .
اي بأس ؟ انه كان على اعدة ان يواجه هذه الآفات كلها في
سبيل إتمام النصد الذي احبه ونوحاه . ومن افوال غوته ان
المرء اذا طوى نفسه على غاية ينشدها ، فصار في سبيلها وانقأ
مؤمناً ، غر عليه الاعوام الطوال بالملاحظة وانكشاف الاماني ، فلا
بد - على وجه عام - من ان يظفر بانتهاء غايته في النهاية ، شرط
ان تكون الغاية التي جهد لاجلها ملائمة بعقيدته وخلقه . وبالفعل ،
أتى على هذا الرجل الانكليزي اجل طويل قضاه على انتظار
ورغبة تعاضلت مع الوقت ، حتى تأجج قلبه في صدره وعجز عن
الاطاقة والاحتمال . فلما طرح به مركب من اسطنبول على
شواطئ سوريا ، لم تكن في جيبه إلا ثلاثون ليرة . وبهذا المقدار
كان عاقداً التبة على السياحة في البلدين وتغطية النفقات كلها
ومشاهدة كل ما تمكن مشاهدته ... هي مغامرة جريئة ، وربما
سماها بعض جنونية ... اشترى الرجل بغلين ، وارندى ثوباً
سورياً خفيفاً ، وابتاع كعبين كبيرين من ملح حملهما على
البغلين ، وطاف بالبلاد مشياً كأنه تاجر ملح . وجعلت بضاعته
تتفص بالبيع ، فأصبح باستطاعته بيع حين وحين ان ينطلي احد

منصور من الناصرة





البغليين ، الى ان اتيج له تجديد البضاعة . ولا ريب ان خطته
هذه لم تكن لتجديه نفعاً لولا اقامته بالعربية . وكان قد سبق
له وهو في اسطنبول ان عني بملعبها بعض الشيء . وهكذا فكان
صاحبنا من اجتياز شطر كبير من لبنان ودخل سوريا . وقد
درا عليه بيعه الملح بعض ارباح نفعه النفع الخزيل . سوى ان
معيشتهم كانت - على ما نستطيع ان نتصور - معتقة قسقة
جداً . وفي احبسان ، كانت توجب له الاكتم من حبيب وخمر
ومر بجاناً . لكنه كان ابدأ بضطر لدفع اجرة لفساء مبيته في
المدن والقرى الكبيرة حيث كان ملزماً بالظهور في مظهر لائق
محترم كبا ينسب له الاختلاط بالاهاليين ، ومراقبة عاداتهم وخطابهم .
ولم يكن ينزل في المدن إلا في الحالات . . . فيهم اول شيء يعلف
بغليه ، ثم ينصرف الى نسليه نفسه ، فيطوف بالمكان ، حتى اذا اقبل
المساء انضم الى حقة التجار النازلين مثله في الحان ، إلا ان نوع
ثيابه وتجارته كان يحول بينه وبين الدخول في جماعة التجار
الاعنياء .

واذا به يوماً بفاجأ بحادثة غريبة . فقد اذى به السير مع
المساء الى مدينة في داخل سوريا ، قصد خانها ، فدير امر بغليه
ثم جلس يدخن في غلبونه الى جانب نافورة الحان التي تصب
مائها في الحوض النقي صباً رتيب التهمة . فما لبث ان بهر
بجنديين من الاتراك يدخلان الحان ويسمعان اليه فيزيانه بايديهما
اللفظة الحشنة وهو في جلسته المتواخية المطمئنة ، فأنبها على فعلتهما
وشعب لونه . فما كان جوابهما إلا ان اسافاه من الحان وهما
يدفعان في قفاه بين الحين والحين . ومضيا به في شارعين او ثلاثة

من الشوارع الضيقة حتى اتيا بيت الوالي ، فدفعاه به الى حضرة
في غير ما رغبة او ليافة . وهنا سرعان ما استطاع الرجل ان
يدرك سبب تلك المعاملة الشاذة ... كان الوالي ، وهو امرؤ من
مضطجعا على مقعد تحت وطأة ثقيلة من الخشب ، ونفر من عائلته
وضباطه وحرسه وقوف حوله . لقد قضى يومه كله يومه الجريد .
وكانت النهار قائظاً فاشتدت حرارة الوالي حتى اغرط في ثوب
الماء البارد . وبالطبع ، سبق لرجال الوالي ان رأوا المنكاري الفرنسي
يدخل المدينة . والاتراك جميعاً يعتقدون ان الاوروبيين ليس فيهم
من يعدم معرفة الطب ، وان الكثير منهم حكماء ، او اطباء .
لذلك جرتوا هذا الغريب الى الوالي المريض وأوماآ اليه بوجوب
وصف علاج له في الحال . فاحضج بأنه يجمل كل الجمل فن الشفاء .
غير أنهم لم يصدقوا قوله البتة . فلما استمر في طلب العذر ، عوض
ان يشفي الوالي ، هددوه بحجده على القور . وعبثاً اغاد عليهم
القول انه يجمل الطب ويمجز عن شفاء واليهم . فقد كانوا
يسمعونه ولا يصدقونه . وازدادت إشاراتهم والفاظهم حدة ووعيداً
وترهيباً . فاخطرب الرجل ، وفي اضطرابه وفنوحه اذار نظره في
الغرفة فرأى بطيخة كبيرة ، فقال إنه يعتقد ان الوالي اذا اكل
شيئاً منها نفعته . فما اسرع ما اخذت البطيخة وقدمت للمريض .
وكان الوالي لا يزال على عطشه الشديد ، فالتهمها بأسرها التهاماً ،
ثم غلب عليه النعاس فغاص في النوم . فاستفتح الضباط ان حالة
واليهم تحسنت اذ رأوه يرقد رقاداً عادئاً ، واقنعوا بان البطيخة
نفعته جداً . فشكروا للتاجر المسكين خدماته ، واخفوا سبيله
فانصرف وبه دعر يدعو الى الشفقة والرثاء . على ان العلاج الذي

وصفه كان أبعد شيء عن أن يكون موافقاً . وساعة ابصر الوالي
يلتهم البطيخة كلها ، انتابت شعوره نوبة من تشاؤم مظلم . لم
يكن أمامه وقت يضعه . ففضل إلى الحان . ترك الكياس ملحه
أرضاً . ركب أحد بغليه وساق الآخر فدأمه مسرعاً شطر باب
المدينة ، وكان - لحسن حظه - لا يزال مفتوحاً . وفد واطلب
على السير طوال ليلته تلك ، دونما وقفة إلا ديثاً يريج بغليه يضع
دقائق . فما أشرق عليه الصبح إلا في قرية أخرى على قمم
الجبال ، في باشوية أخرى لا يناله فيها حكم الوالي . فأقام هناك
بضعة أيام . وهاله في اليوم التالي ، بعد مغادرته مدينة الوالي ،
أن يسمع على لسان بعض المسافرين أن الباشا قضى نحبه في تلك
الليلة التي أكل فيها البطيخة بوصفة وصفها الحكيم الفرنسي . وليس
من شك أن الحكيم الفرنسي هـ هذا لم يكن لبواجه ضوء
الصباح ورأسه بين كنفه ، لو أنه تخلف في المدينة .

سلم صور

معبر على الشاطئ الى جانب صور

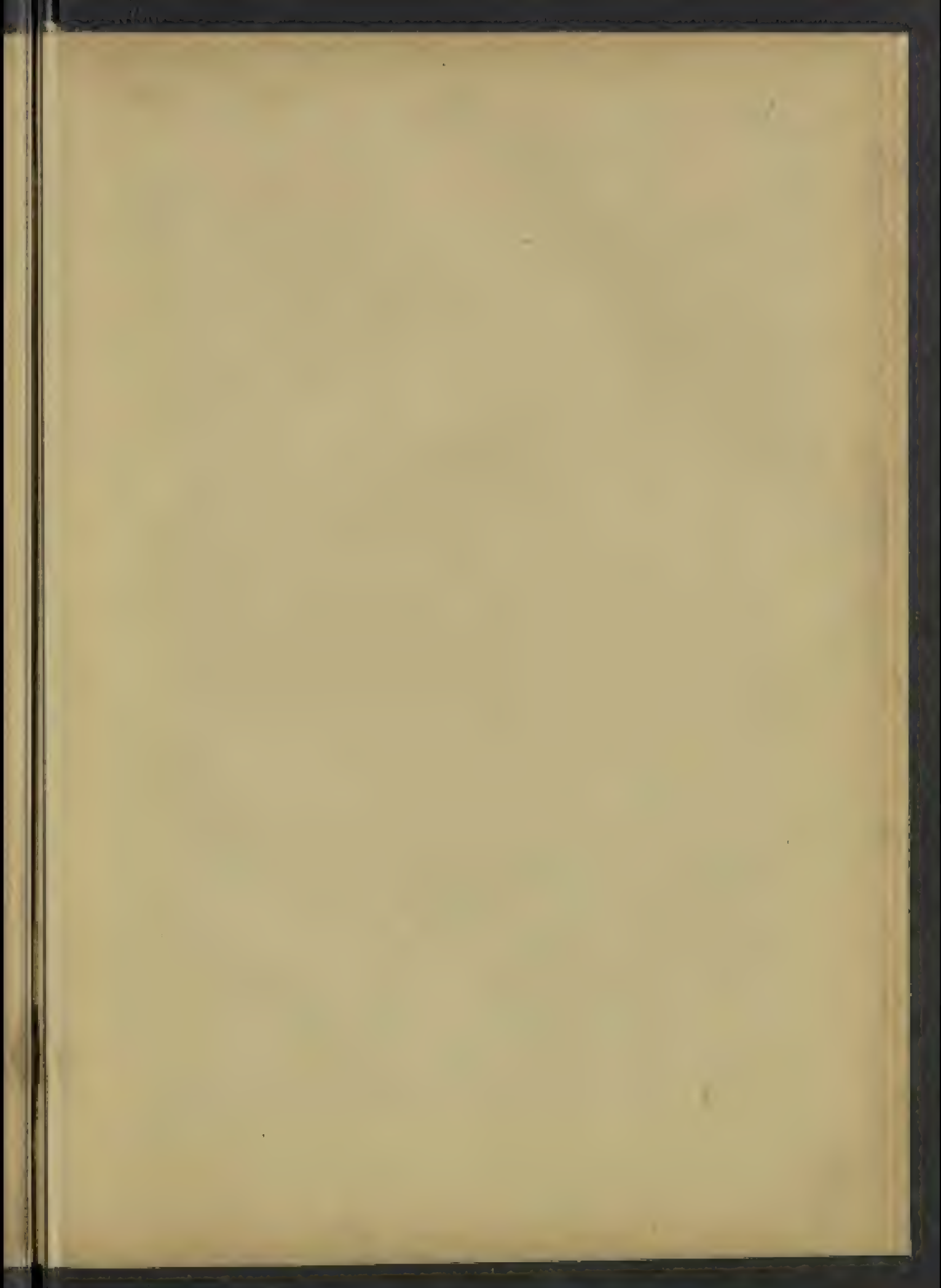
مقبرة متفاوتة هي الطريق من عكا الى صور . يتقدم المسافر ثلاث ساعات في سهل عكا البديع فيمر - وقد أدركه المساء - على حن منفرد في الشاطئ ، ثم لا يلبث ان يتقطع به السهل عند انكبات دنة صعبة المرافي ، وهنا يتدرج في معبر كافا فلتق فوق البحر تعليلاً فأنصرف فوق امواجه لشرافاً رائعاً بعد المدى الى وراء واما ، لكنه مهول مخيف .

ليس المكان كله قيعاً ، فهذا المشهد الموحش من صخور ضخمة جرداء كثيراً ما تؤنس بهقاع اوغر خصباً تكسوها الحرامى والشفائق وتنتثر عليها شجرات سامقة يسوق اليها الراعي امرأته ثمري ... المشهد كله صامت مهيب معروض للبحر ، يذكر تذكر كثيراً قوراً ببعض بقاع من شواطئ التي ولده عليها حيث يضرب الاطلس بقوة حفا في الجبل السماقي Granite . حقا ان وجه الشبه في السمات والاصوات والقرائن بين هذا المنظر وبعض مناظر شواطئها جي قوي ، بحيث يكاد الظن في وقت ان لا يصدق ان النوضع هذا انما هو جزء من ارض الميعاد الحربية .

وهذا هو من آثار دعبة المؤلف التوراتية . - انظر .



244



وانشبت على حاشيتي المعبر اضاميم من الريحان والغار . فاما
هذه التسمية : « سلم صور » فيطلقها بعض السائحين على اكمة
النافورة ، وهي اول عهد من الارض يرتفع بعد سهل عكا . لكن
يبدو في الواقع ان التسمية : « سلم صور » انما خُصت بها هذه
الخشبة البيضاء المثلثة في اللوحة (صفحة هذا الفصل) .

يخترق المعبر ، الذي يدور عليه حديثنا ، ككتلا من صخور
كثيفة ، فهو ضيق وعمر . ثم هو في شطر منه خطر حقا . يقوم
على كتف مهاوي عمودية الانحدار ، ينبسط لديها البحر الرحب .
فأسم المسافر هنا ان يتوكل عن مطيته ، اذا كان يرغب في
استمراء جلال المنظر القروي حوله ، يتوخى الانصات في صمت
لموسيقى الامواج الشرسة التي لا تنفك تلطم القاعدة الصخرية في اسفل .
وترى صور - اول ما ترى - من تلك « النقطة » الثانية
التي يشهد على ام رأسها برج لمحرسة مصدع خرب . وكان ان
اظهرنا نحن على مدينة صور ، لأول مرة ، عند الظهيرة . فرأينا
الضوء في رابعة النهار يفيض على صخورها وشبه جزيرتها الرملية
وآثارها المهدمة وبيوتها الخالية . لم نسمع صدى صياح ياتينا على
الامواج من بخار ، ولا سمعنا اصواتا من السوق المكتظة او من
مقاصير الترف والبلذخ ...

بعين البصيرة ، شاهدت قصور صور ذوات القباب ،
وخزائن بغائرها البهية الباهرة .
شاهدت الحجارة الكريمة ، والعطور ،
والصبغة التي تهي وفد زينت بالزهر آلتها الموسيقية ،

والرفيق الذي يستوجب جماله ثناً لا يدفعه إلا الملوك .
من كل أرض نفذ عليها جميع الأمم ،
وينفذ الملوك عليها سفراء .

ثم نظرت مرة أخرى فبصرت شاطئاً موحشاً ،
وضخراً في الماء ، وفقرأ
من رمال قاحلة ، وسمعت البحار السوداء تعيج عجيماً ،
والرياح تعصف وتسكن في استعجال خفيف .
وما ثمة إلا شجرة واحدة ، مزقة ، شوهتها الريح الزعرع ،
وطفقت نخوتم حولها ضيور البحر صارخة زائغة .
انقضت لحظة ، وإذا بسافر مقبل بطيء الخطو .
تلفت يئس ، فبصرة ، بعين مستطلعة ،
فكانه واقع في شك أوقعه في حيرة .
واذن ، فبده كانت صور ! قال الرجل : يا للانهيار ،
كيف أصبح طاغية بسيطر على قصورها !
أمس كانت هذه المدينة قائمة على جزرها ،
تحدثي الدمار والبلاء ، بكبرياء من بأسها وجمالها .
سفننا مطلية الخيازم بالذهب ، وأشرعتها حريرية .
فيا لتلك السفن الانيقة الباسلة ! أي شيء يستطيع لها صموداً ؟
لكن الدمار والسكون تلاقيا في رحاب صور ،
وقعد صباد السمك على صخرة مدينتها ينشر شبكتي .

للشاعر : هاوت .

بقايا مرفأ صور

جميع ما تبقى الى اليوم ، من صور القديسة ، عبارة عن سور
المرفأ القديم ، وهذا مشهد منه مطل جهة البايسة . اما الجسر
الذي بناه الاسكندر فمدفون الآن تحت وكام من الرمل . مكان
هذا الجسر الى بين ووراءه بقايا قناة ماء ضخمة ، لكنها غير
جيدة البناء . ثم الى ابعد ، تبدو اكفة يتوجها مسجد .

كان صيادو السمك ساعته يجرون شبكاتهم فوق الجدران
القديسة . فكان ذلك مصداق صريح للنسوة القائلة : « هدموا
سبعمون ابراج صور ويجعلونها كصخرة الصخر ، فتصبح المدينة
محلة نقي منها الشباك في البحر . حقا انهم سيطرحون منازل
الرافدة وحجارته وخشبك في العباب . وسوف نخرس قياتيرك
فلا يسمع لها صوت . »

كان هذا المشهد ، في مثل هذه الساعة ، شيئاً يبعه
الانسان ، فيندكره في نواحي الايام ويغضب له . الوقت خطيرة .
لكن الحرارة تلتقطها نسمة دافئة تنفخ بها البحر في وجوهنا .
والجو براء من هذه المسحات القائلة الرفيفة التي تشوب صفاء
الافق في مثل تلك الساعة من النهار . وهذا لبنان ، الى الجهة

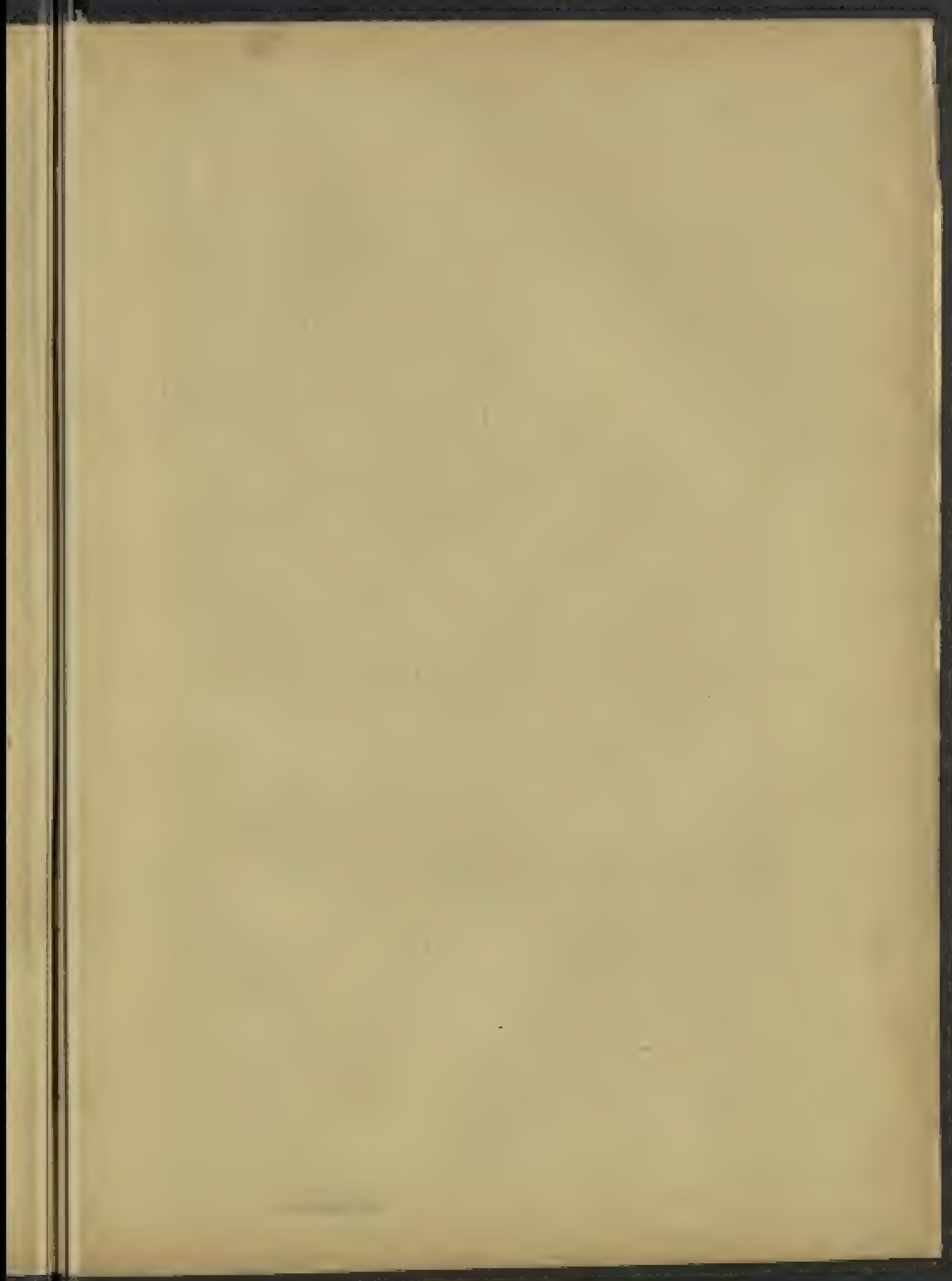
اليمن ، ينجلي سافرا ، مغطيا على المشهد كله ، حتى يبدو حدوده وأوجهه ، مع هذا الصحو النقي ، البديع ، في تناول اليد اذا امتدت طالته . وكانت بضعة من زوارق حور راسية الى جانب الانقاض ، نزل البنا اصوات بحورها ، بين الحين والحين في هذه العزلة الموحشة ، كأنها قدمة من حريق الماضي . وذلك هو نصيب حور في النبوءات : نصيب المدينة الشهيرة التي كانت قوية في البحر . سبيلهم تلك فلا يجدونك البنة بعد اليوم ، هكذا يقول الرب .

تستل مدينة حور المعاصرة على جملة من مباني حجرية جيدة . ويبلغ عدد سكانها ألفين . وموقعها على طرف شبه جزيرة رملية . تمتد على بعد ميل ، او نحو ميل ، من خط الشاطئ الرئيسي . وعرض طول حور يتقارب الثلث من طولها ، تسع رقع طرفة الخارجي حيث تقوم المدينة نفسها . ويظهر ان شبه الجزيرة الرملية هذه انما كانت في الماضي جزيرة تامة ، تمتد من طرفها الشمالي الشرقي سلسلة من الانقاض مباني سائلة اطلتها امواج البحر حتى فوضتها تقويضاً .

حول حور بقايا كثيرة من اسوار ، وانقاض موهوبة من ابراج . وقد رأيت برجاً خارج المدينة يبلغ قاعدته نحو خمسين قدماً مربعة ، ولا يقل ارتفاعه عن هذا العلو ، وفي رأسه قبة يوصل اليها درج صاعد . على ان هذه الآثار لا يمكن ارجاعها الى حقبة حور القديمة . ومع ذلك فهي اقدم جداً من المدينة الحالية التي يبدو انها حديثة عهد . وفي حور جامع وسوق وثلاث كنائس بالسة . وقال ان يجد



Small building



الساحل ، مع ما أصبح في المدينة اليوم من وسائل ، سبباً للافكار
 والصورات المستوحشة . ان في بيوتها وسائل للراحة ، وعند أهلها
 مودة ولطف . فليس يضطر الساحل الى السكنى في اعشاش البوم
 او منازل الحيات المخنقة . وليس يرغم على الاصفاء الى الخلق
 الحرافي الذي نصفه انسان ونصفه ماعز ، منادياً رفيقه . فلا تزال
 في صور غرف عائشة ، ووجوه واصوات حلوة . وهواء صور
 صهي جاف بنوع خاص . وساعة يخرج الغريب من ابوابها ، فعليه
 ان ينتظر مصادفة منازل كثيرة يضطر الى نزولها يرغم انها لشد
 تكديراً وإزعاجاً من منازل صور . ولا حاجة بالغريب ان يزعمه
 ان في هذه المدينة . لا بأس عليه ان يتلصق داخل أسوارها
 جملة أيام . فشد ما تعود السائحون ان يلقوا عليها نظرة خاطفة
 ثم يعبروا الى صيدا . لكن كآب هذه السطور ابى إلا ان يعود
 مرة اخرى الى صور . كنت اؤثر فحفظاً على جثائن صيدا
 وخصبها . وكنت استشعر في الدخول اليها ما يستشعره المسافر
 لدى هدمه على محطة قديمة للتواصل بحب أهلها المنفردون « ظلال
 الصخور في ارض شاقة » ، وكثير منهم يوقدون على اودام هذه
 الصخور وان لم يعوا ... هادفت يوماً - يوم رجوعي - ليلة
 رفيقة بيبة . وفل ان سبق للعسق ان كان وجيزاً كشأنه في هذه
 الليلة . والعسق - على ما يقال - شديد القصر في الشرق . لقد
 شاهدته ليلئذ كأنما ينام نوماً على البحر وعلى الجبال الى يسار .
 وكانت رحلة النهار قد طالت علينا ، فلم ينجح « كريسنتين »
 في سبحة لياب الترحان الذي اقتبح له بشد بما انتهجت نحن
 لآب صور انه تناول منه على الرمس المذود . وسعدنا البحر

يزحف على الشاطئ بصوت خافت ، بينا الأسواق غارقة في
الصمت كأن الناس مرة أخرى أصابهم الفناء ، والشارع الرئيسي
مغلق كله . لم نلق بشراً إلا من مرة هنا من بعض تسوة
حوريات وكاهن أرومي ، وإلا جماعة صغيرة من الباعة ، وحيادي
السك فعدوا كسالى يتمتعون بطيب الليلة .

وتخلو صور من المتارف والألعي الشرقية . فيها حمام واحد
من أبسط صنف . وليس فيها « حكواني » يزيد في المتعة لدى
ندخين التبغ وشرب القهوة . وتعدم هذه المدينة عيون الماء ، ومحطات
المقاول الغرباء . فعلى الوافد الغريب ، إذن ، أن يتكى على
ضيافة أسرة من الأسر ، وما اظنه يجيب .

وباب صور الذي يجنازه المسافر قد لبث عليه ، فقطعه ،
كرمة بدیعة فائقة هي كالقطبنة التي حلتى النبي في ظلها لما
قرعت الشمس رأسه . يبدو منظر هذه الكرمة جميلاً جداً بأواء
شبه الجزيرة الرملية التي تنطرح خالية من الورق وكل أثر الخضرة .
إن هذه الكرمة لتظلل الجدار وعتبة الباب كأن البهجة ما تزال
في داخل المدينة ، وكأن بوسع صور أن تعيد القول : « هاكم
فصوري وجناتي » . إنني كاملة الجمال . »

قصر عند جون

يقع هذا المشهد في الجوار القريب جداً من مقرّ اللايدي
استير استوبوب . ويعبر نعييراً جلياً بديعاً عن طبيعة المنطقة التي
اخذت ان تجعل فيها مقامها . وآخر بالمز رادكليف ان تلقى
موضعاً كهذا مسرحاً لأحدى رواياتها الغرامية ، لولا انه تعوزه
وحشة الغابات المظلمة والخلوات الرائعة التي تحرك النفس . هنا
الراعي وقطيعه ، والكاهن المتحني يجهد في نسق الأكمة . هنا
الشلال والوعدة العميقة ، والجلامد النائلة ، والقمم الملقعة بالضباب .
لكن ، ليس المكان مع ذلك نبأمة للوحي والأفهام ، أو لغناء
وفروسية العهود الأقطاعية . فمن ذا الذي لا يشعر بشعور رجل
قضي عليه بالنفي ، وهو فوق هذه الاعالي ار في هذه الأودية
الشبية بالحبوس ؟

كنا قد خلفنا وراثة صيدا وجنائنها ومزارعها . واجتاز آخر
ار للخضرة الشرفة . فليس أمامنا إلا بعض أودية موزعة هنا
وهناك على الشعاف ، تلطّف ما في الجوار من وحشة تعصر
القلب . لقد استأنسنا جداً حتى ننظر جدران هذه الأودية وكواها
الصغيرة .

ثم طفتت تتجلى لنا - كلها تقدمنا في طريقنا - قرى قائمة على مرتفعات معتقة تعليقاً ، وإلى جانبها حدائق صغيرة جميلة .

أما هذا القصر الذي تستجبل مشاهدته في وضوح قبل أن يشق الزائر له طريقاً عبر وحدات منعصبة ، فيفترض أنه من بناء الدروز . وحسب على المرء أن يتصور موقعاً لبناء قصر يكون أشد حملاً وحشياً من هذا الموقع . تتسلق مرتفعاً مستشاً على منكب وادٍ عميق ، ينعرج مظلماً بين أنحاث صخرة جرداء محببة به من الجانبين ، فيتأرجح لك عندئذ أن تطرح البصر على بقايا قصر لا تأله إلا وحوش فائضة تنمى فيه المأوى .

إن السبيل إلى هذا الموقع لشديد الرومورة والتعقيد بحيث لا يعرج المسافر ، ولا البدوي ، على غرف هذا القصر البيت ولو لبنة واحدة . ما أهدم هذا الموقع عن أن يكون مبانة لأحد القريش الميسرين أو لأتباع الفتيار الشريرة . آخر به أن يكون مستوطناً للعرل أو العفريت ، أو لذلك المراقف الساحر الذي أصبح مادة مديدة مستشار « سيدة جون » الخاص . وكان الجبال الباذخة تطل على تدابيراً ، من كل جانب ، حول هذا القصر الخراب الشيد فوق صخرة مطوقة بجري سبيل شوي عجّاج يتولى خلال الغامث التي تتأخم طفنته .

ولم أذبح الرسام في تصور هذا المشهد ، وسأله المشاهد حول لبنان ، ما يدعو إلى الإعجاب من براعة وأمانة ... غادر هذه البقعة منجهاً إلى أحد الأديرة ، رغم أن أمامه صعوداً جبلياً عملاً لا أتو فيه لطريق أو خطى غار سابق . ويتلمن هذا الدبر مولدة كانوا ، ويضع نساء ، منهمكين في حل الخبز ، في بناء

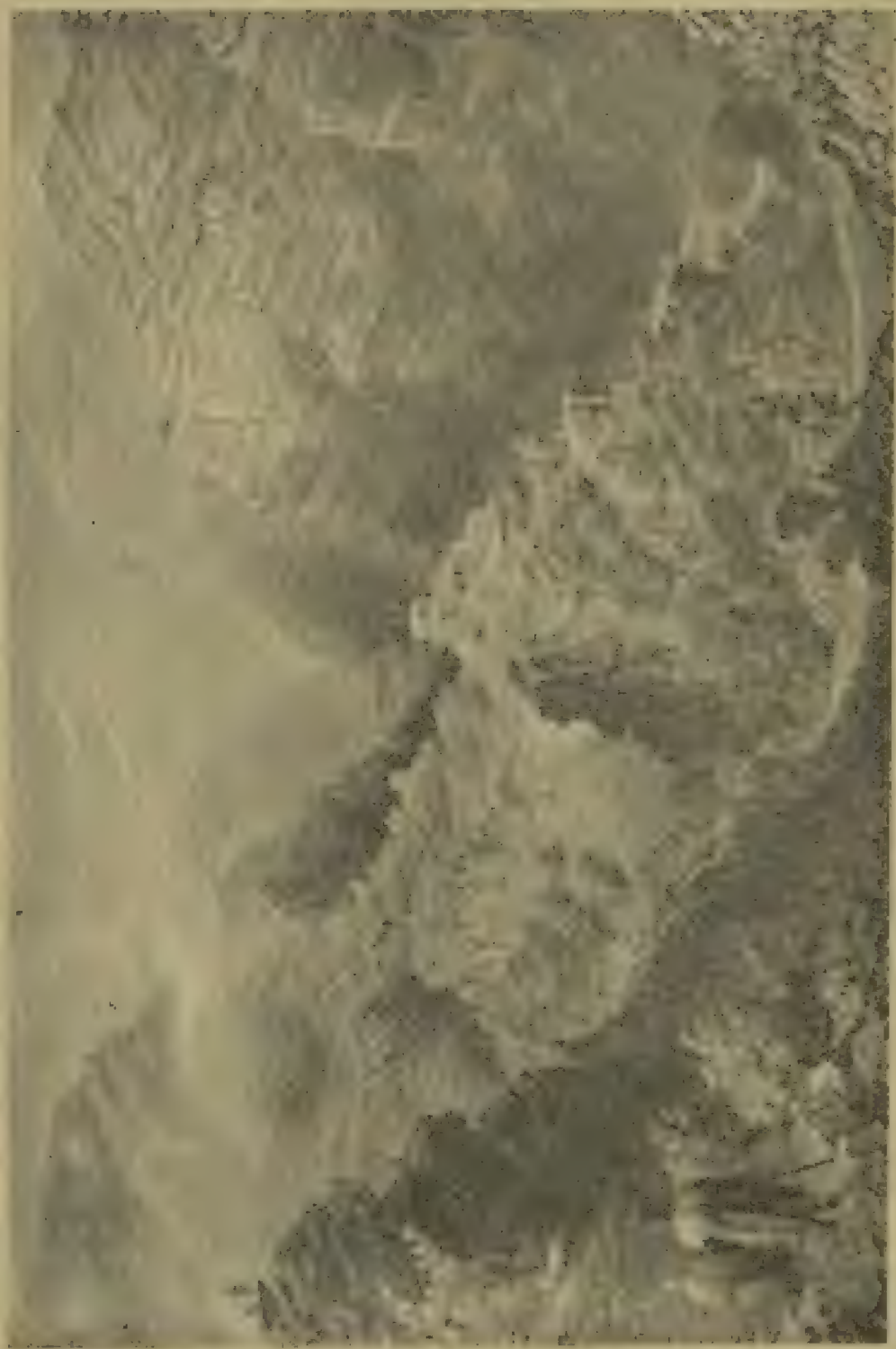
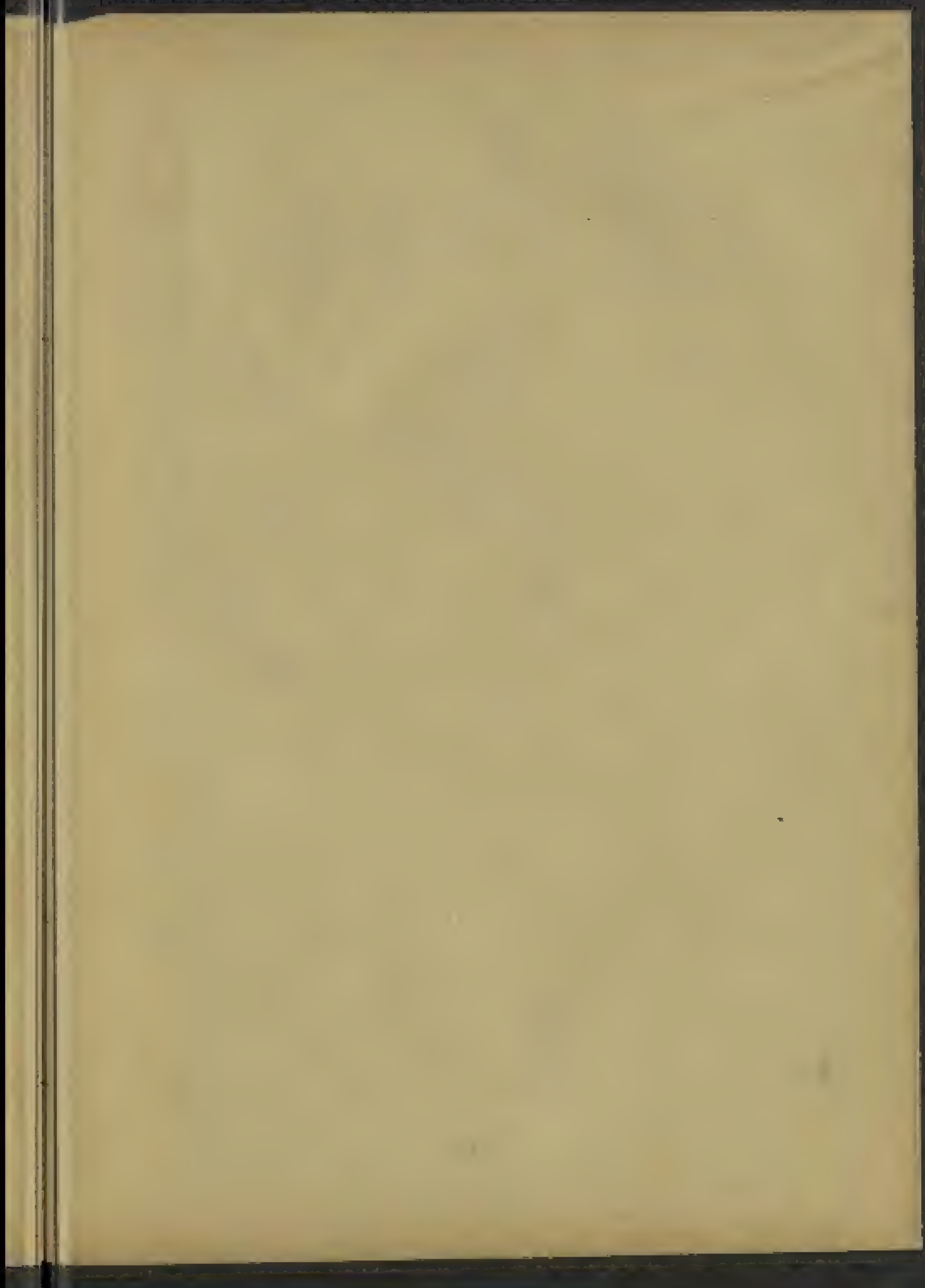


Fig. 100



متفصل . فلما دخل الدير حتى جيء اليه بالقهوة والمطويات . ثم
اطعموه على الكنيسة ، ليكن لم يطعموه على الجملات المختبرات
الموافي كن يشرفن من خلال السائر . ذلك بان كثيراً من
الراهبات يجاورن الدير . ولم يبد في سماء هؤلاء الرهبان الموارنة ،
او في حياتهم ، ما يدل على السامة والوحشة . كل شيء في مظهرهم
تم على انهم جماعة مروح ، لا قسوف او شظف .

غير ان اسقف الدير الآخر - في الجوار نفسه - كان امراً
من معدن اسنى والقى . وبدأ رهبانه على جانب عظيم من الهدوء
والخشوع ، إلا انهم لم يكونوا قريبين من القلب كأولئك الرهبان
الذين زارهم الرسام من قبل ... وسرعان ما اقتادوا الزائر الى
حجرة اسقفهم ، فوجده شيخاً مريباً ينف على الثالين ، عميق الاثر في
النفس الى ابعاد الحدود . صاحب عيانه شعوب الممر ، وناطق
بالضيق اللامتناهية وبالعطف على البلاء والضعف البشريين . لا تخلو
فجانه من كتابة ايضاً تريد في جاذبية طاعنه ، وندرت الكتابة
في سماء امثاله من الشيوخ الطاعنين في السن . وربما تلاً في
عينه يريق هزيمة كأنه دلالة على العالم الآخر الذي يقترب منه
في اسراع . شدة ما كانت هذا الشيخ يذكر بالقدس جيروم
الدومينيكا في ! ولم يلبث زارده ان قال له : « انتك لمن ايها
الاب المحترم ! » فأجبه : « نعم ، وسأفني دوناً إبطاء . انني على
أهبة . »

وبما ايج الزائر ان يرى العطف الذي كان هذا الشيخ يري
به الاخوة الصغار .

ثم استأذن الرسام في الانصراف من لدن الاسقف . فافتراده

الرهبان عبر الكنيسة والمقاصير الكثيرة في الدير . ولم يتكوا ان
يبدوا له زعمهم بالزخارف الرخيصة التي تحلي البناء المقدس . وفي
غرفة الطعام دلوه على حجمة بشرية معروضة على المائدة .
ثم افض الطواف بالزائر الى بناء منفصل اقام فيه الرهبان
مدوسة وانصرغوا في العناية بشؤونها . فالكسل بعيد عن هؤلاء
الجماعة . وهم في العادة يشتغلون بزراعة الكرمة والزيتون والنوت ،
ولاسيما الخبز .

ولقد كانت خيافة هذا الدير بركة ونعمة في ابنة كالمية
السابقة . ذلك بان الرسام شرع في الطلاء خلال الاودية . ويجهد
ما استطاع الوصول الى كثف حوة عميقة طالع منها النوار
تلتع في قرية قريبة . فمشى على الطريق المضافة بشمعاع الفجر
حتى الى سباحا اختوفته فاذا به يجد نفسه امام جماعة من
النصارى الموارنة فعدوا في ضوه فتدبل على مصطبة من طين
امام منزهم . فرحبوا به ترحيباً مؤنساً . وانبرت صبيحة وسيدة
سوداء الخدقة ، فانه بطامة من حليب سخين .

كان هندامها انيقاً جميلاً ، يمزج عدد من النقود والخلي الذهبية
جدلت مع شعرها وارسلت ارسالا على جانبي وجهها . وتلك عادة
تعتبر في تقاليد العائلة . وبرغم ان اهل البيت كانوا فلاحين
بسطاء ، فم يكن ليعوزهم في سلوكهم وفار طبيعي غير منكسف .
وسرعان ما اخلوا المصطبة بالضيف ، فبسط عليها عباة باطن من
كل انواع او تكثير . وحطقت ثأنيه السمات باردة منعشة من القمح
المتجورة . فالتبس لنفسه شيئاً من رقاد . لكن مضجعه كان يسير
الحظ من الانس والدعة ، فلم يستطع ان يستدوج الكرى الى عيابه .

زرافة ١

أو سربنا القديمة

أهمية هذه القرية محض توراتية ، تقع على جانب من هضبة تبعد مسافة ساعتين ونصف ساعة من صيدا ، وحوالي نصف ساعة من البحر . وهي تشرف من ناحيتها على منقح من سهل ، محروث حرثاً صالحاً ، ينتهي شمالاً عند صور ويمينا عند صيدا . لهذا الموقع جمال فضائي طلق . وكل مسبحي يود أن يقضي يوماً وسط المشاهد التوراتية الحادثة ، على الآكام التي نزلها الانبياء ، أو في الأودية التي حلوا فيها واغترفوا في تأملاتهم ، انما يجب عليه ان ينفق مبيتاً في سربنا .

يتد الوادي ، الذي تطل عليه هذه القرية ، بعض مسافة بين امضبات . ومساكن القرية وسكانها اهل أنس وفلاحة . وليس فيها خرائب ، أو جدران شاخصة بلا سقف ، أو ابواب شائخة غطتها العشب والزهر البري ، فبقيت ماثلة كأنها أو كوخ لأرملة .

لقد انسأخ عن سربنا ماضيها العريق ، بالنسب من البقاء على الدهر . لكن هوية القرية نفسها ظلت محفوظة . فسربنا ، التي يقال لها اليوم زرافة ، كانت مأهولة منذ اقدم العصور . ويرغم

١ ليس في جنوب لبنان اليوم قرية بهذا الاسم . لكنه المتجه ان المؤلف

يعني : صريفاً - المغرب .

انها كانت تعتبر « مدينة صيدونية » ، فأكبر الخلق انها لم تكن
 في يوم سوى موضع معتدل الحجم ، ذاتي المساحة ، عجز جوار
 صور وصيدا عن ان يفسد اخلاق اهلها وأذواقهم . ولا تبعد
 صور عنها إلا ستة عشر ميلا ، ولا تبعد صيدا إلا عشرة اميال .
 ومن سريتا ، تبدو لعين المطالع جميع جزائن صيدا وقسم لبنان
 البدية والآكام البرية وراء الأكمة نفسها التي تقوم عليها القرية .
 تخلو سريتا من كنيسة ، ومن كل اثر للخدمة الدينية على
 مدار السنة . فكان الاديرة الموفورة في لبنان لا تستطيع استغناء
 عن كاهن واحد ترسله من صوامعها ليقم في هذه القرية ، او
 ليجمع اهلها المسيحيين السريان ، في قداس ، كل احد .
 لعل السافية التي كانت قديماً تزود النبي والارملة بالماء ، لا
 تزال تنبجس من خاضرة الأكمة . ذلك بان « المياه العذبة الجارية
 التي تنفجر من صخرة الخقل » ليست نورة قليلة في سريتا .
 ولكل كوخ كوتن ، او ثلاث على الأكثر ، وحجران ارضها
 من تراب مدلوك ، وديوان لصق الجدار مرفوع من طين .
 ويوحب الزائر الغريب في هذه الأكوام ترحيباً مؤثراً ، ويوضع
 امامه خير ما يتيسر لأهل البيت تقديمه من طعام . لكن الزائر
 قل ان يحتاج ، في مثل هذا الموقف ، إلا الى قصة تدخين وفنجان
 قهوة وفراغ وقت يطوف فيه ابصاره خلال ساعات ، فيرى
 الشمس تنحدر الى الشاطئ ، فالبحر ، نجر شعاعاً على القفار
 والجزائن ، على لبنان والجليل النجيل : جبل الشيخ الذي تواجهه
 تلوجه العين وتسامى قسبه نصب دمشق .
 وهواء سريتا صحي ، لكن رياحها عاصفة عنيفة في الشتاء .

والسهول حولها ، وحتى صدور التلال ، ملأى بالمراعي لقطعان .
وربما كانت هي مداخن الأقدمين .

يوم جال كاتب هذه السطور في جوار سربنا ، وجد ساقية
السهل ، التي يروي الحبر القديم أن النبي شرب منها ، جافة منقطعة
كانها وادي ايلد الذي التقط منه داود حجارة لقتله . لم يكن
في مجرى الساقية أثر من وطوبة . وبين أشباه عثرت عليها هنا ،
قطع من انقاض الخرائب ، وجدت مثلها في السهل أيضاً حيث
كان يقوم شطر من سربنا القديمة .

كانت الوقت ساغسة ظهراً ، فالبهر برحمت متاقلاً على الشاطئ .
الموحش ، ولا ظل فوق التلال لسحابة عابرة . لم يكن في منزل
فقير ، على مقربة من البحر ، كان قوم يبيعون القهوة . فخرج البنا
عربي يدعونا الى شربها .

وخطنا على رؤوس الخضاب وجوانبها كتلاً من الصخر
الاشيب . وداعياً بهر على قطيعه ، وينفخ في شبابه اللبنانية .
وذلك مشهد ربما نرى المرسل الذي يأتي دعوة السجاة ان ينقطع
فيه . فلشد ما كان طريفاً يهيجاً تشرد أشخاص النوراة القديسين
العظام في الارض : سهلها وحجراتها ، واديها وجبلها ، حيث لا
صلة هم إلا بالخطرة الالهية والحب الوهابي ! ان عزلة ايليسا في
الوادي القديم ، وراء الكرمل ، كانت اعمق وحشة من العزلة في
سربنا . ومع ذلك ، فكانت عزلة تلك عزيزة عليه ، ثابتة الأثر ،
لا تنسى .

اما هذا العربي المسكين ، الذي عرض علينا شراء القهوة ، فم

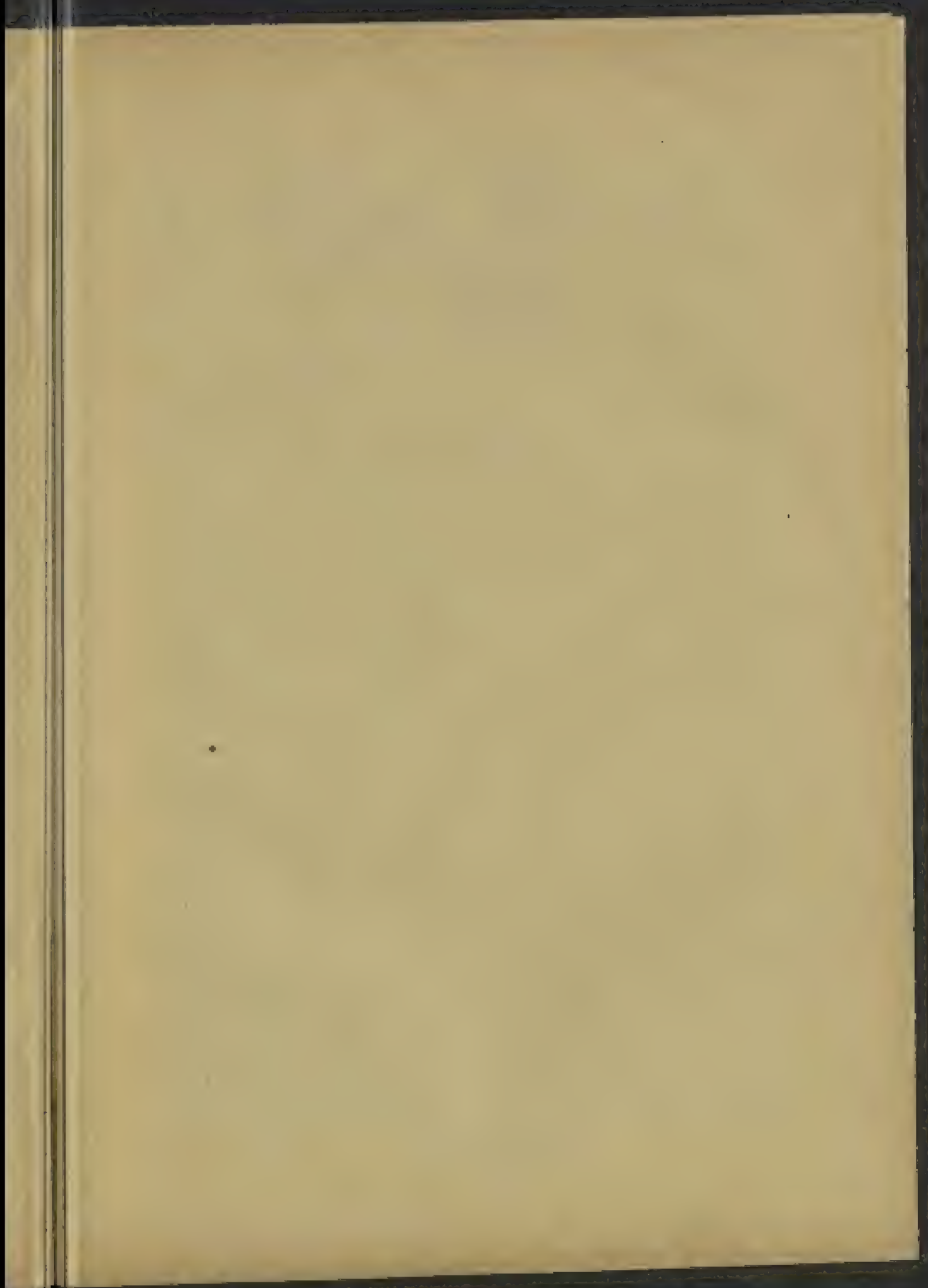
يكن بوسعهم ان يتكلم إلا على طارق يأتيه بالمصادفة ، فقليل
الزائر المتجسس الذي يعرج على بابه . وافل من قليل المواطنين
الذي يحسن فؤاده الى زيارة الآثار السافية من عصور اقدم
واقدم . حتى السائح الحاج نذر ان يلم بهذا الموضع . من تراه
في البلاد يكثرث لاصغور البرشاء وخرائب سربنا ؟ من تراه
يقف الى جانب السافية المنسوبة او يعلق شتائه على صفافها ؟
وهؤلاء الناس في السهل ، الى اسفل ، انما يجمعون القطن من
البساتين التي يعمل عليها بالأجرة كثير من القرويين .

كانت سربنا ، في زمن سابق ، مشهورة بجودة خورمها
والكروم التي كانت - لاشك - تغطي منحدر الهضبة حيث تقوم
القرية الحالية ... ان الهضبات الدانية من صيدا تصبح اوفر ثراً
وتكتسي اكتساء بالدوالي . لكن ما من احد في سربنا الآن
يجلس في ظل عريشه او ثبته . ومع ذلك فليست حالة اهلهما
بحالة اطلاق . فالتربة - حيث نحرث حرثاً صالحاً - هي على
العادة مشجرة ، تكافى اليد العاملة مكافأة طيبة . وحاجات الاهلين
يسيرة ، وعاداتهم قسفة . وزراعة الكرمة والقطن ، وتربية دود
الحرير والمواشي ، تشغل منهم عدداً عديداً . اما الحضر من مختلف
الانواع فزراعتها سهلة سريعة . ويكفي البقطين والبصل والزيتون
ونحوه من الارز ، طعاماً يومياً مغذياً . والحجرة من الصنف العادي
وخبصة السمق . يبقى شيء من لحم ودهن واين وبيض ، يستطيع
اهل سربنا ان يتناولوه .

ان شأن الناس هنا شأنهم في العصور القديمة ، يؤثرون السكنى في
اللال على الاودية . ولذلك كانت مواقع اكثرو القرى على



زراعة او سرينا القديسة



منجذرات الآكام . والسيل بين صور وصيدا عراء حلقى ، لكنه
لا يكون ابداً رتيلاً ملاً . والشعفة فيه الى بعيد جلبة دائمة .
وما اكثر مجاري السيول والجداول الخافة التي تخرق هذا السهل ،
فتلعب على ضفافها وفرة من الارضار البرية والدفنى المنجحة
المبهجة !

منظر وفان على نهر اللبطني

في ليلة جب حزين

هنا مشهد في الطريق بين دمشق ودير القمر ... لنجاز الطريق
هنا جسراً طويلاً على نهر اللبطني : النهر الذي ينبع على بعض
مسافة فوق بعلبك ويجري عبر خرائبها ... ليس سهل بعلبك ،
في العادة ، محروثاً حراثة طيبة ، لكن الزلزال الذي شهدته العامة
يبدو عليه في هذه البقعة بأقوى مما يبدو في سواها . وينجلي في
الوسم الزمي الفلاحي ، والتور يجر التورج لدراسة القمر .
ونظير بضع نساء درزيات وعلى رأسهن المنظور الذي يتهدل منه
الحجاب .

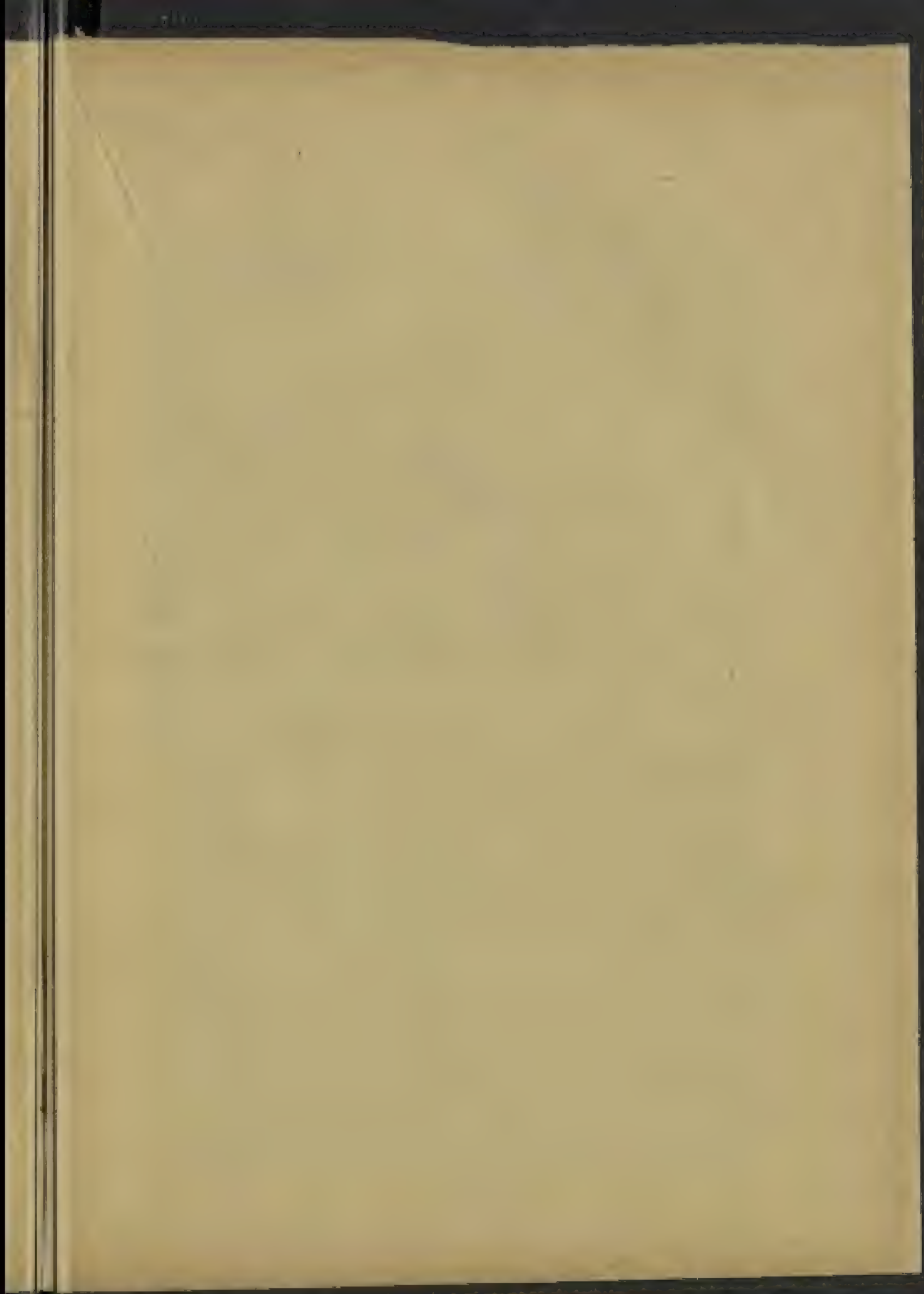
أما البناء على المضبة ، إلى يمينه فهو حافت كبير ، يفتق
عادة بالوافدين ، لأن حركة الانتقال على هذه الطريق بين إقليم
الدروز ودمشق حركة ناشطة على استمرار . ولا تبعد المسافة جداً
بين هذا الموقع وقاعدة جبل لبنان ، في حيث تمتد طريق جاهدة
شطر الباروك .

والحق أن نهر اللبطني يضيف جمالاً عظيماً إلى خرائب بعلبك
التي يجري خلالها^١ ...

١ : أتره الوقفة عند هذا الحد في ترجمة هذا الفصل ، لأن سائر ما يجد
تاريخي - توراتي ، لا يدخل في حيز موضوعنا - العرب .

منظر وخان على البحاني





مرفأ بيروت

لما كنا رجوعاً من بيروت إلى بيروت ،
شد ما أنسنا ساعة انصرفنا لأول مرة ، من القمم الجرداء البعيدة ،
على بساطين المدينة وحدائقها ، على شواطئ المشرقة وخليجها
المتألني ، على منحدراتها وسهولها الخضراء الناضرة بالحياة !
كانت غيبتنا قد طالت ، فنذكرنا الآن تلك الساعات السعيدة
التي قضيناها تحت شقوقها وفي مسالكها المستوحدة إلى الوادي
والنهر ، إلى منحدرات لبنان ودساكره . ذلك بأن بيروت كانت
النوذج الوحيد الذي أقمنا فيه دوننا ضجر أو شعور بالسأم .
لما دمشق فقد كفتنا ، بل انخستنا ، بضعة أسابيع فيها . لكن لم
نلبث أن ففلنا إلى بيروت وما في جوارعها من جوارب شتى
هادئة : بساطين زيتون ومعار خضراء أشبه بالمعابر الانكليزية .
والعمرة الثانية لقينا الزاعميل والاطف الذين ظفروا بها يوم انت
وصلتنا غرباء إلى البلد ... فيا ليتها الصداقة وبجالت الألسن ومشاعر
العصف وخطرات التفاهم ، أية هالة من سحر تحيط بك في بجاني

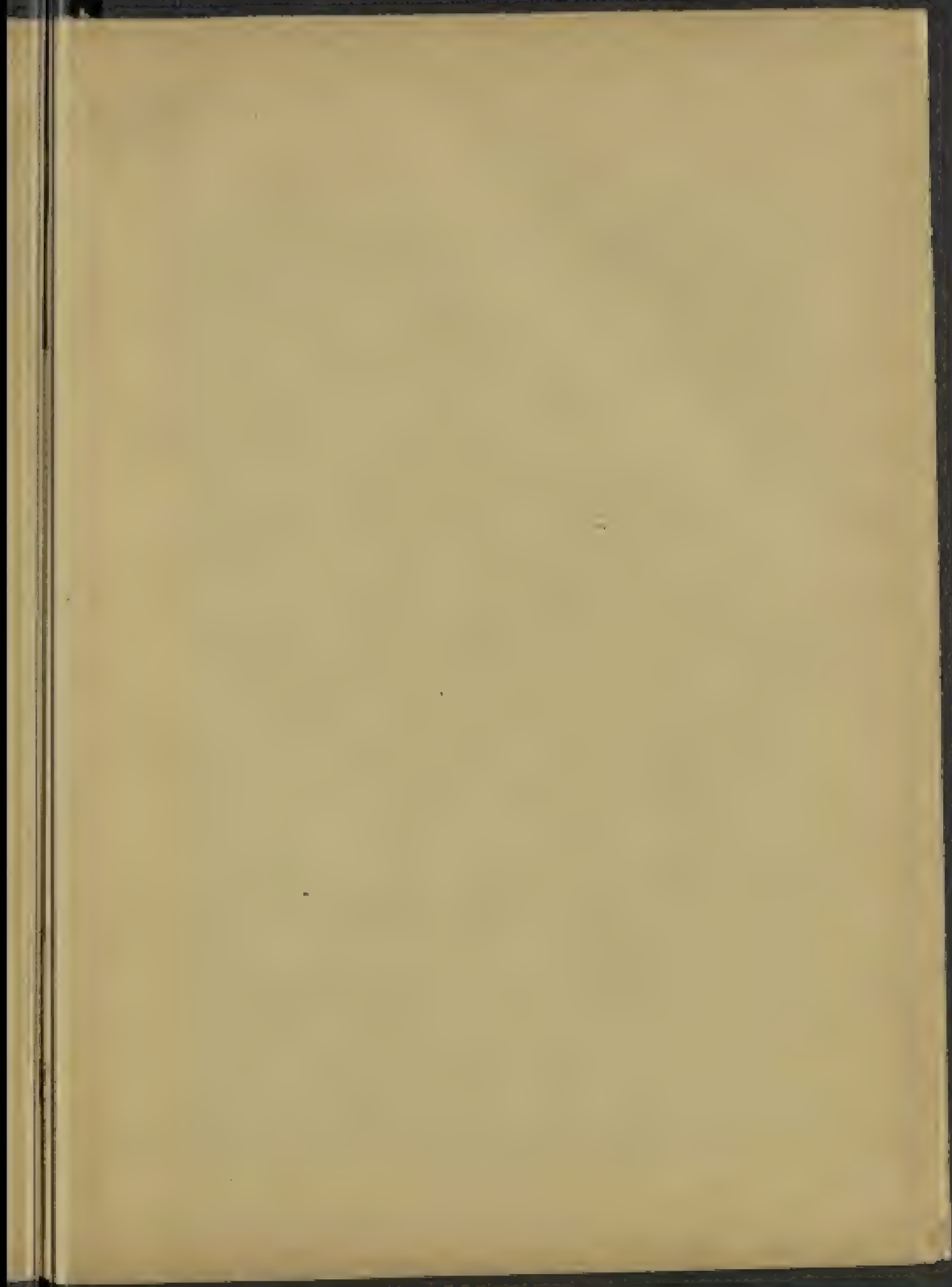
١ - رأينا أن نحن آخر هذه الرحلة الثانية : كأولها ، مصلاً في بيروت ،
ثم انتقل إلى استكمال الفصول التي وعدنا بها في المقامة . العرب .

الشرق ! وكان الروح بعد اذ تمتد لتستل من مشهد لوحات الطبيعة والآثار ، تعود فتنتوي في صاحبها انطوان الفراحنة والطمانينة ! فالسائح يعيش ، اول امره ، في المباحج والحوالج التي يصادفها في طريقه . غير انه ، غب شهو يقضيها في المدن والبوادي والحيام حيث لا ينظر اليه احد إلا النظرة الى مخلوق طاريء عابر ، وحيث لا يكثر له احد ، لا يلبث ان يشعر بوحشة تحف على قلبه . عندئذ يلوح له الوجه الذي يعرفه . وتظهر له لغة الاهتمام به والعطف عليه شبه به ينبوع الماء في الارض العطشى . « كذلك تؤنس اجراس الاحد والترايم الصاعدة الى السماء وكلمات الحق والحياة التي تبدو كأنها اصوات فقدت منذ اجل بعيد » .

أخذ المشهد الذي تراه في هذا الرسم من مكان الى جنوب المدينة بعض الشيء . وفيه يتجلى القصران القديمان واحدهما خلف الآخر . ثم ، على الهضبة الصغيرة الى وراء ، يتجلى برج قديم يقال انه قريب من الحقل الذي ذبح فيه القديس جاورجيوس النسيبي . وفي مؤخرة الرسم ، ترتفع اول سلاسل الجبال اللبنانية تكسوها الاحراج ومزارع الذوت وتنتثر على منحدراتها الاديعة . اما الى يسار ، على نحو ثلثي الطريق ، فنقع فجوة وادي نهر الكلب . ويبرز هذا الجبل المربع القمة ، المكمل ثلجاً ، بروزاً يميزه من الجوار كله . والذرى التي تمتد الى يساره هي ذرى كسروان . ويبلغ أعلى أوج في لبنان ، على ما فاسه الكولونيل « نسيبي »



مرغ پروت



اذ هو في بيروت ، تسعة آلاف وثلاثمائة قدم . ويبلغ علو
 طوروس عشرة آلاف قدم ، وجبل كاسيوس سبعة آلاف .
 يتألف وحيف مرفأ بيروت ، في بعض اجزائه ، من اعدة
 غرائبية قديمة . ويخرج عدد كبير من الناس الى الشاطئ لدى
 جزر الموج . والى بين ، يزاء الماء ، تقوم جملة من مباني القنصليات
 الاجنبية . ان بيروت هي مركز تجارة الدور والوارنة ، اليها
 يصدرون قطنهم وحريرهم ، فيأخذون عوضه الارز والنبع والنقود ،
 ثم يذهبون لبيع القمح من سهول البقاع وحموران . ولا شك ان
 الحرير الخام اهم مادة تجارية . تصادها بيروت ، تأتي بعدها مواد
 القطن والزيتون والخبز . وهي كلها تصدر الى القاهرة ودمشق
 وحلب . وما زال النشاط التجاري في بيروت يزدهر يوماً بعد يوم .
 اعلت ميناء بيروت افضل الموانئ ، على طول الشاطئ ، يؤمن
 الرسو فيه الى حد بعيد . وقد بدت في الآونة الاخيرة بوادر
 من حركة جديدة ، أغرت بعض اصحاب الماسح في أوروبا ان
 يشتروا لانشاء الاممال والمناجر في هذه البقعة . فاقدم تجار صكرو
 على التزول في المدينة ، وهم فيها يعيشون عيشة بدخ في منازل
 مريحة . ذلك ان المنازل التي ابنتها الأوروبيون مؤخراً جيدة
 منبنة ، بيتا المنازل التي ابنتها الاعلون اقل مادة ، فهي ترشح شتاء
 وتدخلها الرياح ، لا يزيد سمك الجدار فيها على حجر واحد رملي
 ينقص الرطوبة الى الداخل حيث لا تحول دونها إلا قشرة رقيقة
 من طين ان كان ثمة مثل هذه القشرة . فيتعرض الغريب في مثل
 هذا المنزل للحس والبرداء وداء المفاصل . وقد مكثنا اول الامر
 ١ وتمعنا في لغة الدارجة بالردية . - المغرب .

في بيت من هذه البيوت المبهجة ، لم يكن فيها قليلة وسائل الراحة .
كان في القاعة أربعة شيايبك لتفتح على مشاهد بديعة . فإذا أزيل
العائق الماطر العاصف ، عجز كاثولون الفحم المشعل عن بث دفء
وراحة كافية في الغرف .

تقد السفن من مختلف الأمم الأوروبية على بيوت دونغا
انقطاع . ويصل على ظهرها السياح الذين يجدون بيوت خير
نقطة يندثون منها سياحتهم في الشرق . وهكذا أعسان هؤلاء
الوافدون من الأجانب على جعل الحفلات في القاعات الأجنبية
مؤسسة مسلية .

جوار بيوت غسني بالكروم ومزارع الزيتون والذخيل
والبرتقال والميسون الحامض . ولا حصر لعدد أشجار الفوت .
ويبدو أن موارد هذه البلاد لم تنلها الأيدي بتحسين ، ولم تقفر
بتشجيع . إن مخاليء لبنان غنية بدخائر المعادن فهي تستحق أن
يعنى بدراستها . وقد رأيت طبقات الأرض المتقوية ضد البحر ،
تكاد لا تخلو في موضع ما من حبة تدل على أنها مشربة أملاً
حديدية . ولا يتدرء هنا وهناك ، المنور على كتلى مرصوفة من
تبر الحديد . وعلى كثب من بيوت ناذج من الفحم المعدني . غير
أن سعة الطبقات الفحمية ومدى عمقها ، في هذه المواقع ، شيء لم
ينعتن به . هذا ، وفي بفاع شتى من المناطق الجبلية أحداق
تبر من معادن أخرى .

في طرف بيروت ، إلى جهة صيدا ، مقبرة كبيرة تكاد تكون
لاصقة بمحاشية البحر . شد ما هي ممتلئة رائحة ينمش فيه المرء إذا
هبط الظلام على أشجار السرو ، وه القبور الآلاف والشوارع

والأمواج التي توشك أن تضرب جوانب الأضرحة وتتكرر عليها ،
ما أسرع ما يتكاثف تأثير هذا المشهد فيتركز على الأفكار . إلا
أنه ليس بالتأثير القابض المظلم . فبحر الطبيعة محيط بالمكان كله
حتى ليسبح أنساً وبهجة على « وادي ظل الموت » نفسه . فهنا
الخليج من أمام . وعلى الجانبين يبدو كالبحيرة من ذوب الذهب .
وعناك لبنان - بواقعه الجرداء وقراه البيضاء وأديرتة المستوحدة -
قد اتشح بحمرة الضوء الثلاثي . وها آخر شعاع يضمحل شمساً
وشباً من على غصن الارز والخور والنخل والصنوبر ... في مثل
هذه الغنية يستجبل على وخزة الموت او رهبة القبر ان تروّع
الأفكار التي تتجنى فتطير الى عالم حي من الحزن والعذوبة : عالم
هو رمز ضعيف (ان امكن ان يكون في أرضنا رمز) من
ذلك العالم العلوي الهني حيث « تسلك الناس عن الموت » .
وفد انيح لي ، في المقبرة ، ان اشهد الباكين على أمواتهم
داهين آيين افراداً وجماعات . واكثر ما رأيتهم افراداً اقبلوا
ينوحون على انسبائهم الراحين ، في ظل اشجار الدرو ...

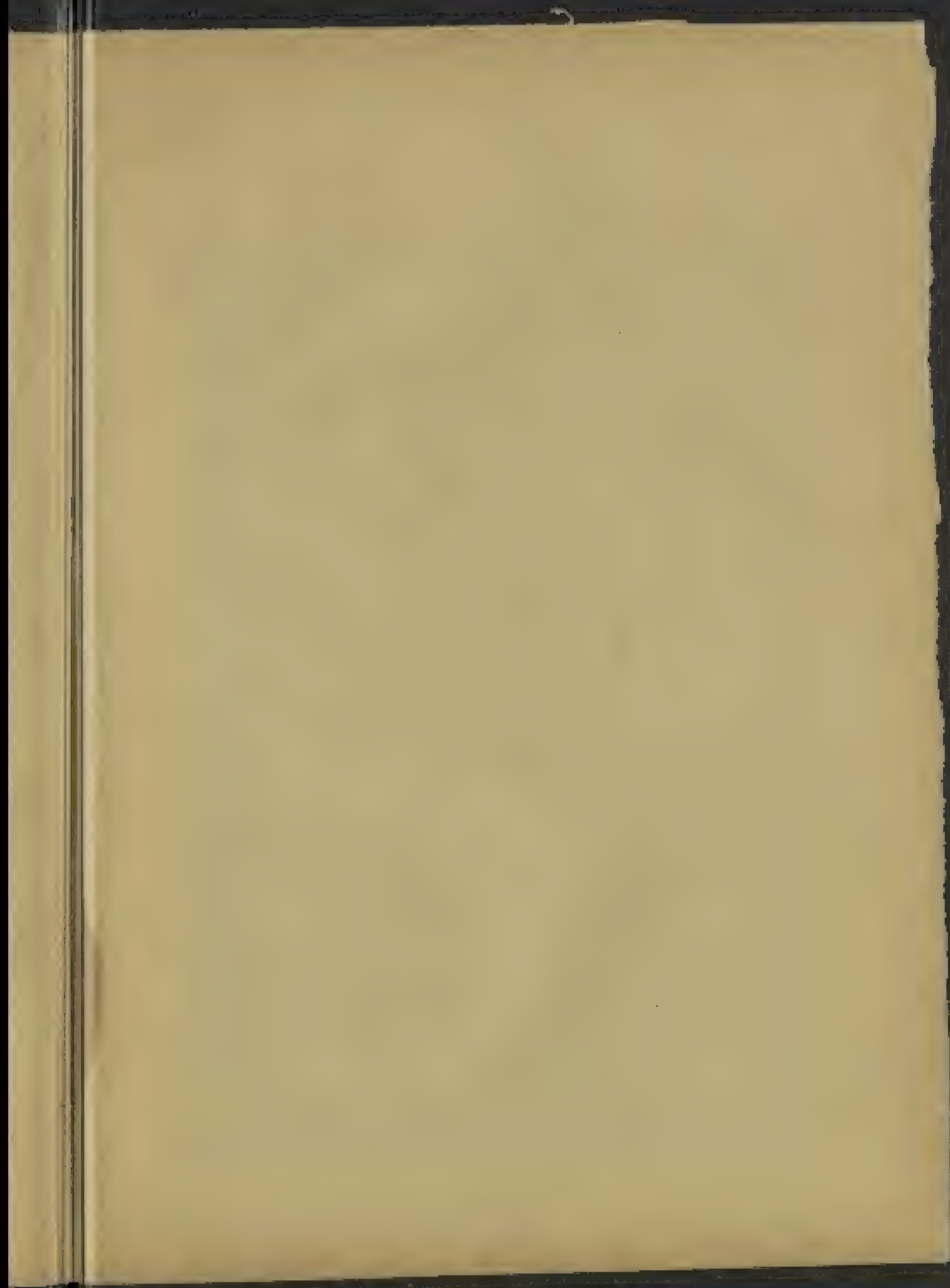
اسوار عكا لصق البحر

يبدو هذه الاسوار قائمة على قاعدة من صخر تؤولف سداً متيناً في وجه البحر . وحتى في هذا الموضع ، يظهر عليها آثار الحصار المدمر الذي خربه ابراهيم باشا . لكن ليس هذا الجانب هو الوجه الذي هجم منه فاليون و ابراهيم . فقد شن هذان القائدان هجومهما من جانب آخر الى جهة « باب الكرمل » الذي يفتح على السهل - وهو السهل الذي عسكرت فيه القوات المصرية سنة اشهر . ذلك بن الوالي عبدالله استطاع ان يقيم دفاعاً في منتهى العناد . واكبر الفتن ان ابراهيم كان اربك جداً امام هذه القلعة الصامدة ، لو ان الاتراك بذلوا ايسر جهد في تجديدها ، فدفعوا بطريق البحر - على نحو ما كان ميسوراً لهم - مدداً خفف على الحامية المنهكة .

يستطيع الواقف عند هذه الزاوية من الاسوار ان يتناول بصره مشهداً بديعاً ينسبط مدى شاطئ صور وسهل عكا الفتي المهل . وفي البعيد ، يتراعى جبل الكرمل والخليج . « اما ابراهيم » - يقول المستر اديسون في رحلته الاخيرة الى الشرق - « فرجل قدير القامة ، أبيض الى السمن ، كبير الخامة

اموات علیہ الصلوٰۃ والسلام





خفيقت الشماطين أحياناً ، منقط الوجه بالجلدي . وجدته على
 جنب عظيم من البساطة والسذاجة في كل ما يحيط به . يروي
 سراويل على زي المالك ، وصدرا مزودا مستديرا ، ووردا
 محولاً ، بسيطاً جداً دوناً لطاير أو جواهر . وعلى رأسه طربوش
 احمر . والظاهر ان منه في نحو الاربعين سنة عينا تفاديا جدا .
 بعضها نصف الغاض ، ثم يرسل بها في الغرفة نظراً مستظلاً حاداً
 يقرأ به حتى صفحة النفس . ويلاحظ ان تجريره الدروز ، وسائر
 جاري لبنان ، من السلاح في كان بدرة حصة مقصودة . وهذا
 يجره اميرهم الشهير : الامير بشير . من كل قوة ، وهذا كان
 باستطاعته . في اية وقت شاء ان يزل الى الميدان ثلاثين الفا
 معظمهم خيالة . لكنه اصبح الآن تحت رحمة ابراهيم ، تحيط
 العساكر بعاصيته وفصره . بينا تطوف بالجليل مفارز من الجسد
 تنزع السلاح من شعبه . والبشاش ابراهيم هو الذي يوفده من مقرة
 العام . هذه المفارز تفسر في قرى الجبل جميعها . تدخل جنودها
 القرية فيعلنون على اهلي امر بان يحملوا اسلحتهم فيلقوهم في
 السوق . في اجل معين ، ولا تعرضوا لعقوبة الموت . فاذا وقعت
 رية بان السلاح نخس في مكان ، أجريت تحريات شديدة . ويلاحظ
 ان الامالي انما اتخذوا على حين غرة بهذا التدبير ، فلم يدر منهم
 حتى الساعة بوادر مقومة ، وليس بالمتظر ان يقوموا ، ما دامت
 حالات هؤلاء الجليليين باميرهم مقطوعة ، وما دام الوقت زحيم زحماً
 فلم يعمل لهم مجالاً لاقتصاب . ثم جعل ابراهيم قوماً في هذا
 . ثم تصدق هذه المصانة لصاحب هذا الكلام . هذه ثمة البشاشون على
 ابراهيم باشا ثورة تولى . - المعلن .

السبيل وكال للامير ضربة تركته مقعداً أشل .
« وشد ما كان عجباً ان يرى المرء رجلاً عظيماً قوياً ، مثل
ابراهيم باشا ، يعش على رعد وضعة في منزل خاص في دير القمر ،
بينما يعش الامير الشيخ في قصره الفخم ، على بعد نصف ميل ،
محاطاً بالأهية والمباني الشرفية . وندر الانسان ان ينصوّر طلعة
مشيخة أهيب من الامير بشير ... »

« يوشك الرجل ان يكون في التسعين من عمره ، نسدل على
صدره حبة طويلة بيضاء ، يفاض الناج . ويوم ليلته ، بدت لها
عليه سماء أبوة وهدهد ووفار : مظاهر لا شك انها كانت تعارض
تعارضاً مؤلماً وحقيقة شعوره يومذاك . كان يرثي لباساً أبقياً
نفساً مديلاً بالفرو الأسود . ويشد وسطه بوزن من الحرير
الكشميري ، شك تحته خنجر مرصع المقيض بالجواهر . اما
أصابع يديه فكانت مكسوة بالخواتم . وأقبل عبيد سود في ثياب
قرمزية ، فقدموا لها شبات^١ لتدخين حلوت ، حيث نوضع في
الافواه ، بحبات بديعة من « الكهرياء » مطعمة جواهر . وقد
أمسك الامير في يده الواحد من هذه الشبات الطويلة . »

١ جمع : شق ، وهو أداة معروفة للتدخين . - لقمر .

جبل الكرمل مشارف البحر

يفرض في هذه البقعة أنها المكان الذي ابصر فيه خادم النبي
إيليا دنوة السحابة. أرض الجبل هنا صخرية جداً، قفرية، قاحلة.
ومع ذلك استطاع الرهبان أن يقيموا جنيّة خلف الدير. أما
المدينة الصغيرة حيفا، عند السفح، فلا توفر للمسافر إلا
ملاذاً بائساً يلجأ إليه. ومن هنا كان السائح يتابع طريقه مقتبلاً
إلى الدير. وأنه لدير أصغر من كثير من الأديرة اللبنانية، لكنه
لا يقلّ عنها وسائل راحة. ومثله دير حريصا في لبنان، كلاهما
ملك الأرسالية الكاثوليكية: «الأرض المقدسة» Terra Santa.
حقاً أن دير حريصا، الذي يبعد من عينطورة ساعتين، لبناء
جميل فسيح يجد فيه الغريب ملجأً مريحاً وحفاوة وضيافة سخية.
أما الرهبان الذين يتولونه فعددهم قليل، مع أن فيه أكثر من
ثلاثين حجرة عند الكنيسة والمطعم والمطبخ وغرف أخرى.
وموقعه يديع مطلقاً على الشاطئ والبحر، وغواؤه منشط نقي.
ومن الأديرة أيضاً، في لبنان، دير بزمبار، يتزله بطريرك
الارمن. إذا رقد عليه الغريب وجد فيه ضيافة البقعة، ورأى
المائدة مزودة بالطيبات التي تدل على ذوق رفيف، وفي جملتها

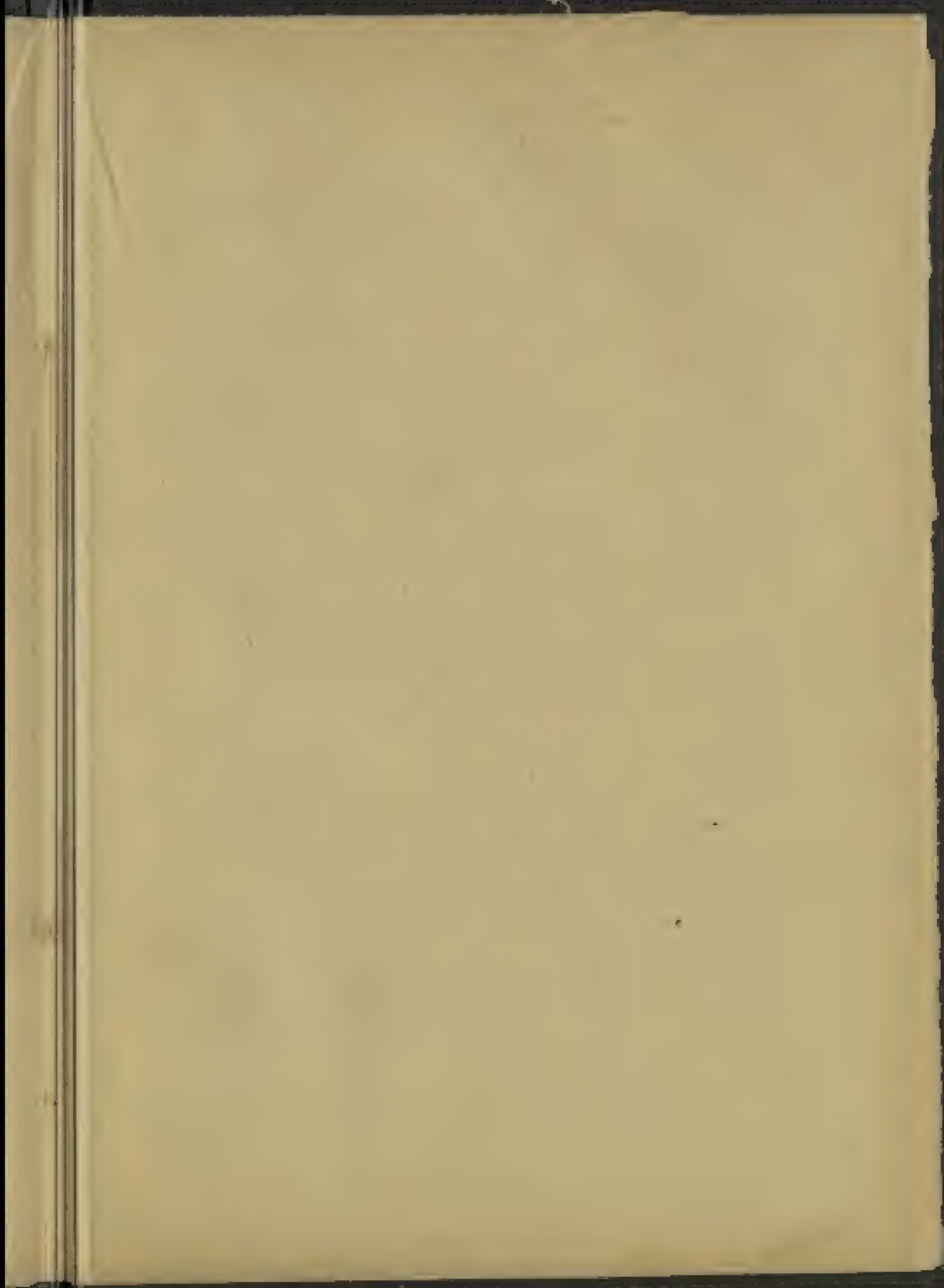
الواع شتى من الخور ، معظمها رابع الطعم ، يؤتى بها الى المائدة
بالسلسل ، فتشهد بجودة الكروم والعصارين . والاعراب على زمام
انه مدرسة لاهوت لا دير لربان . وفيه نحو من عشرين طالبا
يتبعون دروسهم لسمندار تلك الكنائس . ونحو سبعة
وفلسطين من دير يعادل بؤمار في حسنه ونظافته . وليس في
المؤسسات الرهبانية الاخرى رجال كرجال بؤمار كفاءة وتخصيلا .
انهم اقل انس ونشاط وثبات .

بقي دير عين وردية ، على بعد اربع ساعات من بيروت . هو
مؤسسة مارونية يتعلم فيه الموارنة اللغة السريانية وينهاون لخدمة
الدينية . يتجاوز عدد طلابه العشرين ، منهم السبعاني الصغير حفيد
يوسف السبعاني الشهير مؤلف المكتبة الشرفية و Bibliotheca
Orientalis ومبعوث البابا في المجلس الملي الوطني الموقوف
عام ١٧٣٦ .

غادر هذا الرجل - يوسف السبعاني - حوامع لبنان في
شبابه ، تلمه حمية لارتياد صحنوز العلم في امان خزائنها .
كان لبيانيا نبت من منبت وضيع . ويقال انه حمل راعيا
يرعى امراب الماشية على عضبات لبنان ، ويفترض العكس
السير من الدير الجاور فيقرأ في ساعات النهار الطويلة .
وعند في هذا الحلاء اللبناني ، الذي يناسب نشأة العبقريات
المستوحدة ، اعد يوسف السبعاني نفسه للنجاح الذي ينظره في
الفالينكن . ثم سافر الى روما ، فقبل في المدرسة المارونية التي
كان يخصصها البابا كمينت بعلمه وعنايته . فما لمع ما استوعب
هذا اللبناني نظر البابا ببساطته ومواهبه ، فجمعه اول الامر

寺の裏山





كاهناً من كهنة القديس بطرس . فدفن نفسه في مخادع العلم في
الفانيكان ، يوشك ان لا يترك لنفسه ساعة يقضي فيها حاجة من
حاجاته الزمنية ، او يحضر الاحتفالات الدينية في كنيسة القديس
بطرس . شد ما كانت حياته نقية كحياة معظم المستغفرين في
الكتب . رشد ما كانت روحه تولم الولاثم ليل نهار ، بينهم
لا يرنوي ، على مئات والوف من مجلدات يقوم بيها ويقعد وينام .
لرز لبنان وبساتين برفقه ومنابت سروه لم تكن لتجلى في عينه
بضعف ما تجلى به من مجد هذه الغابات الكنيية التي تظله في
الظيرة ونقبة عواصف الحياة .

وكان نجاح السمعاني في احراز العلوم سريراً ، رغب النطاق ، حتى
رأفّع في وقت وجيز الى مرتبة الامير القيم على هذه الخرائن
الادبية الغنية . وسارت له شهرة تجاوزت جدران الفانيكان القدية
الى جملة اصقاع وجدت مؤسساتها العلمية فخراً لها بان تلحق بها
اسم المرموق . ثم عينته البابا قاصداً رسولياً في لبنان وزوده
بسلطة وصلاحيات تامة لفض الخلافات وقمع البدع ومعاقبة
الرافضين .

فرض السمعاني ، على الز عودته الى لبنان ، اياماً مع ابويه
الشيوخ ، وكان اعتزازهما به عظيماً . واحتشد حوله اصداؤه
وانسابه ، مدركين كل الادراك انه اصبح الآن يقبض بيديه على
مفاتيح التقدم والتأخير . إلا انه حمل هذا المجد كله في اعتدال
رائضاع . فقد كفاه ان حظت امينته العزيزة التي تنمها حفلاً .
وظلت اخلاق طالب العلم وأذواقه هي الاخلاق والأذواق الغالبة
عليه . ظل ، اذ يطوف في مسارج ايامه الاولى البسيطة ، يصادف

شبابه الراعي والكوخ والعراء الجلي ، فيقارن بين هذه الاشياء
التي خلفها وراعه وبين منزله الرقبة الراحنة ، ويذكر قاعات
الفانيكان الفخمة ومجلداتها ومخطوطاتها النفيسة ، فينابه الحزن . ثم
لم يلبث ان عاد قاستأنف سيرته العلمية في روما ، لم يقطعها عليه
بلاء او شغل بال . وكانت شيخوخته مخوفة بالشكريم والنيجيل .
حتى اذا دنت نهايته ، لم يرغب مثل برزيلاي Barzillai ان
يواري في قبر ابيه وامه . ، فدفن في مقبرة روما ، وأسفه ان
يفارق حياته الهرمة ليس بأقل من أسفه ان يفارق كنوز الفانيكان .

عكا

وحمل الكرمين على يده

تخطمت القرة المنيعة التي جعلت من هذه المدينة فيما مضى قلعة لا تؤخذ . تهدمت الاسوار التي كانت تدور بالسبل لتتطبق على عكا ، يراها الحديدية . هدمها الحصار الأخير الذي ضربه عليها ابراهيم باشا مدى ستة اشهر دافعت فيها المدينة دفاع المسميت . فأصبحت عكا اليوم ، بعد تلك النظافة والمناطة وبحبوحة الازدهار ، ترندي طابع دمار . حتى الجامع البديع الذي بناه الجزار أصبح اليوم قيد الترميم بما حقق به من خراب .

يقوم هذا الجمع في وسط اللوحة ، محبة هذا الفصل ، فيرفع فوق سائر المباني الرا من تسماع الجزار الشمس وشاهداً على خشوعه . وامن الجزار أراد يوم شبنه ان يكون نوعاً من كندرة عن مائة الدموية الكثيرة . على ان الندامة والتوبة كانتا عطفين غريبين عنه . وكان ، او امكنه ، جديراً بان يلقى ملك المول بانذار فاس شديد او بوسيلة تهديد .

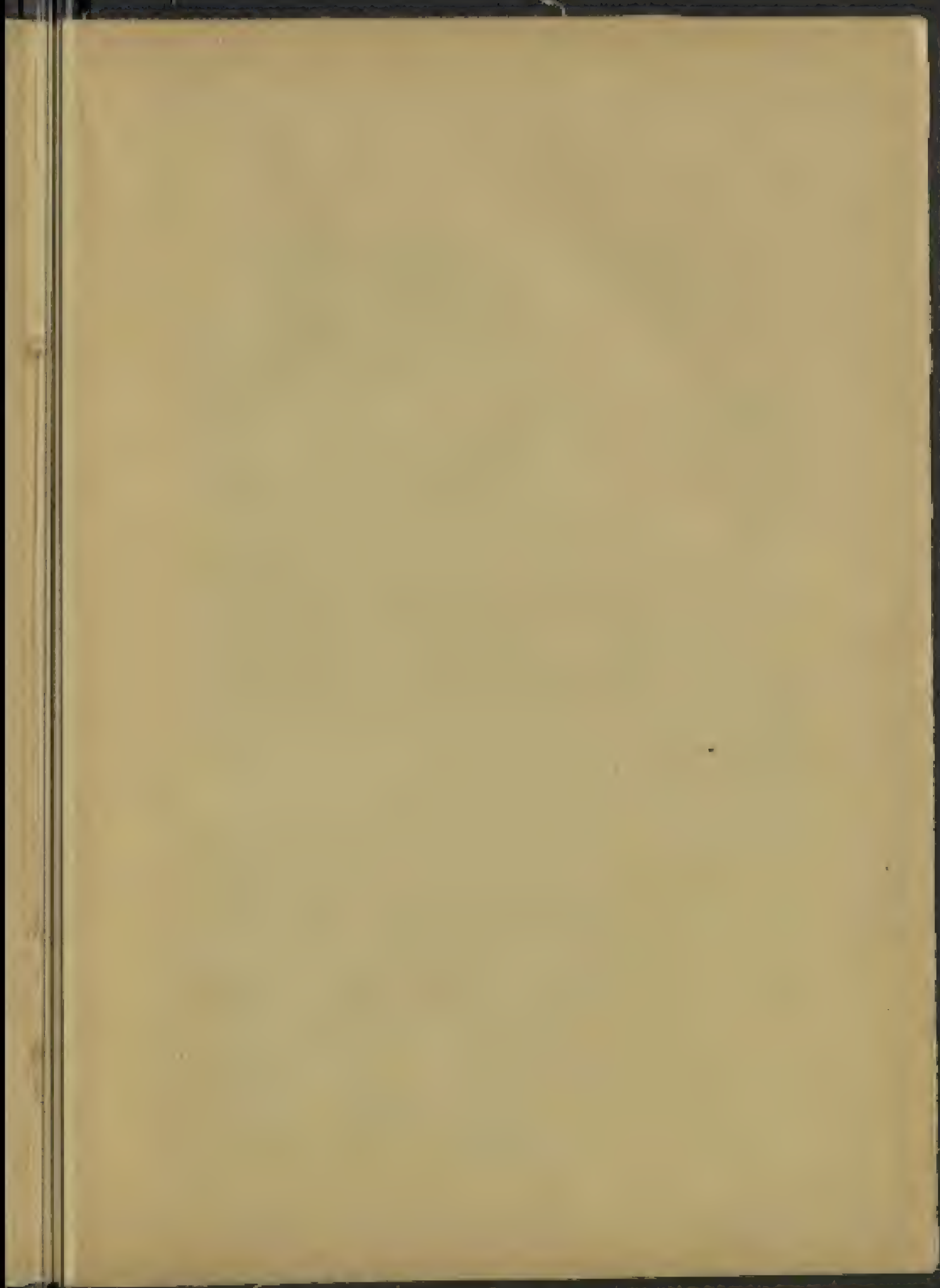
يطال الخيز والنخل ساحة هذا الجامع البديع ، وتؤثر في فناء نفورة عذبة . هنا اعتاد الطاغية - كلما حلّ المساء فساق في ركابه النور العام الذي يحبه الاتراك - ان يقبل فيصلي في الاروقة

تحت القبة التي رفعتها يدها . هنا اعتاد الطاغية ان يشخص - ولا شك - الى السماء فيما بعد ، يوم ينقطع به عمره الغموس بالدم والجريمة . اما اشباح الالوف الذين قتلهم غدرًا منقوعين بدمائهم الباردة ، قتلهم بالنفاس او بالسيف في السرايب متبسمًا اكثر الاحيان ، فهؤلاء لم يخطروا له ببال او يملوا له في ضمير ، فيكذبوا عليه عبادته او يعكثروا آماله . حتى اولئك الاثرياء والنبيلاء والفقراء والمقצועين ، اولئك الذين لم يسلبهم الحياة فاكثف بشويهم : جدد انوفهم وشرم شفاههم وحلم آذانهم ، لو انهم اعترضوه على ساحل نهر الظلام ، فاحشدوا شاهدين عليه بالتنكيل الذي اوقعه بهم ، لرحمهم بتكبيبه ولشق في صفوفهم طريقاً الى بقاع الفردوس .

كان الجزائر في الجامع ورعاً تقياً جداً ، يدنو صلاته بصوت مرتفع حار ، وبسجد السجدة كلها بغيرة في العبادة كغيرة زاهد متبذل . ومات في فراشه مطمئناً غير مبالي ولا قائب ، في الثاني من عمره ، « لم تصعب مونه جوفات ، وبقي قلبه ثابتاً في ضلوعه . » وقد اتفق الكتاب هذه السطور ان جميع من السير سدفى سميت انه جلس في مساء ما الى الجزائر في الديوان ، وكان هذا مغناظاً لامر ما ، فتوعدده خفية في معرض الحديث وأشار اليه بان سجن الاميرال بل قتله اهون شيء اذا اراد الواي . فأجابه سميت : « هذا صحيح جداً يا باشا . من السهل تنفيذ هذا الكلام . لكن اترى الى هذا المركب لا » واومأ السير سدفى الى مركبه الذي يخفق عليه علمه في الميناء . « قبل ان تغيب الشمس ، تكون عكا اكداش رماد ! »



۴۲. وادی وادی



الشارع الى يسار ساحة المسجد ، في الصورة ، جديد ، والجدران
 المنقضة ، في مقدمة الصورة ، هي جدران القصر - لقد دمرت
 تدميراً . والمراكب في الميناء ، الى جانب البرج ، هي الزوارق
 الخفيفة المعروفة في البلاد . وحيال انشيد يبدو جبل الكرمل
 منحدراً الى البحر ، على قمة دير وفي سفحه مدينة حيفا الصغيرة .
 وفي هذا الجبل خضرة وغابات وتضاريس متنوعة لا تبدو على
 هذا البعد . لكن شكله في الجملة يمثل تمثيلاً دقيقاً .
 وكثيرة هي اسر الاغنياء والاعيان التي كانت تقطن هناك .
 ذلك بان المدينة كانت عاصمة الولاية ، وكان السهل الواسع البديع
 خارج اسوارها لا يزال يزعمون بتخزين الجنود في حضرة الباشا
 نفسه ...

٩ ثم يستطرد المؤلف الى سرد حكاية يستغنى عنها . - المغرب .

خاتمة

كثيراً ما يبالغ في الاخطار التي تنطوي عليها رحلة في لبنان وسوريا وفلسطين . ولقد تضاعفت جداً في الاعوام الاخيرة - نفقات مثل هذه الرحلة ومناعها . فهذا لامرئين ، في سفره التي تجاوزت السنة ، اخطر الى انفاق ثلاثة آلاف او اربعة آلاف ليرة استوليمية . ولا شك انه مقدار يزيد على المأزف المعتاد . إلا ان الشاعر الفرنسي اشترى جيداً جملة جعل ينقل عليها في موكب كموكب الامراء . وتلك خير طريقة لارتياح بلاد ما . على انها في الوقت نفسه اكثر الطرق تكاليف . فان سائحاً يسبح على هذا البحر ، ينتظر منه ان يقدم افدياً الى المشايخ والولاة وحشهم وخدمهم . ثم بالنسبة ، فبعض لامرئين ثمانين الف فرنك ثمن كتابه ، فلم يخسر في الواقع شيئاً .

لكن لا بد من الاعتراف ان مذكرات رحلته إنما هي اجود ما لدينا عن سوريا ولبنان وفلسطين . يدف الرجل المواقف وصفاً أميناً ، ووالعاً من الجهة الادبية . ولا يدخل انت سائحاً ، حتى اليوم ، قد ارتاد لبنان بمثل هذا التحسس والاهتمام . ومع ذلك فلا يزال في هذه السلسلة النبيلة من الجبال شيء كثير لم يتم وصفه

ونصويوه بعد .

توفر اديرة لبنان للزائر منزلاً مريحاً في اغلب الاحيان .
لكن يجدر بالسائح ان يتحاشى الاديرة القشقة اذا كان همه النظافة .
على ان يوسع المسافر ان يقضي ، في كثير من هذه الصوامع
الرعائية ، جملة ايام هائلة ، بين مشاهد لبنان الطلقة البديعة ، يسمع
من جرس الدير انبيج على كتابة نغماته .

وتقول اللايدي استير استاموب ان المناخ على الشواطىء اللبنانية
اصح مناخ انبيج لما ان تمكت فيه . وتشيد بهواء هذه البقعة اذ
يحب على المنحدرات والجبال نقياً بارداً ، في جزء كبير من السنة .
ما اعذب الصباح الباكر في هذه المناطق ! يدعوك داعي
الرحيل فتنسيفظ للمسير بينا تطلع اشعة الشمس توشح الآفاق
بنورها البازغ . وشد ما يعترضك في طريقك ، قبل ان تضل
السحب وينهار الظلام عن الاودية ، مشهد فريد ظليل . تسمع
قصة الراعي ترمس صدحها على القسيم ، وتلتوي بك السبيل عبر
مروة صعبة ، او تدخل بك في وعاء ينصب فيها الشلال ،
وربما تلتك بك اصدااء الترابيم من دير قريب . حتى اذا
ادركك الظهر استرحت في ظل شجرة او صخرة معلقة تعليقاً .
فاذا كان المساء انتهى بك مسير نهارك الى استضافة شيخ قرية
ما او احد القرويين الاغنياء . فتكون العائنة كلها في خدمتك ،
اذ ليس في لبنان عزول للنساء . تنهوي الزوجة وبناتها ، في البسنيق
النظيفة وشعورهن المجدولة صفائر جميلة ، فيبوشن بايديهن طعسانم
العشاء . وربما عرج على المنزل كاهن ، فانضم الى هذه الحلقة التي
لا تعوزها النظافة حتى وسائل الراحة .

ومعظم الانحاء الواقعة على دروب لبنان مأهولة بالسكان . فلا
يخطر السائح الى الانتظار او البحث طويلاً عن مكان يأوي
اليه . ان المنحدرات اللبنانية لمصلحة توصيعة بالقرى الصغيرة ،
وحولها ارض جيدة الحرت مزروعة قمحاً او كرمات او زيتوناً
او توتاً .

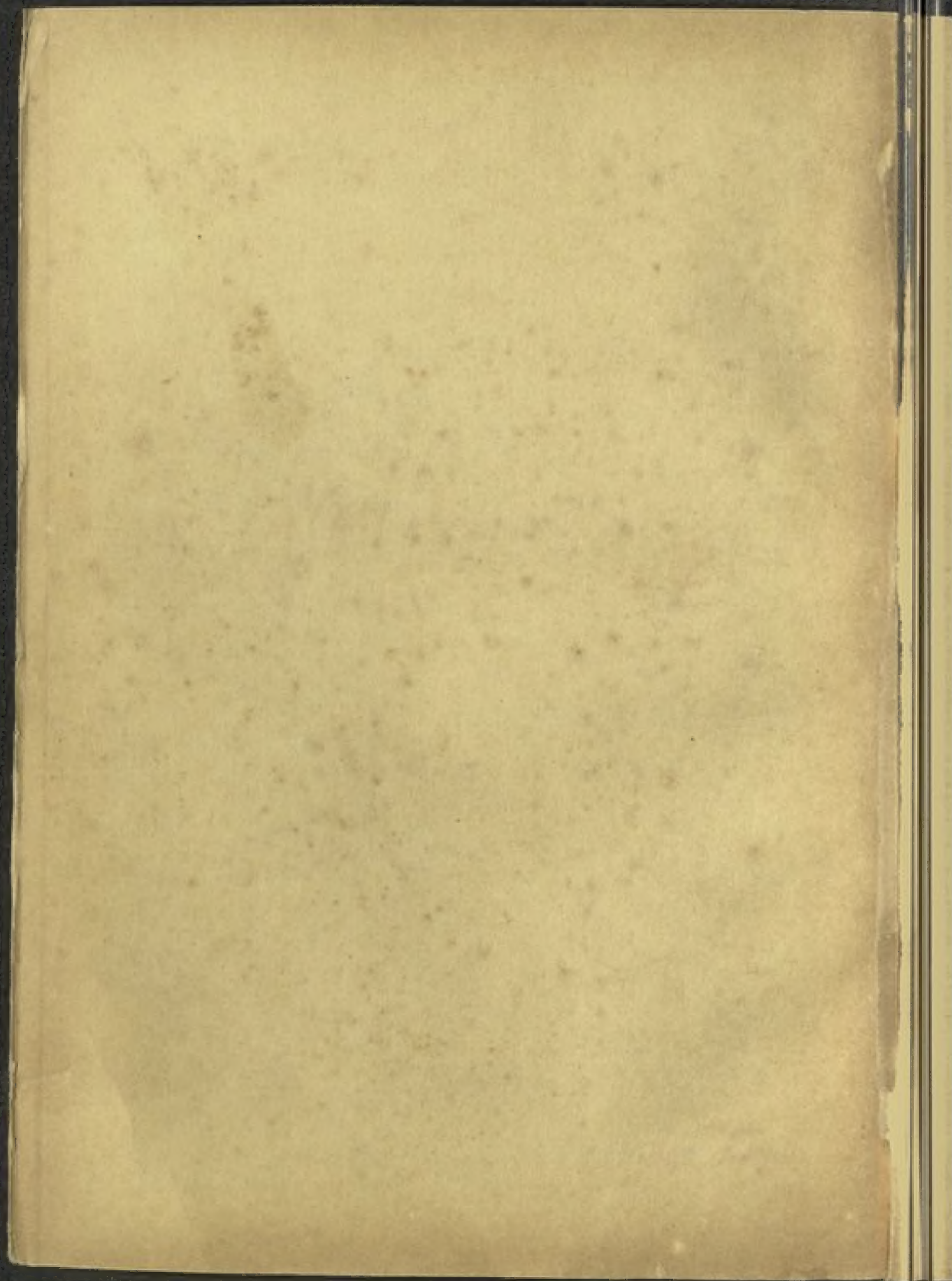
وقد يصدق ان رحلة النهار كان اكثرها موحشاً عبر وعور
جرداء . فلشدت ما يرحب السائح عندئذ بانقضاء ينقلها الى مثل
هذه الحقة الصغيرة من الالس والراحة !

فهرست

مقدمة	٥	خان وجسر	١١٣
بيروت وجبل لبنان	٩	بيت الدين	١٢٦
مصب نهر الكلب	١٦	دير القمر وقصور بيت الدين	١٣٥
قلعة فوطية	٢٥	قرى الباروك	١٤٥
قبر القديس جاورجيوس	٣٠	معبر في غاب الارز	١٥٢
طرابلس	٣٤	جبل الشيخ وحرمون	١٦٠
قصر في ضاحية طرابلس	٤١	مشهد عام لبعليك	١٦٥
الكنيسة وبيت الشيخ في اهدن	٤٦	خرائب بعليك	١٧١
بشري	٥٥	المبكل العظيم في بعليك	١٧٧
دير مار مطانيموس في جوار اهدن	٦٠	في داخل المبكل العظيم	١٨٤
قرية اهدن	٧٢	الاعمدة السبعة المنفصلة	١٨٩
قرية زغرنا	٧٨	مخيم في رأس العين	١٩٤
مشهد في جبل لبنان	٨٤	صيدا ومدخلها من جهة بيروت	٢٠١
شجر الارز العريق	٩٢	مقبرة تركية في ضاحية صيدا	٢١١
مشهد عام للارز	٩٩	جون	٢٢٠
قرية بروحانا	١٠٦	مشهد صور من اليابسة	٢٣١

٢٦٥	.	.	.	مرفأ بيروت	٢٣٨	.	.	.	سلم صور
٢٧٢	.	.	.	اسوار عكا	٢٤٣	.	.	.	بقايا مرفأ صور
٢٧٧	.	.	.	جبل الكرمل	٢٤٩	.	.	.	قصر عند جرن
٢٨٢	.	.	.	عكا	٢٥٥	.	.	.	زرافة
٢٨٨	.	.	.	الحاكمة	٢٦٢	.	.	.	منظر وخان

اتى طبع هذا الكتاب على مطابع نصار
في اليوم الثامن والعشرين من كانون
الاول سنة الف وتسعمائة وثمان واربعين



J. J. V. 5

التع